في الأدب العربي الحديث

بحوث ومقالات

يوسف عز الدين

مطبعة البصري
١٣٨٧هـ
١٩٦٧م

ساعدت جامعة بغداد على نشره

ʿIzz al-Dīn, Yūsuf

Fī al-adab al-ʿArabī

فى الأدب العربى الحديث

بحوث ومقالات

يوسف عز الدين

ساعدت جامعة بغداد على نشره
مطبعة دار البصري ـ بغداد
١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م

الى استاذى وأخى الدكتور محمد طه الحاجرى

ذكرى صحبة طيبة تلميذاً فى جامعة الاسكندرية ، وزميلا فى جامعة بغداد

وما أغناها من تلمذة وأحلاها من صحبة . رفت كأحلام الصبا ،

ومرت كأنسام العبير .

الأدب في جميع الأمم، أهم أسس نهضتها وأقوى دعامة فكرية تستند مسيرتها نحو الحضارة والرقي، وبوساطته يمكن التمهيد لحياة اجتماعية وسياسية واقتصادية تخدم الشعب وتطور حياته (١) .

وعلى الأديب العربي اليوم واجبات صعبة فينبغي أن يقود أمته . ويسير بشعبه نحو مجالات رحبة ، وآفاق واسعة ، ومثل سامية ، ويدلها بقلمه على الدرب اللاحب نحو أمانيها العادلة .

وكلما اشتدت صلة الاديب بمشكلات الشعب ، وشاركه شعوره وأحس بآلامه وأحاسيسه ، كان أقدر على تلمس العلل وحل مشكلاته وكان حاذقاً في التوجيه ، واصلاً الهدف باسرع السبل وانجعها ، لأن الأديب يمكن أن يوجه الشعب بانتاجه نحـــو تطور سريع ، وتبدل فكري شامل ، ونحن اليوم بأمس الحاجة اليهما .

وليست مهمة الأديب العربي اليوم قاصرة على نواح محدودة ، وأساليب

---

(١) سبق أن كتبت مقالا في جريدة لواء الاستقلال سنة ١٩٥٤ في ٢١ تموز عن (رسالة الشاعر العربي اليوم) وما تزل أحرف هذه المقال حية في طيات هذه المقدمة .

متميزة ، وانماط خاصة، في البيان والبلاغة ، وإجادة الاسلوب، وجزالة الالفاظ ، واستخراج المعاني ، لرسم صورة من الصور يُرضي بها قسماً خاصاً من الأدباء أو أرباب السلطان إنما أهم واجباته العمل على تحقيق هذه الصورة التي رسمها لكي يحقق للشعب أمانيه ويساير ركب التطور الحضاري الحديث ويسير على سنن التمدن

إذ ان مهمة المعاني المستحدثة ، والخيال المجنح ، وجزالة الأسلوب ، وعمق المعنى ، يجب أن تستخدم لتصوير الحياة الواقعية ولتشعر الشعب بالحركة واليقظة، وتعكس صدق ما فى الحياة من احداث فيندفع الشعب نحو أهدافه ليحققها وليساير ركب الانسانية فى الخير .

والعراق ما زال بلداً شاعراً يهزه القريض ، وترنح أعطاعه الموسيقى العذبة ، والمعاني السامية ، والخيال العالي ، ولكن لو درسنا شعرنا لوجدنا تجربة كثير من الشعراء لم ترتفع بالشعب الى المستوى الذي يجب أن يسير فيه مع التيار الفكري العلمي لأنه لم يقدر على أن يجاري الأحداث العربية ، ويهضم التجربة العربية في توثبها واندفاعها نحو ما تريد لأن المشاركة الحقة تنتج لنا أدباً طافحاً بصدق الصور ، ودقة التعبير ، والملائمة العميقة للاحداث التي تمر بالكيان العربي فما سبب هذا ؟ !

هل كان أدباء الجيل الماضي أقدر منا على التعبير ؟ أم أن الأحداث هزتهم اكثر مما هزت هذا الجيل ؟ فكانت تجربة جيل الرصافي والزهاوي والازري وجواد الشبيبي أصدق تجربة من هذا الجيل ؟ !

والنقاد المحدثون يقيمون لنجاح التجربة الفردية أهمية كبيرة فعلى عمقها يكون نجاح الأديب في انتاجه ، وعلى مقدار انعكاس الواقع النفسي الشعبي

والتجاوب مع حاجاته . يظهر تفوقه . وتقدر مكانته .

وشعبنا خاض معارك ضارية في مختلف حياته بعد أن خرج من الحرب العظمى الاولى والثانية وابتلي بنكبات متوالية ، سياسية وقومية وفكرية واجتماعية وخلقيـــة ، ومع أنه ما زال يخب للوصول نحو أفضل السبل للنجاح فإن عوامل التمزق والتشقق ما تزال تعمل عملها في صفوفه فعلى الأديب أن يعالج مشكلات شعبه بسمو ودقة وصدق وعمق وتجرد . . ويضع نصب عينيـه ، تفضيله الصالح العام على مشاعره الخاصة .

وأنا من الذين يتذوقون الشعر ويحبونه ، ويأسرني بجمال معانيه ، وحلاوة صياغته ، وانتشي بالشعر الجيد ، واقدر المهارة الفنية ، والاسلوب الرائع ، ولكن حياتنا الراهنة تفرض مثلاً يجب أن يسير بهديهـــا الشاعر والاديب ، فيجب ان يكون له هدف واضح ، ورسالة يشعر بأنه مسؤول عن ادائهـــا . فانا أمقت عبيد الكلمات البراقة ، وأبغض خدم الأساليب المتحجرة ، ولـكني اكره الاسفاف ، واسخر من هلهلة النسج ، ورصف الالفاظ دون موسيقى ..

ولا اريد أن احكم بعقلية الجرجاني وابن الاثير والجاحظ ، ولا اريد أن أساير ابن سلام وابن قتيبة في نظرتهما للشعر والشعراء . . ولـكني اخرج الشعر من الحوزة العربية إذا كانت تراكيبه واخيلته مستوردة من دراسات أجنبيـة لا تمت للعرب وواقعهم بشيء .

ونحن العرب قد مررنا بمراحل من الحضارة والتطور الفكري منذ النصف الأخير للقرن التاسع عشر ، ويجب الانتجاهل واقعنا ومقوماته كما لا أريد ان نترك الجيد من الآداب الاجنبية ، والافكار غير العربية في تاريخنا العربي الطويل وتراثنا الاسلامي

الزاخر، مقومات يمكن لها أن تتلائم ومقتضيات الحياة الحاضرة، ويمكن أن نأخذ منها ما يفيد هذا الأدب العربي المعاصر والفكر العربي الحديث. فعلام تجاهل هذه التراث وفيه حضارة عميقة قامت على انصهار مع تراث امم كثيرة وتجارب شعوب مختلفة؟ فيجب أن نقتبس بوعي عميق وإدراك واسع من معين الآداب الاجنبية ونروّي ادبنا المعاصر. لأن أهم اسس الثقة بالنفس التي تدفع الامم نحو الرقي أن تبدأ من تراثها وتأخذ ما يلائم حياتها ويبلور فكرها الحديث مع الحضارة المعاصرة دون أن تضيع الشخصية الوطنية والكيان القومي فى هذا الجديد

وقد كانت الثقافة فى الجيل الماضي وقفاً على طبقة معينة وكان اكثر من تسعين بالمئة فى جهالة ثم انتشرت بعد خمسين سنة الكليات والجامعات وكانت وسائل التعليم محدودة والحياة العامة بدائية ساذجة فانتشرت الحضارة ووسائلها المتنوعة واصبح الاختلاف واضحاً جلياً بين الجيلين.

والثقافة صدى لمثل الشعب العامة وقد تعلمنا من الاحتلال والاستعمار ثقافتنا وآدابنا فيجب أن تكون ثقافتنا الجديدة وفقاً لمثلنا الجديدة فقد تحول المجتمع العربي وبدأت طلائع النهضة والاحساس بالذات تتضح. فليس هناك استعمار يقف امام رغبتنا فى الثقافة، وبرزت ثقافة الطبقة المتوسطة وبرز للعمال والفلاحين شأن وتغيرت السياسة الاقتصادية فى البلدان العربية.. عما كانت عليه منذ نصف قرن. فالافضل لنا الاعتماد على ثقافة عربية مسلمة جديدة.. مستفيدة من ثقافة الانسانية وحضارتها المعاصرة دون تميز الا بما يفيدنا ويطور حياتنا.

والفكر العربي مر بمراحل تاريخية طويلة وشابته رواسب القرون الطويلة فما الذي يضيره لو تطور مع الجديد ولاءم نفسه مع الحاجات العربية الجديدة؟

أليس من حق الشعراء أن يكون لديهم فكر عربي جديد فيه من المعايير القديمة القوي الممتاز ليصمد امام تيار الاستعمار الفكري ويمكنه من بلورة جديدة للأنماط الحديثة للفكر العربي والثقافة الاسلامية ويدعم هـذا ما حققه العرب والاسلام من خطوات واسعة في مجالات العلوم والفنون والآداب في خلال القرون الماضية .

ان الادب العربي بحاجة الى تغير جذري فى المضمون الفكري وان يتخذ سبلاً غير التي اتخذته في خلال السنوات الماضية وان تكون فيه للكاتب شجاعة القائد وعـزم الرائد وان يكون الاديب مفكراً ثورياً خلاقاً لا يتزعزع أمام الاحداث ولا ينحني امام الملمات ويجب أن يكون بطلاً يختط تاريخاً فكرياً جديداً في اطار المقومات العربية والاسلامية فقد سادت الحيرة النفسية والبلبلة الفكرية والتقلب الادبي بين كثير من ادباء العرب .

وتتلخص مقومات الادب الجديد بمناهضة الاستعمار ومساندة العمل الاشتراكي ورسم صور جماهير الشعب العربي ليسير نحو الوحدة العربية في إطار ثقافي جديد وإلا فسوف تجرفنا احدى قوى الحضارة الراهنة والعقائد الجـديدة وتضيع الشخصية القومية، والكيان الوطني ويغدو العربي مسخاً غريباً، لأن الكيان الجديد لن تتوطد اسسه الا إذا انعكست المثل الفكرية فى السياسة والاقتصاد فى الفكر العربي واستخدمت في سبيل خدمة الشعوب العربية ، وتقويتها وبعث الثقـة فى مقدرتها لاستئناف النضال والدفاع عن كرامتنا ما دام العرب يريدون الاستقلال والوحدة والحياة الفضلى والحرية .. ويجب أن تكون لنا خصائصنا القومية ومميزاتنا الوطنية حتى ترتبط الوطنية والقومية بالاشتراكية وبالحرية وبالوحدة العربية اذ

أن الاعتماد على التسلط الاستعماري الفكري لن يستطيع خلق ثقافة وطنية حرة صامدة. ولن تقدر الشعوب على تغذية ثورة النضال بسلاح مستورد ما لم تكن هناك طاقات لاستعمال هذا السلاح وقابليات للاستفادة منه .

ولسنا بقادرين على الاستفادة من مصادر الثقافة الأجنبية وحدها دون أن نختار من الثقافة العربية الاسلامية الاصيلة ما يفيد الحاضر بتفحص وامعان، وبنقد عميق واسع ، ودراسة موضوعية . لأنني لا اريد الاندفاع بدون روية وانما اريد الملاءمة بين الخصائص القومية الذاتية مع الفكر الحضاري العالمي .

وتتجلى هذه المشكلة في الحيرة التي ما تزال تخيم على فكر الكثير من الذين اتموا دراساتهم في خارج العراق، وخاصة اولئك الذين لم يهضموا ثقافة امتهم قبل السفر فنراهم قلدوا الغرب دون فكر واضاعوا شخصياتهم ، وهذا المثل يصدق حتى على من تخصصوا بالهندسة والطب والاقتصاد كما يصدق على من تخصصوا بالآداب والفنون فهم اعجز من غيرهم عن الملاءمة بين العلوم التي درست في خارج بلدهم وبين حاجات الشعب فنراهم يطبقون ما درسوه دون تمحيص ودون دراسة المحيط الوطني الذي يعيشون فيه دراسة علمية وباندفاع اعمى في تطبيق العلم الجديد البعيد عن حاجات الشعب ورغبات الامة فى حياتها الجديدة . وما ظهر على الوطن من قيم جديدة .

كنت اريد أن اضع مقدمة لهذا الكتاب غير ان أحداث الساعة هي التي اخذتني اخذاً عن المقدمة فآثرت ان يقرأ القارىء الكتاب نفسه ما دمت قد رسمت صورة للادب الذي اتمنى أن يسود بلادنا العربية في مرحلتها الراهنة والله الموفق .

بغداد ـ كلية الآداب — يوسف عزالدين

تموز ١٩٦٧

التيارات الادبية في العراق

للتيارات الأدبية في العراق جذور عريقة يذهب بعضها الى القرن التاسع عشر وبعضها الى قرون بعيدة تمتد الى التراث الأسـلامي والعربي في الصدر الأول (١) .

ويمتاز التيار الأدبي في العراق في القرن التاسع عشر عن سواه بوحدة الثقافة العامة والمعرفة الأدبية ، فجميع الادباء هم من طلاب المساجد والمعاهد الدينية وقد تأثروا بتيارات تكاد تكون واحدة ، وان كان هناك اختلاف في الانتاج فأساسه عمق الثقافة والذكاء ، وتمثل التجربة الفردية والانفعالات النفسية .

أما ادباء مصر في الجيل الماضي فقد تفاوتت ثقافتهم تفاوتاً بيناً فمنهم من درس في باريس وتأثر بالعلوم الاوربية والآداب الفرنسية ، ومنهم من درس في استانبول أو في الازهر ، وتأثر بالمحيط الذي عاش فيه ، وفيهم ابن القرية الصغيرة وابن القاهرة ، لذلك كانت الفروق واضحة والمعالم بينة بين كل فئة واخرى ، كوضوحها بين شعر البارودي وعبدالله فكري مثلاً .

أما العراق فثقافة عبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري وحيدر الحلي ومحمد سعيد الحبوبي لا تختلف عن ثقافة أي شاعر أو كاتب مثل محمود شكري الآلوسي وحسين العشاري . وما اختلاف الانتاج قوة وجزالة إلا من باب الفروق الفردية كما يقول علماء النفس .

ويبدو التيار الأدبي واضحاً في جذوره فقد كانت تمده أربعة روافد تتحد كلها في مجرى واحد ويصقلها متبلورة ، التفكير الأدبي العام .

---

(١) محاضرة عامة القيت في رابطة الأدب الحديث بالقاهرة .

الدين

وأبرز رافد أثر في التيار الأدبي في القرن التاسع عشر هو الدين ، يظهر طوراً في رثاء الحسين والدعوة الى محاربة الظلم والطغيان ، وتارة بالدعوة الى الاصلاح ، وكان (شعر الحسين) زاخراً بالثورة على الأستبداد ، ومن شعراء هذا الميدان جعفر الحلي وحيدر الحلي ومحسن الخضري وابن كمونة وغيرهم . فجاء رثاء الامام الحسين قوي الأداء ، صادق الاحاسيس ، وفي سمو قدر الحسين ومنزلته العظمى خير نموذج يحتذى في سبيل الحق والعقيدة والعدل ، فقد قال حيدر الحلي :

عثر الدهر ويرجو أن يقالا ... تربت كفك من راج محالا
أي عذر لك في عاصفة ... نسفت من لك قد كانوا جبالا
فتراجع وتنصل ندماً ... أو تخادع واطلب المكر احتيالا

ولنقف عند هذا البيت ونمعن النظر بما فيه من معان لطيفة وصياغة سامية :

فرغ الكف فلا أدري لمن ... في جفير الغدر تستبقي النبالا

ولنقف عند بيتين آخرين من شعره في وصف الحسين وشجاعته وصبره ونضاله في سبيل عقيدته وايمانه بحقه :

تعثر حتى مات في الهام حدّه ... وقائمه في كفه ما تعثرا
كأن أخاه السيف اعطي صبره ... فلم يبرح الهيجاء حتى تكسرا

ويظهر الشعر الديني في مدح الرسول الكريم ، وركن اليه الشاعر ترويحاً عن نفس مكروبة آلمها الذل ، وأرهقها القلق والحيرة ، وأوجعها الفقر والامراض فيصرخ البزاز قائلا :

يا غياث الخلق والغيث الذي　　لم يزل نائله يجري ارتكاما
كن مجيري من أذى الدهر فقد　　جردت أيديه للبغي حساما

وقد عاش الشعر الديني على المدائح النبوية في شعر كعب بن زهير والبوصيري وابن الفارض. ومن هؤلاء الشعراء حسين العشارى ومحمد شيت الجومرد ونعمان خير الدين الآلوسي، ويدخل في الشعر الديني شعر الطرق الصوفية كالنقشبندية والقادرية والرفاعية، فقد خمست قصائد المدائح النبوية ورصع الشعراء شعرهم ببعض ابياتها، وقد صنع شعراء مصر مثل ما صنع أخوانهم في العراق كالساعاتي واضرابه، فقد كان تقليدهم حرفياً. وحاول الشعراء أن يعيشوا في الجو الذي عاشه شعراء المدائح فوجدنا مثل (رامة، ولعلع، وضارج، والخزامى، ونجد، وحاجر) في شعر ابناء بغداد والموصل والبصرة مع انهم عاشوا في المدينة ولم ير الشاعر هاتيك الديار ولا تلك الآثار لكي يتبرك بها ويذكرها فى شعره.

المديح :

والرافد الثاني هو المديح عامة الذي كان يقدم للسلطان والوالي والموظفين فهذا شعر يطفح بالذل ويفيض بالهوان والمبالغات الممجوجة.

وشعر هذه الفترة صدى لتردي المثل العليا وصدى والخوف والرعب من الولاة والحاكمين فاذا كان الحكم مطلق التصرف نما شعر المديح الذليل في عهده.

لأن السلطات الحاكمة شلت مهمة الأديب الانسانية واتخذته أداة من ادواتها وزينة لمجالسها وحكمها، ولم تعطه الحرية الكافية وتعترف به انساناً فقد قال التميمي:

من لي بتقبيل كف صوب عارضها　　يزري بواكف فيض العارض الهطل

وقال السيد حيدر في مبالغة غير مستحبة :

لو شئت قتل الدهر ثم درى　　لقضى عليـــه قبلك الأجل
ان تنتعل قمم الملوك فقـد　　توجتهم بالفخــــر لو عقلوا
وطـئت لك الدنيا بأخمصها　　همم بساط نعالهـــا القلل

المناسبات :

أما التيار الثالث فهو تيار المناسبات المعروف والذي يفرضه الفراغ الكبير فكان الشاعر ينظم قصيدة في وصف دجاجة وقصيدة في استهداء السعف واخرى في خروج عذار أو بناء غرفة . وهو الجو الذي كانت تعيش فيه مصر في عصر الجبرتي مع فارق واحد هو ظهور لمحات جديدة فى الشعر العربي فى العراق وجدت فى شعر مصر بعد ثورة عرابي أو قبلها بقليل . والخلاصة ان الشعر كان يلبي رغبة كل طالب كما كان وسيلة للمصالح الفردية (١) .

الى جانب هذا الشعر كان الشعر الذي ابتعد عن ذل السؤال وترفع عن الزلفى والثناء الكاذب حيث كان بعض الشعراء ذاكرين العهد العربي الزاهر مفتخرين باصلهم العربي ومجدهم العريق نادبين أيام العرب الزاهرة مقارنين بين تلك الايام وما حاق بهم من فساد وتدهور رغم أن الحكم العثماني كان حكماً مسلماً ، فكان ذلك يبعث الشعر القومي السياسي الذي شب فى القرن العشرين وسمقت شجرته وارفة الظلال ، وكانت تلك المظاهر شعوراً بالعزة القوميـــة العربية ورد فعل للمعاملة التي عامل بها العثمانيون العرب حتى تمنى ابن الجميل أن يترك العراق وما فيه ليتخلص من الذل والهوان . فقال :

عـلام الاقامة في بـلدة　　نعد بهـا مثل حمر النعم

(١) بصدد الامثلة يراجع الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ص ١٨٩ وما بعدها .

وقد وصف الغلامي هذه المعاملة بصورة لطيفة حتى دفعه اليأس الى الموت فقال:

يا ليتنا متنا قبيل الاذى — وقبل هذا الذل والمسكنة

وقد أسف الأخرس أشد الأسف لذهاب العرب وعدم فهم الحاكمين لشعوره العربي فقال :

أسفي على عمر تقضّى شطره — في خيبة المسعى الى الآمال
وبنات افكار لنا عربية — رخصت لدى الاعجام وهي غوالي
يا هذه أين الذين عهدتهم — آساد معترك وغيث نوال

الصوفية :

كان التيار العربي قويا مع أن الحكام لم يكونوا من العرب وقد تأثر الولاة بهذا التيار وحاولوا أن ينصهروا به ، فحاول داود باشا أن يؤسس دولة عربية فى بغداد على غرار دولة محمد علي باشا فى مصر وحاول غيره من الولاة تعلم العربية وادعى بعضهم انه ينظم الشعر العربي ، وصاهر بعضهم العرب ولكن لم تكن هناك وحدة في الرأي ولا وجهة قومية ظاهرة المعالم .

ومع مظاهر الانعزال الظاهرة بين البلاد العربية فانها كانت بلداً واحداً يحكمها سلطان واحد ، وقد كانت بعيدة عن بعضها لصعوبة المواصلات وما يحف المسافر من اخطار ، ومع ذلك فقد كانت التيارات في البلاد العربية تتجه وجهة عربية مشوشة المعالم حتى أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وانتشرت الجرائد فبدأت اليقظة الفكرية في العراق ، إذ استفاد العراقيون من جميع تجارب مصر الفكرية بعد الحملة الفرنسية ، فرأينا الادب العراقى يقفز ويسير مع الشاعر المصري ، لذلك لم نجد في العراق من مثل دور محمود سامي البارودي واسماعيل

صبري باشا لأن النهضة وصلت العراق كاملة فتأثر الشعراء بتيارات الفكر العربي في مصر وسوريا بوساطة الجرائد والمجلات العربية كالهلال والمقتبس والمؤيد والمقطم والمقتطف حيث نشرت قصائد حافظ وشوقي ومطران الى جانب قصائد الزهاوي والرصافي والدجيلي والشبيبي وخيري الهنداوي .

النقلة :

ويظهر اثر هذه النقلة في شعر الشعراء ، فاذا قرأنا أول شعرهم وجدناه يعنى بالمحسنات اللفظية وكأنه من شعر القرن التاسع عشر ، فيه ترصيع وتخميس وتشجير ورد الصدر على العجز ، وبعدها نجده شعراً يساير النهضة الحديثة من عناية بالمعاني والسهولة والبساطة ، وبذلك جمع الشعر فترتين من فترات مصر ، فترة الجبرتي التي عنيت باللفظ وفترة ثورة عرابي حيث بدأت عوامل التحرر والتجديد تسري في أعطافه . وبذلك كانت فترة التقليد قصيرة الأمد لو قيست بفترة مصر الطويلة .

ولابد من الأشارة الى أن الشعر العربي في العراق بقيت جذوره الدينية ذات اثر واضح رغم ان الغذاء القومي بدأ يسقي أصوله ، لأن الشاعر العربي لم يفصل بين الدين الاسلامي والقومية العربية ، فقد اراد الأصلاح للأمة العربية وللأسلام في اطار اسلامي ، خوفاً من تشتت الدولة العثمانية وسيطرة الدول الاوربية الغربية عليها .

وكان من نتيجة هذا الوعي أن سار حتى غير العرب في التيار ولم يكن الشاعر يرضى أن يسمى غير عربي ، لأن ثقافته عربية وتفكيره عربي ، ولم يعامله العرب إلا معاملة ابن بار من ابنائهم وكان جزء لاغنى لهم عنه. فقد اندفع الزهاوي

والرصافي فى تأييد الفكرة العربية مع انهما ليسا من أصل عربي ، فقال الرصافى :

ونحن العرب نأبى غير عز ونطمع فى الحياة الى السموك

لأنه كان يشعر بأنه شاعر العرب الذي ينافح عن حقوقهم وقال ايضاً :

عهدتك شاعر العرب المجيدا لماذا لا تطارحنا النشيدا

وعندما احتل الانكليز العراق كان للأدباء اليد الطولى فى الثورة عليهم فقد هيأوا الرأي العام للانتفاض على المحتلين ، بما كانوا ينشرونه من مقالات وما كانوا يخطبون به فى المساجد أيام الجمع والمناسبات الدينية ويتحدثون بـه في دواوينهم ومجالسهم ومدارسهم ، وقد كان شعر هذه الفترة مسابقة وطنية تطفح بالألحان الوجدانية العذاب ، التي تهز المشاعر . كان الشاعر يعتمد على إثارة العواطف وعلى الالقاء ، فشعر هذه الفترة لذلك مثل شعر حافظ ابراهيم من هذا الباب الذي يروعك سماعه ولا تهيجك قراءته . ومن شعراء هـذا الباب كثير اذكر منهم محمد مهدي البصير ومحمد باقر الحلي وناجي القشطيني وعبدالكريم العلاف ، وقد كانا اكثرهم انتاجاً الدكتور البصير ، فقد كان شديداً على المستعمرين صريحاً في المهاجمة ، حتى نفي الى هنجام مع من نفي من العراقيين . ودعا الى أخذ الحرية أخذاً لا منحة من المستعمر ، فقد قال :

وأشق من أسري علي بأن أرى يـد آسري يوماً تحل وثاقي

ثورة ١٩٢٠

حدثت الثورة العراقية في حزيران ١٩٢٠ ولـكنها لم تصمد طويلاً أمام القوات الانكليزية المدربة تدريباً حديثاً ، وقـد كان رد الفعل قوياً فى النفوس فاختلف الشعراء في نتائجها ، كما اختلف ارباب الرأي فيهـا ، فمنهم من شمله

اليأس ، ومنهم من واصل الكفاح ودعا اليه حتى بلوغ الحرية والاستقلال ، قال خيري الهنداوي :

ويك لا ارتضي الحياة بذل ... قم فمزق إهابها تمزيقا
وأدر لي فى الرافدين حميّا الـ ... حرب صرفاً وكسر الابريقا
ان موتاً يكون فى ساعة العـ ... ـز لموت أجدر به أن يروقا
يا لقومي لقد دهتها الدواهي ... وهي تأبى من نومها أن تفيقا

ولم يكن ضد الثورة غير الزهاوي فانه تجاهل الرأي العام وتحداه وخاطب « برسي كوكس » فى محطة القطار قائلا :

عد للعراق وأصلح منه ما فسدا ... وابثت به العدل وأمنح أهله الرشدا
الشعب فيك عليك اليوم معتمد ... فما يكون كما قد كان معتمدا
ارأف بشعب بغاة الشر قد قصدوا ... إثارة الشر فيه وهو ما قصدا
أما وقد جئت مصحوباً بمقدرة ... فلا أبالي أقام الشر أم قعدا

ويذكرني هذا الموقف بموقف أحمد شوقي من احمد عرابي في ثورته الوطنية فانه هاجمه وموقف الشاعر نسبم من الانكليز .

ولم يهدأ الوطنيون ويكفوا عن المطالبة بحقوقهم وانما كانوا في صراع مرير مع المحتل رغم تأليف حكومة وزراؤها من العراقيين ، ولكن كان الوطنيون يعرفون حقيقة هذه الوزارة وحقيقة البرلمان الذي اسسوه ، وقد برز كثير من الشعراء في هذه الفترة ما بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ونظموا فيضاً عارماً من الشعر السياسي الوطني ، وتعد هذه الفترة أخصب الفترات الأدبية فى الشعر العربي في العراق .

ولابد لي أن اذكر لحضراتكم ان الشعر العربي فى العراق خير سجل لحياته السياسية والاجتماعية ، وما يزال .

القومية :

وقد بقي الشعر سائراً في ركب القضايا الوطنية ولم يخرج شاعر على هـذا الاجماع ، فاذا اخفقت الثورة المسلحة ضد الانكليز فقـد نجحت ثورة التبرم والشعور بالكرامة وضرورة المقاومة ، اذ أن الشعراء أعادوا للشعب ثقته بنفسه بما كانوا يذكرونه له من أمجاد العرب وقوة العرب واتساع رقعة سيطرتهم وبما كانوا يعاملون به الناس من العدل ، ويقارنون بين آبائهم العـرب وبين قوى الاحتلال ، فيظهرون المستعمر على مساوئه ويبرزون الصور المشرفة من حياة العرب الذين لا يقلون مجداً وعزة وتاريخاً عن أية أمة من امم العالم ، فقد قال ابو المحاسن يعتز بالعرب :

بقومي أسمو راقياً شرف العلا   وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم ، أما عـزمهم فمشيد   تليـد أما مجـدهم فأثيل

أو يقول :

يا ناطقـاً بالضـاد والفضيلة   معنى يتم بغـير حرف الضاد
أو ليس عصر النور من آثارهم   قبس لواضع نـوره الوقاد

واتجه الشعراء الى السخرية اللاذعة من الوزراء الذين لا يقدرون على عمل شيء بدون استشارة المستشار الانكليزي فقال محمد باقر الشبيبي :

قالوا استقلت في البلاد حكومة   فضحكت اذ قالوا ولم يتأكدوا
الحـكم حكمهـم بغـير منازع   والأمر مصـدره هم والمورد

المستشار هو الذي شرب الطلا فعلام يا هذا الوزير تعربد

وقد كان الرصافي أشد الشعراء تهكماً وزراية وسخرية من نظام الحكم القائم ومن وزرائه ونوابه ، فقد قال يصف الوزراء الذين هم آلات وكتاب عند « برسي كوكس » وغيره من الاجانب فقال :

فوزير ملحق كالذ بل فى عجز الحمارة
ذنب أصبح للحكم به أقبح شارة
وهو لا يملك أمراً غير كرسي الوزارة
يأخذ الراتب أما بلغ الشهر سراره

ورغم المقاومة الشديدة الا ان أساليب الاستعمار واعوانه تمكنت من اقرار المعاهدة وفرضها على العراق بعد أن صبغوها بصبغة شرعية مزيفة ، ثم حدثت ثورة ١٩٤١ وثورة ١٩٤٨ وغيرها من الأحداث التي هي بحاجة الى دراسة اخرى لا يمكنني أن اوجزها فى هذه المحاضرة .

الاحتلال :

كان للاحتلال الانكليزي اثر بالغ فى يقظة الرأي العام ، فقد فتح الاذهان على مظاهر مادية جديدة ونظام من الحكم جديد، وبث في النفوس العناد والاصرار على المقاومة والنضال فى سبيل الاستقلال التام ، ونزل الشعراء مع الجمهور ، وتركت الابراج العاجية خالية ، لرفع شأن الشعب وخلق جيل قوي يقدر على الجهاد ومواصلة الكفاح .

وقد كانت المشكلات الاجتماعية متشابكة ، فالتأخر ساد جميع نواحي البلاد والوطنيون يريدون شعباً قوياً ، ولكن المتحكمين فى البلاد هم من الدخلاء

والانتهازيين فوقف الرصافي في تكريم الريحاني سنة ١٩٣٢ ونفسه تفيض حسرة وألماً فقال :

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ... ما فيه من غرر العلا وحجوله
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً ... والقوم مترقبون بعد أفوله
أما الحيا فيه فذياك الحيا ... لكن مسيل الماء غير مسيله

ولم يصبر الرصافي إلا أن يقول ان العميل المستورد وابناء البلاد الخونة هم اساس العلة في هذا الوطن ، وقد كان الملك فيصل حاضراً فقام وترك المجلس عندما قال الرصافي :

من أين يرجى للعراق تقدم ... وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عـ ... ـند جبانه ، والمال عند بخيله

ولعل من أطرف الأقوال قول محمود الملاح يصف الحالة العامة التي تقسمها الانكليز (المساتر) مثل (سمث) و (كوك) فنعموا بالخيرات دون اهل البلاد . فقال :

الخير في هذي البلاد مقسم ... بين(المساتر) من(سمث) و (كوك)

المرأة :

وقد عولجت مشكلة المرأة وحدث حولها جدل شبيه بالجدل الذي قام في مصر عندما أثار قاسم أمين المشكلة ، وكان كل فريق يتخذ الاسلام قاعدة للذب عن مذهبه ورأيه ، وابرز الشعراء الذين ناصروا المرأة الزهاوي ، ففي شعره الكثير من ذلك ، وخلاصة رأيه تتلخص في قوله :

قال : هل بالسفور نفع يرجى ؟ ... قلت : خير من الحجاب السفور

انما في الحجاب شل لشعب وخفاء وفي السفور ظهور
كيف يسمو الى الحضارة شعب منه نصف عن نصفه مستور

واجمل شعر واعذبه لدعاة الحجاب للشيخ جواد الشبيبي :

منع السفور كتابنا ونبينا فاستنطقي الآثار والآيات
تلك الوجوه هي الرياض قدازدهت للناظرين شقائق الوجنات
كانت تكتم بالبراقع خيفة من أن تمس حصانة الخفرات
واليوم فتحها الصبا فتساقطت بعواطف الألحاظ والقبلات
صوني جمالك بالبراقع انها ستر الحسان ومظهر الحسنات

ومن الطريف أن دعاة السفور كانوا يحملون بشدة وبقسوة وبصراحة ، فهم يطالبون بحرق البراقع وخروج المرأة سافرة ، أما في مصر فقد كانت المطالبة هادئة تمثل في قول حافظ :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الأسواق

الاقطاع :

وقد استأثر الاقطاع والفلاح بجانب كبير من الشعر العربي في ، فالفلاح العراقي جائع فقير مريض يكد للاقطاعي ويعمل عنده أجيراً ، وقد هرب الفلاحون من الريف وسكنوا المدن تخلصاً من الاضطهاد ، وكان شيخ القبيلة الذي انقلب الى اقطاعي يعمل جاهداً في سبيل تأخير تعليم الفلاح وتقدمه ، اذ ليس للفلاح قانون يحميه لنفوذ الاقطاعي وتأثيره في جهاز الدولة ، وخير من وصف الفلاح احمد الصافي النجفي حين قال :

رفقاً بنفسك ايها الفلاح تسعى وسعيك ليس فيه فلاح

لك في الصباح على عنائك غدوة — وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذي الجراح براحتيك عميقة — ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم — ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخر سقفك ان همت عين السما — ويطير كوخك ان تهب رياح
بغضون وجهك للمشقة أسطر — وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئاً — فيزان منه للغني وشاح

وقد كان هناك عدد كبير من شعراء الفلاح أبرزهم محمد صالح بحر العلوم (اذ أهدى ديوانه للفلاح) والجواهري والحبوبي ، والمظفري والسوداني .

ولعل أطرف أبيات في شرح حال الفلاح هي قول شاعر اسمه حسين الحاج وهج:

تخذنا من نبات الارض قوتنا — ولم نشبع بمكسبنا البطونا
جهدنا زارعين بكل آن — فلسنا في المزارع ناجحينا
بذلنا النفس في جد وجهد — وعند الحاصلات (مفلسينا)

الفقر :

وتقابل مشكلة الفلاح في القرى مشكلة الفقر في المدن ، فقد رسم الشعر صوراً رائعة خالدة ، ولا تكاد تجد شاعراً من شعراء بغداد لم ينظم فيها ، وعلى رأس هؤلاء معروف الرصافي ، ففي ديوانه جزء ضخم عالج فيه المشكلات الاجتماعية عامة والفقر بصورة خاصة، وقد عالجها متأثراً بالتعاليم الأسلامية معتمداً على ارهاب الناس بالنار وعذاب اليوم الآخر داعياً الى انصاف الفقراء والارامل واليتامى ، يطري الاحسان والمحسنين ولم يكن ثائراً في دعوته وانما كان هادئاً يرسل القول رخياً سهلاً ، فهو يطالب بالأصلاح بحكاية يحكيها أو رواية يرويها

ويستدر عطف الناس فيما بين حوادثها وسطورها فيقول :

ايها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما إن رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونمتم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوّع وشراب
كم بذلتم اموالكم في الملاهي وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الاله ايها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون انكم في تباب

هذه هي الملامح العامة للشعر العربي في العراق وقد اتخذته قاعدة للبحث عن الأدب كله لأن النثر في العراق لم يستكمل نضجة ولم يصل الى ما وصل اليه الشعر أما القصة فلا تزال بحاجة الى سنوات اخرى لتصل الى المستوى العالمي رغم وجود بعض كتاب القصة في العراق .

ولا يزال الشعر في العراق ينمو وتتفتح كل يوم أزاهيره عن ألوان جديدة ولا يمكنني حصر الشعراء ، غير انهم من الكثرة ما يخبر بأن الشعر العربي في العراق لا يزال بخير . وممن لم استشهد لهم : علي الشرقي ومحمدعلي الحبوبي وبهجة الأثري وحافظ جميل ونعمان الكنعاني وعلي الخطيب وا كرم احمد وعبداللطيف الشهابي ومحمد بسيم الذويب وصفاء الحيدرى وعبدالحسن زلزلة وعبدالقادر الناصرى وخضر الطائي ومهدى مقلد وعبدالرزاق محيي الدين والأزرى وكاظم الدجيلي وبدر شاكر السياب وهلال ناجي وشاذل طاقة وعبدالكريم الدجيلي وكثير غيرهم لا احفظ شيئاً من شعرهم .

وقد امتاز العراق بظاهرة جديدة هي بروز عدد من الشاعرات مثل نازك الملائكة وعاتكة وهبي الخزرجي واميرة نورالدين وفطينة النائب ولميعة عمارة

واخيراً من الطالبات آمال الزهاوي .

وهناك كُتّاب للمقالة والمسرحية إلا ان هذه الفنون الأدبية تتضاءل تجاه شموخ الشعر العربي ، وقد تركت الحديث عن الشعر (الحر) لأني لست من المؤمنين بكثير مما انتج منه ، ثم لأن فيه الكثير من الخور والضعف ، وان الكثير منه بعيد عن الشعر وموسيقاه .

وقد ظهرت بعض المسرحيات الناجحة في الشعر مثل مسرحيتي الاستاذ خالد الشواف الأسوار وشمسو ، وألف الاستاذ خضر الطائي : قيس لبنى وأهل الكهف ، ومسرحية مجنون ليلى نظمتها الشاعرة الدكتورة عاتكة الخزرجي ، كما ان المرحوم عبدالستار القره غولي امتاز بنظم عدة مسرحيات للاطفال بعضها من التاريخ العربي وبعضها من قصص لافونتين .

ولعل السير على الاسلوب العربي الأصيل هو أهم مظهر من مظاهر الشعر ، فاكثرية الشعراء ما تزال تؤمن بـه مع تجديد في المعاني والأساليب والاخيلة ، ويدخل فى نطاق هذا اكثر الشعراء المبدعين. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بالنفحات العربية الأصيلة من اسلامية وعباسية .

ويتطور الشعر لدى الشاعر تبعاً لثقافته وعمره ومقدار نفعـه الفردي وأثر المعاني العامة فى نفسه ، ولو دققنا في شعر كل شاعر لوجدنا تمثل التجربة الفردية ومقدار هضمها واضحاً بالنسبة الى غيره من الشعراء. وهذا امر طبيعي في النفس الانسانية.

وأخيراً ارجو المعذرة والعفو عن كل تقصير وخلل .

والسلام عليكم ورحمة الله .

اثر الفكر في الادب الحديث

السيطرة على الفكر فى عصرنا الحديث طريق للسيطرة على الشعوب والصراع على أشده فى سبيل هذه السيطرة بعد أن خسر الاستعمار طريقه التقليدي .. لأن الفكر عامل قوي له أشد الأثر فى حياة المجتمعات الانسانية وتطورها .. وهو خير سبيل لمقاومة التيارات التي لا يقرها الشعب وله دور فعال في ارساء أي نظام في أي مجتمع من المجتمعات (١) .

وقد ظهرت في المجتمع العربي الجديد تيارات فكرية جديدة تقاوم التيارات القديمة ومنها ما هو صالح لهذا المجتمع ومنها ما هو مؤثر في مسيرة تقدمه ومن ورائها قوى تعمل جاهدة لتخريب التنفيذ والتطبيق ..

ولتحديد أي اتجاه فكري وخاصة الفكر العربي الحديث ، لا اجد بُداً من العودة الى جذوره الأولى للاطلاع على الينابيع التي تغذيه والروافد التي تمده بالعون والقوة ، وفى عالمنا العربي الحاضر نجد اخلاطاً عجيبة من الثقافات ، والتيارات الفكرية التي تتسرب في أذهاننا فتؤثر فيها وتتصارع للسيطرة على الفكر العربي الحديث . والموضوع متسع الأطراف ولا يمكن تتبع الاتجاهات فى محاضرة تلقى بين يدي خيرة العلماء وقادة الرأي ، لهذا سأمر سريعاً بالتيارات التي ما زالت تؤثر فى الفكر العربي وفصلتها فى كتاب أفردته لهذا البحث . ونستطيع أن نميز منها عدة تيارات :

(١) كلمة قدمت في مؤتمر مجمع اللغة العربية في الدورة الثانية والثلاثين ببغداد ١٩٦٥ .

التيار الديني :

أول هذه التيارات هو التيار الاسلامي ، ولا اريد أن أتحدث عن الاسلام وأثره وتطوره ، ولكنني سأتحدث عن أثر هذا التيار في بلورة المفاهيم العامة .

فمنذ القرن التاسع عشر بدأت الروافد المتباينة ، تتضارب وكان التيار الاسلامي الذي سيطر باسمه العثمانيون على كل البقاع العربية أقواها ، ولكنهم انصرفوا الى أنفسهم وإلى ملاذهم . وكانت الجراح قد أثخنت العرب والمسلمين على حد سواء ، ورضي المسلمون بالركود والهدوء لأنهم مرتبطون بدولة إسلامية ويمنعهم دينهم من الثورة عليها .

ولا شك أن العرب والمسلمين تحت السيطرة العثمانية كانوا في خوف دائم من سيطرة أوربا فدفعهم هذا الخوف الى التمسك بالعثمانيين ، والواقع ان أوربا كانت ترمي الى تحطيم هذا الحصن الاسلامي عن طريق الغزو الفكري . وكان شعارها في الغزو الفكري هو الهجوم على الاسلام ، فهو في زعمها دين جامد كان يصلح للقرون الأولى ، وأخذ يدفع المسلمين الى العصبية ، ويملأ عقولهم بالاوهام وقد أثار ذلك الزعم فريقاً من الشعراء ودعوا الى التمسك بقيمهم الاسلامية والحفاظ عليها ، والى الوقوف في وجه الهجوم الاوربي ورده ، وفي ذلك يقول الرصافي :

يقولون في الاسلام ظلماً بأنه ... يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت ... أوائله في عهدها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الاسلام من جهل مسلم
هل العلم في الاسلام إلا فريضة ... وهل أمة سادت بغير التعلم(١)

(١) ديوان الرصافي ص ١٢٨ .

وكان ظهور جمال الدين الأفغاني عاملا فعالا في هذه الفترة ، فقد رفع لواء السياسة ولواء الدين، ولم يكن يستطيع في هذه الحقبة من الزمن أن يؤثر في الناس سياسياً إلا عن طريق الدين ، ومن أجل ذلك ركز أكثر جهـده الثوري فى الاصلاح الديني وتطهيره من البدع والرد على المستشرقين من مهاجمي الاسلام .

وجمال الدين الأفغانى كان أشبه ما يكون بسقراط . قيمته فى شخصيته الفذة وقدرته على الاقناع ، وعبقريتـه تنعكس على تلاميذه الذين وجههم فأثروا في الحياة أمثال محمد عبده ورشيد رضا وشكيب ارسلان وأديب اسحاق وغيرهم .

وكان الـكواكبي يمثل فكرة الاصلاح في كتابيه « ام القرى » و « طبائع الاستبداد » ، يعالج الناحيتين الدينية في الأول والسياسية في الثانى وإن كان يربط بين الناحيتين في كثير من الأحيان .

فقد هاجم في طبائع الاستبداد ظلم الحاكم الذي انغمر في الدنيا وترك أمر الامة في مهب الريح ، ونلاحظ انه استعمل في مقام كلمـة (استبداد) كلمات استعباد واعتساف وتسلط وتحكم وفي مقابلها كلمات شرع مصون وحقوق محترمة وفي مقام كلمة (مستبد) كلمات حاكم بامره وحاكم مطلق وظـالم وجبار ، وفي مقابل حكومة مستبدة كلـمات عادلة ومسؤولة ومقيدة ودستورية . وفي مقام (مستبد عليهم) كلمات اسرى وأذلاء ومستصغرون وفي مقابلها أباة وأحرار وأحياء . ويرى ان الاستبداد ومشتقاته وضروبـه يعود الى الحكام المستبدين الذين فرقوا الناس باسم الدين ولـكنهم حجروا الدين حين ادخلوا فيه وباسمه ما ليس منه ، وفي ذلك يقول :

« لا يوجد في الاسلام نفوذ ديني مطلقاً في غير مسائل إقامة الدين ، هذا

الدين الحر السمح الذي رفع الاصر والاغلال وأباد الميزة والاستبداد . الدين الذي ظلمه الجاهلون فهجروا حكمة القرآن ودفنوها في قبور الهوان . الدين الذي فقد الانصار والابرار والحكماء الأخيار ، فسطا عليهم المستبدون واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعاً وجعلوه إآــه (كذا) لأهوائهم فضيعوه وضيعوا أهله (١) » .

ثم يستخلص ان الأمة ينبغي أن تراقب الحكومة وتحاسبها كما يجري في صدر الاسلام لأن الحكومات متى أمنت محاسبة الشعب ، فلابد أن تسير في طريق الاستبداد . وقد لا تخيف العلوم الدينية المحضة المستبد ، ولكن فرائصه ترتعد حتماً من العلوم الفلسفية وحقوق الأمم وسياسة المدنية والتاريخ المفصل لأن سلطان العلم أقوى سلطان ، وهنا يحتقر المستبد نفسه كلما وقعت عينه على من هو ارقى منه علماً ، فيحارب العلماء من أجل هذا ، ولذلك لا يحب أن يرى وجه عالم ذكي فاذا اضطر الى استحضار طبيب أو مهندس اختار المتصاغر المتملق .

وللدكتور شبلي شميل نظرات دقيقة في الموضوع نفسه ، وقد أشاع كل هذا وعياً جماهيرياً بين طبقات المتعلمين في عصره وكانوا يتدارسونها ، وظهرت آثار التيار الجديد في شعر الرصافي عندما قال :

مَثَل الحكومة تستبد بحكمها ... مثل البناء على نقا متهيّل
يا أمةً رقدت فطال رُقادُها ... هبي وفي أمر الملوك تأملي
كم جاء من ملك دهاكِ بجوره ... ولواكِ عن قصد السبيل الأفضل
إن الحكومة وهي جمهورية ... كشفت عماية قلب كل مضلل (٢)

---

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ص ١٩ ــ ٢٠ . ولعلها (آلة)

(٢) ديوان الرصافي ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

التيار العربي :

ومن خلال هذه الاتجاهات يبرز تيار آخر هو التيار العربي أو القومي ، والعربي لم يتخل أبداً عن قوميته والاعتزاز بها ، ولم يكن أحد يجرؤ على مس العروبة لأن العروبة مادة الاسلام والقرآن عربي اللغة .

وقد برز هذا التيار في النصف الثاني من القرن الماضي ، حين علا صوت القوميات في العالم وظهر التقسيم الجغرافي الحديث لأوربا على اساسه ، والواقع ان الجمعيات السرية العربية التي ظهرت في هذا الوقت تحكي عن قوة هذا التيار بالرغم من أن التربة لم تكن شديدة التمهيد لجريانه ، وكانت جرأة الكواكبي في دعوته الى خلافة عربية واضحة أتم الوضوح ، خاصة وقد بدأ الصراع يبرز بين العرب والترك ذلك الصراع الذي بلغ مداه بعد دعوة الأتراك الى الطورانية ومحاولة تتريك العرب بعد الدستور سنة ١٩٠٨ ، كان هذا التيار يحمل في طياته المطالبة باصلاح المجتمع العربي وجعل اللغة العربية لغة رسمية لأبناء العرب ثم يحمل في طياته ايضاً الدعوة الى اللامركزية وهي دعوة تطورت فيما بعد الى دعوة للوحدة العربية الشاملة . كانت أولاً مطالبة بالاصلاح ثم تطورت الدعوة الى تاسيس حكم عربي ، ومن الطريف ان يذكر لنا الاستاذ ساطع الحصري ، ان جمال الدين الأفغاني صاحب الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، لم تغب عن ذهنه مقومات القومية ويستشهد على ذلك باحدى مقالاته التي كتبها بالفارسية وفيها يقول : « لاسعادة إلا بالجنسية ولا جنسية (١) إلا باللغة ، إن الروابط التي تربط جماعات كبيرة من الناس اثنتان وحدة اللغة ووحدة الدين . . . ووحدة اللغـة هي

(١) يعني بالجنسية القومية .

الأساس الذي تقوم على الجنسية » (١) .

فاذا كان من الجائز أن تقوم وحدة بين الافغاني والعربي والتركي والفارسي على اساس الدين ، وكل يتكلم لغة تختلف عن الأخرى ، فمن الطبيعي قيام وحدة تجمع العراقي والمصري والحجازي واليماني وغيرهم ممن يتكلمون لغة واحدة ولهم قيم واحدة ومصالح مشتركة وآمال مشتركة ، فالوحدة العربية ضرورة وخطوة اولى من خطوات الوحدة الاسلامية . وبالرغم مما عاصر هذه الدعوة من أحداث وبالرغم من خسارة الثورة العربية التي قامت فى أثناء الحرب العالمية الأولى فقد كانت معبرة عن آمال العرب في الوحدة ، فان صدى الدعوى قد ملأ الأسماع والقلوب ، وتردد على ألسن اكثر الشعراء ، وفى ذلك يقول الزهاوي :

هي وحدة ميسورة	لولا يد للعابثينا
ان العروبة ليس	تأمن غارة المستعمرينا
الا بوحدتها ونعـ	ـم وسيلة المتفكرينا
وهي التي اتحدت قديماً	بينها لغة ودينا (٢)

ويقول المرحوم الشبيبي يندد باولئك الذين يفرقون شمل العرب ويسيرون وراء الاحام من الاجانب برغم ما صبوه على البلاد من تفرقة اكفهرت لها الجواء :

ماذا بنا وبذي الديار يراد ؟	فقدت دمشق وقبلها بغداد
بردى وأودية الفرات ودجلة	والنيل غصّ بمائك الوراد
حال العلوج من الأحام بيننا	وتعـذر الاصدار والايراد

(١) ما هي القومية ص ٢٠٧ .

(٢) الثمالة ص ٨٦ .

الجـو وهو مقطب متجهم يبكي لنا والأرض، وهي جماد
يا للرزية كم تفرق بيننا وتضلنا الأضغان والأحقاد(١)

والواقع ان هذين التيارين كانا يسيران وسط ارض مضطربة ، فالصراع بين القديم والجديد يصبغ الحياة ويلبسها أرديته المختلفة ، كانت الحضارة الشرقية إذن قد دخلت فى صراع بينها وبين الحضارة الغربية ، ومن الناس من اندفع مع الجديد فعاش فى بيئة حياة أقرب اليها وارتبط في ذهنه حاضر الشرق الضعيف.. وتقاليده الموروثة فراح ينادي بالحضارة الغربية ووجوب الأخـذ بها فى معالمها المادية وتطورها العلمي ، ومن الناس من زاده الغزو الغربي تمسكاً بتقاليده وقيمه الشرقية وارتباطه بكل قديم ارتباطاً يقرب من التقديس ، وفريق ثالث حاول أن يأخذ من صالح الجديد وصالح القديم في وقت واحد . وفى مجلة « التنكيت والتبكيت » لعبدالله النديم مجموعة من القصص في هذا الموضوع فقصته التي جعل عنوانها « مجلس طبي لمصاب بالافرنجي » وقصة « عربي تفرنج » تصوير لاندفاع الناس في تقليد الاوربيين حتى في مساوئهم واستهجانهم للتقاليد الشرقية بصورة عامة عربية أو اسلامية وقد ظهر هذا الصراع في الفكر وفى الحياة الاجتماعية معاً، وظهرت آثاره فى الشعر الحديث .

ففريق من الشعراء سار على نسق العباسيين لا يتحول ولا يحيد لأن العصور الاولى هي عصور الصحة والسلامة واقتبسوا تشبيهاتهم واستعاراتهم وصورهم الشعرية ، فتحدثوا عن أماكن لم يروها ، ووصفوا الناقة واستمطروا السحب ووقفوا على الاطلال مثل الكاظمي والبارودي ، وفريق تأثر بالمذاهب والمدارس

---

(١) ديوان الشبيبي ص ٣٣ ــ ٣٧ .

الأدبية الأوربية الحديثة وحاول جلبها جلباً ، فلم تلق محاولته تقبلاً ، لأن المذاهب الأوربية نشأت في بيئة مهيأة ولدواع قوية ، وقد مثل هذا الفريق العقاد والمازني وشكري في مصر وفرنسيس فتح الله المراش فى الشام ، أما الفريق الثالث فيمثله شوقي والرصافي ، ويتميز بمحافظته على عمود الشعر العربي ومحاولة التطور فى شيء من التؤدة ، لأن الطفرة مجلبة للعثرة كما عبر شوقي عن ذلك .

أما فى النثر فقد وضح هذا الصراع بين القديم والجديد في النقاش بين مصطفى صادق الرافعي وطه حسين ، فالرافعي متمسك بالقيم الموروثة وطه حسين مطور مجدد ، ولكن الرافعي ربط هذا الصراع الفكري ، بالدين الاسلامي ، ورأى كل دعوة للجديد قد تمس اللغة وتمس المثل وبذلك تمس الدين ، ومن اجل هذا سمى كتابه الذي جمع فيه النقاش بينه وبين دعاة التجديد « تحت راية القرآن » .

ومن الطريف أن نرى شاعراً محافظاً بحكم نشأته وثقافته ، ولكنه بحكم هذا الصراع الذي يعيش فيه ، يحاول أن يخرج من تهمة التقليد فيدعو الى الجديد ، ولكنه لا يقوى على اكثر من مجرد النداء ، ذلك هو حافظ ابراهيم الذي يقول :

آن يا شعر أن نفك قيوداً   قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا   ودعونا نشم ريح الشمال

تيار الاشتراكية :

لست اريد أن أتحدث عن اصول الاشتراكية وجذورها ولست بحاجة الى بحث عن الفلاسفة الاوربيين الذين دافعوا عن العمال مثل سان سيمون و (هيكل)

وماركس ، ولكن اريد أن أقول إن الاشتراكية لم تقم في اوربا إلا لظروف اجتماعية . فقد انتشرت الصناعة وا كتسحت الجوع التي كانت تعيش بكدها من المهن اليدوية الصغيرة وهاجمت المزارعين الذين كانوا يعيشون في قراهم متمتعين بحريتهم الشخصية . فاصبحوا أجراء ، بعد أن كسدت بضاعة الكثيرين منهم واحتشدوا فى المصانع الكبيرة والشركات ، وكان لكثرتهم ، وخوف الجوع ، ان استغلتهم الرأسمالية الجديدة ، فظهرت الاشتراكية تدعو الى تخليصهم من قبضة المالك واستغلاله والمحافظة على صحة العامل لأنها رأس المال الحقيقي في المجتمع .

وكان هذا التيار يجد صدىً لدى المفكرين الشرقيين لأنهم يرغبون في إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة الى المساواة دون أن يفكروا فى تغليب طبقة على طبقة أو تسليم الحكم اليها ودون أن يفكروا فى مسها للدين ، فهي مجرد نزعة إصلاحية يقول شبلي شميل : « ان الاشتراكية تقلل من ويلات الانسان فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه ، بعد أن تفرض عليه واجباته وترفعه من مواطيء الأقدام الى مكانة الانسان ، وتعلمه انه عضو في المجتمع لا يجوز أن يبقى عالة (كذا) عليه غير نافع » (١) فهو إصلاح هاديء لا ثورة فيه .

ولكن المفكرين العرب كانت لهم ذخيرة من تفكير إسلامي أصيل اختلط بهذه الآراء التي وردت من اوربا ومن أجل ذلك وجدنا الآراء التي تتعرض للاشتراكية الاسلامية تجعل الكلأ والماء والنار موارد عامة ، والاسلام جعل فى أموال الأغنياء حقاً للسائل والمحروم وفرض الزكاة وحرم الاحتكار . وكانت المجلات العربية تنشر هذه الآراء جميعاً ، ولم يكن لدى المسلمين الاوائل بطالة أو

---

(١) مجموعة الشميل ص ١٥٣ والصواب « عائلا » .

حتى لم يكن لدينا عمال إذ لم تكن هناك مصانع ضخمة ، لذلك دعا المفكرون الى تطبيقها على الفقراء . فنشأت احزاب سمت نفسها اشتراكية فى البلاد العربية ثم تطورت فكرة الاشتراكية وأصبحت رمزاً للاصلاح .

وآمن كثير من الشعراء فى وقت مبكر بالدعوة الاشتراكية ، مثل شوقي واحمد الكاشف والرصافي وحافظ ابراهيم ، وقد بشر احمد الكاشف بها فقال :

للاشتراكية العقبى إذا شملت ... شتى الشعوب وجاراها المجارونا
فلا الكثيرون ملكاً للاقلينا ... ولا الاقلون ملكاً للكثيرينا
ولا نرى واحداً ملأى خزائنه ... بالمغنيات وآلافاً يجوعونا
ولا نرى درة في رأس محتكم ... تهفو اليها قلوب المستظلينا (١)

والزهاوي يحدثنا عن جمهورية اشتراكية يستمدها من خلايا الجسد ويراها أفضل وأسمى اشتراكية ، لانها طبيعية ويرى العالم صائراً اليها لانها امر حتمي ، ونرى الشعراء يلتفتون الى العمال وكأنما يكتشفون طبقة اجتماعية جديدة لم تكن موجودة ، ويتحدثون عن الزكاة ، وعن حق الفقير ، بدلا من الحديث عن الرحمة به والاحسان اليه (٢) .

العلم :

وقد أثرت الحياة المادية الاوربية والفلسفية في رأي الشعراء وظهرت آثار نظرات فلسفية وعلمية في شعرهم مثل آراء ديكارت (انا افكر فانا موجود) ونظريات الفلك كما ظهرت اسماء المخترعات الاوربية الحديثة وان كانت نابية

(١) شعراء الوطنية للرافعي ص ٢٤٠ .

(٢) الجمل مما أرى ص ٥٢ .

في الشعر في كثير من الاحيان ومن يدرس الشعر يجد الامثلة الكثيرة .

وقد هزّت النظريات الحديثة المثل القديمة التي عاش عليها الشعراء وبدأ الشك يتسرب الى نفوسهم في كثير من المعلومات القديمة التي ورثوها فان الاختراعات الجديدة واسماءها فتح الاذهان على عوالم جديدة شككت بما ألفه المفكرون من نظريات قديمة ، فقد قال :

والعلم قد انكر منهاجنا ولم يبن أين هو المهيع
فرقت يا علم رداءً لنا كنا ارتديناه فهل ترقع ؟ !
فجعتنا يا علم في أمرنا أمعتبٌ أنت اذا نجزع
لقد طغت حيرة اهل النهى هل فيكَ يا علم لها مردع (١)

كما كثرت اسماء المخترعات في شعرهم مثل (التومبيل) و (التلغراف) و (الفونوغراف) و (القاطرة) وغيرها مما يجده المتتبع في شعر هذه الفترة .

وختام القول ان هذه مذاهب سياسية ومذاهب اجتماعية تصطرع في محيطنا اكثرها عميق الجذور ، وبعضها ظهر نتيجة الصراع بين الحضارتين الشرقية والغربية ، ولكنها في مجموعها تؤكد حيوية الامة العربية ، وتصديها للجديد تناقشه ولا تتقبله مستسلمة ، وترفض الزائف في النهاية ، وتتقبل الأصيل ، ومؤمنة بحتمية التطور .

---

(١) ديوان الرصافي ص ٢٢ .

وقد ظهرت هذه المذاهب أول الامر في الادب ظهوراً ساذجاً بسيطاً ثم أخذت تتبلور المذاهب الفكرية وأخذ الادباء يدعون اليها عن عقيدة وعن ايمان وعن فهم يختلف عن الجيل السابق فقد درس الادباء هذه المذاهب بعد أن ترجمت الى اللغة العربية ومنها من استوعبها ودعا اليها عن إيمان صادق ومنهم من دعا اليها لمصلحة فردية .. ولكن أثر الفكر في الشعر الحديث رسم خطوطه العريضة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

تجديد معروف الرصافي

تمهيد :

فى كل عصر من عصور الأدب ، وفى كل أمة من الأمم ، نجد الثائرين على التقاليد القديمة ، والداعين الى التجديد ، ونجد قسماً منهم يملكون الجرأة والاقدام ، فيهدمون كل السدود القديمة الواهية التي تقف حائلاً دون تجديدهم وهؤلاء هم الذين يخلد تاريخ الأدب ذكرهم .

وعندما كان المذهب الاتباعي أو المدرسي Classicism مسيطراً سيطرة فعالة على الأدب الاوربي ، لم يكن بمقدور أديب أوربي أن يخرج على ما رسم له من قواعد وأسس ، فقد كان الأدباء ، سواء اكانوا فى ايطالية أم فرنسة أم انكلترة يكتبون باللغة اللاتينية ، أدباً تقليدياً لا يخرج عن مفهوم الأدب الذي رسمه لهم أرسطو في كتابه « فن الشعر » ، لذلك نجده قد استحال الى نوع من انواع التمرين يثبت فيها الأديب قدرته على المهارة فى العبارة ، بعيداً كل البعد عن العواطف والمشاعر (١) غير أن كولرج Coleridge ووردز ورث Wordsworth ثارا على هذا التقليد في الديوان المشترك الذي نشراه باسم « القصائد الغنائية » (٢) Lyrical Ballads ، فكانت هذه الثورة مولد « الشعر

(١) لاحظ دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة ، المجلد الخامس ص ٧٧ .

(٢) مؤلفات وردز ورث جمع توماس هاجنس . اوكسفورد ١٩٥٠ ص ٧٣٤ .

الابتداعي » (١) Romanticism ، وثورة على التقاليد الأدبية القديمة ، لتحرير الشعر من سيطرة التقليد الثقيل الذي أرهق كاهل الأدباء وأفكارهم ونفسياتهم ، فكان من جراء ذلك ظهور حركات تحررية أخذت وجهات نظر متعددة، كالواقعية Raelism ، والمثالية(٢) Idealism والرمزية Symbolism والوجودية Existentaitlism وغير ذلك من المذاهب التي كان أهم باعث لها التخلص من التقليد ، وترك النفس تعبر عن رغباتها حسب ما تشتهي وما تريد .

وكما ظهرت ثورات فى الآداب الأوربية ، حفل تاريخ الأدب العربي بكثير منها فاذا اشتهر في الأدب الأوربي شاتو بريان ، واندريه شنيه ، ولامرتين ، وكيتس وبايرون ، وسارتر ، والبير كامو ، ففي الأدب العربي عناصر في مختلف عصوره كأبي نؤاس ، وبشار بن برد ، وابن الرومي ، والبارودي ، ومطران ، وشوقي ، وحافظ ، والرصافي . ويختلف أثر كل ثورة باختلاف مفاهيم الشعوب وباختلاف الحياة التي تحياها ، ومقدار رقيها وحضارتها . فقد تركت الآداب الاوربية تقليد الأدب اليوناني الروماني ، عندما تغيرت طبيعة الحياة التي كانت تحياها تلك الشعوب . فعندما انتقلت من حياة الزراعة الساذجة البسيطة الى حياة الصناعة المعقدة المتنوعة المطالب ، بدأ الأوربي يحس بأن الادب لم يعد يلائم حياته الجديدة وما فيها من تعقيد ، وما استجد فيها من مطالب ، وعندما وجد الفرنسيون أنفسهم قد خسروا حروب نابليون ، فقدوا المجد الحربي الذي كانوا يتباهون به،

---

(١) دائرة معارف جامبرز لندن ١٩٥٠ .

(٢) مقالات مختارة من الادب الانكليزي الحديث . لندن ١٩٣٩ لياتن كبر ، لاحظ الرومانتيكية ص ١٥١ .

انتقلوا الى حياة اخرى ، والى مطالب من الحياة جديدة ، لانهم احتاجوا الى العزاء والسلوى مما اصابهم ، فثاروا على ما كانوا يعيشون عليه من أدب ، وانصرفوا الى أدب جديد يدخل العزاء الى قلوبهم .

ولما انتشرت العلوم وحلت التجربة محل الخيال تفتحت أمام الادباء آفاق جديدة لم يكونوا يتصورونها من قبل ، وقد كانت حلماً من أحلامهم ، فالهزات العلمية والانتصارات السياسية ، ومشكلات الحياة الجديدة ، دعت الاوربي الى أن يثور على أدبه وأن يجدد فيه تجديداً يلائم الحياة الجديدة ، فالعلم قتل فكرة الاعتقاد بالآلهة المتعددة والوثوق بقدرة الشياطين والمردة على السيطرة على الانسان تلك الافكار التي كانت تلائم عقلية المزارع الساكن في كوخه ينتظر أوان الحصاد ، وقد وجه كل أمله الى الطبيعة لترعاه وتزوده بالمطر لانبات زرعه . وسقوط نابليون أثار في نفوس الشباب الفرنسي اللوعة ، وصدمهم بواقع الحياة التي لم يكونوا يتوقعونهـــا ، فاضطروا الى الانصراف الى الاحاسيس الخاصة ليعبروا عما أصابهم ، فانطلقوا من عقال القديم ليجدوا العـــزاء والسلوان في شعرهم ونثرهم .

تجريد الرصافي :

وقد كانت اكثر البلاد العربية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعيش عيشة البداوة والزراعة ، وتسير على وتيرة واحدة ساذجة محدودة المطالب ، لكن هذه الحياة تطورت بعوامل كثيرة أهمها الطلائع المتحررة التي ظهرت في الفكر والعقيدة ، والتفاعل الشعبي بين الاديب وامته ، فلم يعد الادب بأساليبه القديمة ومثله الجامدة يستوعب مطالب الحياة الحديثة .

فثار الاديب على «عرار نجد» و «النقا» و «متعرج اللوى» و «عقارب الصدغ» وغيرها كثير مما كان مألوفاً استعماله في القرن التاسع عشر، وأعرض عن الوقوف على الديار والطلول لانها ليست مما يراه في حياته الجديدة، ولا من متطلباتها، وصار يفتش عن معان جديدة، باذلاً عناية خاصة في ذلك، مؤثراً إياها على الالفاظ وموسيقاها.

وكان الرصافي من أوائل الطليعة الواعية المتحررة التي تفاعلت مع الآراء الجديدة، فترك قديم الالفاظ وعني بالمعنى وبالفكرة وبالرأي، تاركاً وراءه الاحتذاء بقصائد القدامى من الشعراء ومعرضاً عن معارضتها، غير مكترث بالقواعد والاساليب البالية التي لم تكن تخرج عن اغراض معينة تافهة واصطلاحات محدودة الفناها في القرن التاسع عشر وقبله.

حقاً انه نشأ في المسجد، وتثقف بالعلوم العقلية والنقلية ولكن جيله اختلف اختلافاً كبيراً بتياراته السياسية وحاجاته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية، فاخذ يتخلص من جامد الشعر الذي لا حياة فيه، ويبتعد عن نهج المدارس القديمة التي التزمت المحسنات اللفظية، وترك لحسه وشعره وذوقه وفكره وسائل التعبير، فتدفق ينبوع الادب وخرج من جموده الى الحياة يتلمس منها موضوعاته فلم يعد الشاعر نديماً لوالٍ أو ملك أو وزير، ليطيب المجالس بالنكات والطرائف والملح، بل أصبح معبراً عن رغبات شعبه، مطالباً بالاصلاح وهدم الفساد.

وقد أرادت قوى القديم في عهده الابقاء على نفوذها وسيطرتها، كما أرادت الكنيسة من قبل في اوربا السيطرة على الادباء وقسرهم على اتخاذ اللغة اللاتينية لغة الادب، ومجارات الآداب اليونانية والرومانية، غير أن قوى

القديم في عهد الرصافي خابت في مسعاها كما خابت من قبل قوى الكنيسة في اوربا ، لان ركب الحياة ثورة وتجديد وتطور ، ولا قدرة لسلطة على الوقوف بوجه هذا الركب .

وكان من نتيجة الثورة على سلطة الكنيسة في اوربا أن دخلت روح جديدة متطورة على الاساليب الادبية ، روح تلائم الحياة الصناعية الجديدة التي ظهرت في أوربا ، وكان من أهم دعائمها التجربة والمشاهدة ، فوجهت الادب الغربي جهة العلم ، فكتب هنري ابسن H. Ibsen النرويجي رواية أظهر فيها أثر الوراثة الفعال في الاولاد ، فطبق علم الحيوان فيما كتب ، والحياة الصناعية الجديدة هي التي دعت ماركس وانكلز وبرنارد شو الى الكتابة في الاشتراكية ، ولم يقف هذا التجديد في الغرب ، بل انساب الى الشرق فوجد فيه تربة خصبة كان من بوادرها الثورة على استبداد السلطان في حكمه ، والثورة على كل قديم لا منفعة من ورائه وقد وقف الشعراء من الثورة على استبداد السلطان عبدالحميد مواقف مختلفة ، تتدرج من موقف الهدوء والسكون الى موقف القوة والعناد ، على أن الثورة على القديم والرغبة في الجديد كانتا شعاراً اتخذه كل الشعراء ، وخاصة بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ .

وأول عنصر من عناصر التجديد في العمل الشعري كانت تمثل التجربة الذاتية ، فقد سيطر الشاعر على تجربته سيطرة ناجحة ، فعبر عما يختلج في نفسه ، فظهرت التجربة التي يعيش فيها الشاعر فلاءم بينها وبين بيئته . وقد كانت تجارب الرصافي من التجارب الناجحة في كثير من شعره الذي نظمه ، على ما في بعض شعره من مسحة القديم ، فنجده مثلاً في قصائده

« الساعة » و « سفر في اوتومبيل » و « التلغراف » و « في القطار » شاعراً ناجحاً ، على رجرجة بعض الـكلمات التي هي من مصطلح العلم الحديث، فقدغطى عليها باسلوبه وبراعة وصفه ورسم تجربته في اكثر الموضوعات رسماً واضحاً جميلا

وثاني عنصر من عناصر التجديد في العمل الشعري ظهر في السبك العام للقصيدة ، وملاءمة الموضوع لها ، ويحوي عنصر السبك وحدة الموضوع وجمال الموسيقى والصياغة السليمة ، وقد أفلح الرصافي في هذا العنصر في كثير من قصائد ديوانه ، قال من قصيدة يصف الساعة :

وخرساء لم ينطق بحرف لسانُها — سوى صوت عرق نابض بحشاها
حكت لهجة التمتام لفظاً ولم تكن — لتُفصِح إلا بالزمان لغاها
جرت حركات الدهر في ضرَباتها — وباتت مواقيت الورى بعماها
على وجهها خُطت علائم تهتدي — بهـا الناس في اوقاتها لمناها
تدور عليها عقربٌ دوْر حائر — بتيهاء غُمّت في الظلام صُواها(١)

ومن قصيدته « في القطار » ، بعد أن وصف القطار وصفاً جميلاً ، قال :

تعاليت يا عصر البخار مفضّلاً — على كل عصر قد قضى أهله نحْبا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجز — بها آمن السيف الذي كذّب الكتبا
متى يُنشيء الشرق الذي اغبرّ أفقه — سحابة علم تمطر الشرف العذبا
فإن دَبور الذل ألوتْ بعزه — وكادت سموم الجهل تحرقه جدبا(٢)

وقال يصف السيارة « التومبيل » :

(١) الديوان ص ٢٣٧ .

(٢) الديوان ص ٢٠٧ و ٢٠٨ .

وفدفد قاتم الأعماق متسع طويت أجوازه طي المكاتيب
(بتوموبيل) جرى في الأرض منسرحاً كما جرى الماء من سفح الاهاضيب
ينساب مثل انسياب الأيم تحمله عوامل تجلات من دواليب
كأنها وهي بالمطاط منعلة تمشي بأخفاف أنواق مطاريب
يمر كالريح لم تسمع لأرجله سوى حفيف كنفخ في الانابيب(١)

وكان الرصافي شاعراً ثائراً مجدداً ، مهد لثورة شعرية رائعة نرى آثارها في شعر الذين لازموه وتتلمذوا عليه . أراد أن يهدم القديم بكل ما أوتي من قوة ولكنه لم يتوصل الى ما توصل اليه غيره من الثائرين ، لأنه لم يكن له مذهب واضح فى البناء ، وقد ثار على قسم من التقاليد ولكنه بقي محافظاً على قسم من الأصول القديمة ، ثم جاء من بعده شعراء شطوا واشتطوا في فهم التجديد إذ لم توضع للادب العربي في العراق الأسس التي وضعت في أوربا سواء للعمل الشعري أم الموضوعات ، وكان الادباء في اوربا وضعوا خطة واضحة المعالم في الاصلاح الاجتماعي في العمل الشعري وفى الأسس العامة للشعر ، واتخذ ابسون طريقة علمية فى تأليفه ، وسار كارل ماركس على نظام واضح ، ولم يكن هذا الأمر مقصوراً على الاوربيين ، فقد كان للعقاد والمازني وشكري في مصر مذهب في التجديد رسموه لانفسهم وأرادوا أن يسير عليه الشعراء ، وقد هاجموا على أساسه شوقي في « الديوان » .

أما الرصافي فبذر بذرة كبيرة فى الثورة على الأدب التقليدي من غير أنها لم تكن واضحة المعالم فى ذهنه ، ويمكننا مع ذلك أن نستخلص من تجديده شيئين

(١) الديوان ص ٢١٣ .

مهمين الاول انه نقل الشعر من قصور الولاة والسلاطين وابراجهم العاجية الى دنيا الشعب ومشكلاته وقضاياه العامة ، وكان ذلك مدعاة نظمه لشعره الاجتماعي والثاني انه تحول من اللفظ الى المعنى ، والتحول من اللفظ الى المعنى انما هو ثورة الشعر العراقي الحديث ، وهي نقطة تحول قلبت مفهوم الشعر القديم .

وقد يظن ان الرصافي لم يأت بمعان جديدة بل طرق فنوناً جديدة فى القول وهذا بذاته عمل جدد فيه بمعان جديدة ، في الدعوة الى تحرير المرأة والى سفورها معان جديدة لم تكن مألوفة فى القرن التاسع عشر قال فى « حرية الزواج عندنا » :

واذا الزواج جرى بغير تعارف	وتحبب فالخير أن تترهبا
هو عندنا رمي الشباك بلجّة	أتصيب أخبث أم تصادف أطيبا
أو مثل محتطب بليل دامس	أيدوس أفعى أم يلامس عقربا
تركوا النساء بحالة يرثى لها	وقضوا عليها بالحجاب تعصبا
قل للألى ضربوا الحجاب على النسا	أفتعلمون بما جرى تحت العبا
شرف المليحة أن تكون أديبة	وحجابها في الناس أن تتهذبا (١)

وفي دعوته الى الدستور ووصفه المخترعات الحديثة ، معان جديدة لم تكن مألوفة فى القرن التاسع عشر . . . . ؟ على أن اكثاره من ذلك أداه احياناً الى الحشو والابتذال وأحياناً الى السقيم من القول .

ومن الشعراء الذين جددوا وحافظوا على وقار التركيب ورصانة الاسلوب الرصافى والشبيبي وعلي الشرقي والجواهري وغيرهم ، غير أن الزهاوي أسف في تجديده .

وقد كان الرصافى يستقي ثورته على القديم من مصدرين ، المصدر الداخلي

---

(١) ديوان الرصافي ٣٤٧ .

ـو التطور الذي طرأ على المجتمع العربي ، والشعور بحاجاته الجديدة من حريـة وإخاء ومساواة وإصلاح اجتماعي شامل .

والمصدر الخارجي وهو الفلسفات الجديدة التي وصلت من الغرب من اشتراكية وديمقراطية ، فقد كان الرصافي يقرأ الآراء الجديدة في العلم والمعرفـة في المقتطف والهلال والمقتبس وغيرها من مجلات بلاد العرب التي كانت تنشر آراء دارون وبركسون وديكارت وكارل ماركس مترجمة ، فازدادت ثقافـة الشاعر وتوسع أفق خياله ، لـكنه لم يقـدر أن يكون له فلسفة خاصة أو رأياً يمكن أن ينفرد به عن سواه من المفكرين ، إذ لم تكن قد وصلت الفلسفة الى فهم عميق يتأثر بها لا شعورياً . فهو الى جانب ما كان يحمل من ثقافة دينية وعربية أصيلة اختلطت في ذهنه أجزاء من هذه الثقافات الجديدة .

وقد كان للرصافي استعداد للتجديد وللثورة ، وكان فيه ذكاء دعاه الى المقابلة بين حال الشعب السيئة وما طرأ على ذهنه من آراء جديدة ، فثار لهدم هـذا البناء القديم الذي وقف بوجه رغبات امته وشعبه ، وقد قرأ فيما قرأ الاشتراكية وما فيها من منافع جليلة للشعب ، ورأى الشعوب تحكم ولها كلمة نافذة ثم وجد السلطان يتحكم هو واسرته فى رقاب الناس ويعيشون على كد الشعب وكدحه من غـير أن يقدموا له أي عمل مثمر ، فنظم قصيدتـه « آل السلطنة » التي يقول فيها :

تركوا السعي والتكسب في الدنـ	ـيا وعاشـوا على الرعيــة عاله
يتجلى النعيم فيهـم فتبكي	أعين السعي من نعـيم البطاله
يأكلون اللباب من كدّ قوم	أعوزتهم سخينة من نخاله(١)

(١) ديوان الرصافي الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٦ ص ٤١٠ .

لأنه ما كان يرضى أن ينعم هؤلاء في خيرات الشعوب ويعيشوا في بحبوحة من النعيم على حين يعيش غالبية الشعب في جوع وآلام وحرمان قال :

تلك والله حالة يقشعر الـ ... حقّ منها وتشمئزّ العداله
هي منهم دناءة وشـــنار ... وهي منـا حماقـة وضلاله
ليس هذا في مذهب الاشتراكيـ ... ـة إلا من الامور المحاله
وهو في الملة الحنيفية البيـ ... ضاء كفر بربنا ذي الجلاله (١)

ويرى الرصافي ان الحياة الاجتماعية يجب أن تقوم على التعاون ورعاية المعوزين من مختلف طبقات الشعب ، ويتمنى لو كانت الأموال مشاعة بين الجميع ويرى ان خلاف ذلك يؤدي الى الشقاء :

وما مدنية الأقوام إلا ... تعاونهم على غُـرّ المساعي
ولم يصلح فساد الناس إلا ... بمال من مكاسبهم مشاع
تشاد به الملاجيء لليتامى ... وتُمتـار المطـاعم للجياع
وتبنى للعلوم بـه مبـان ... تفيض العلم مؤتلق الشعاع
وإلا فالشقاء لهم حليف ... وما حمل الشقاء بمستطاع (٢)

وقد كانت دعوته الى الاشتراكية ملازمة للدعوة الى التمسك بتعاليم الدين الاسلامي لأن المجتمع الذي ولد ونشأ فيه الذي كان مجتمعاً دينياً ،فلما دعا الى إصلاح اجتماعي أو سياسي كانت الآراء الاسلامية البحتة تظهر في شعره ، ولكنه اخذها بطريقة خاصة وخلطها بالآراء الجديدة .

---

[١] ديوان الرصافي ، ص ٤١١ .

[٢] الديوان ص ٨٣ .

وهذا ما دعا بعض رجال الدين الى اتهامه بالمروق والكفر في أواخر أيامه لأن الرصافي ينظر الى الدين من موضع يختلف عن الموضع الذي ينظر منه رجال الدين .

وكان الرصافي شاعراً مصلحاً ثائراً على تقاليد المجتمع البالية ، فكان صدى صادقاً لرغبات المجتمع ، انتقد الحياة التي يحياها الشعب ، سواء من الرجال أم النساء ، وثار على أسلوب هذه الحياة ، فنظم « أم اليتيم » و « دار الايتام » و « اليتيم في العيد » و « المطلقة » و « الفقر والسقام » و « المدارس ونهجها » و « في المدرسة » و « الفنون الجميلة » و « فى المعهد العلمي » و « المرأة في الشرق » و « نساؤنا » و « وحرية الزواج عندنا » .

أما ثورة الرصافي على اللفظ وعنايته بالمعنى ، فلها سبب يخص حياة الرصافي وتطورها ، فانه نشأ في بغداد وسافر الى الأستانة ولم تكن بغداد حينئذ إلا بلدة ضائعة بين بلدان وأقطار الامبراطورية العثمانية الواسعة ، وكانت آراؤه الأولى كأنها آراء البدوي الساذج والفلاح المحدود الأماني والغايات .

وفى الاستانة أصبح عضواً في جمعية « الاتحاد والترقي » ، وكانت مبادىء هذه الجمعية متأثرة تأثيراً كبيراً بالآراء الاوربية ، ولا سيما الثورة الفرنسية ، وكان شعار الجمعية « العدالة والمساواة والحرية » .

فامتلأت أسماع الامبراطورية من ترديد هذا الشعار ، وأخذ يُقرأ فى الأناشيد ويكرر في الشعر والاغاني ، ولما وصل الرصافي الى الاستانة وأراد أن يلائم نفسه مع هذه الآراء الجديدة وحياة العاصمة الكبرى ، وجد بضاعة البدوي أو الفلاح التي يحملها لا تقدر على مسايرة حياة المدنية الزاخرة وما فيها

من حضارة وترف ، وما في جنباتها من تبذل وثورة ، ولعل خير ما يعبر عن هذا الاضطراب النفسي قوله :

فني النفس ما أعيا العبارة كشفه — وقصر عن تبيانه النظم والنثر
ومن خاطرات النفس ما لم يقم به — بيان ، ولم ينهض باعبائه الشعر
ويا رب فكر جال فى صدر ناطق — فضاق من النطق الفسيح به الصدر
ويا رب معنى دق حتى تخاوصت — اليه من الألفاظ اعينها الخزر
أرى اللفظ معدوداً فكيف أسومه — كفاية معنى فاقه العد والحصر
وأفق المعاني في التصور واسع — يتيه إذا ما طار في جوه الفكر
ولولا قصور في اللغى عن مرامنا — لما كان في قول المجاز لنا عذر(١)

وقد أراد الرصافي ، وهو شاب حينئذ ، أن يعبر عن آرائه وعن تجاربه الجديدة في هذه الحياة ، فلم يسعفه أسلوب التقليد القديم الذي نشأ عليه ، والذي كان يحفل باللفظ دون المعنى ، فقد احتاج الرصافي الى معان جديدة ليعبر عن أشياء جديدة رآها ، ولا يهمنا أكانت الأستانة أو بغداد الجأته الى العناية بالمعنى اكثر من عنايته باللفظ ، ولكن المهم ان الرصافي ضاق ذرعاً بالقديم الذي لم يمكنه من التعبير عن أحاسيسه ، فقد قال :

لست بالشاعر الذي يرسل اللف — ظ جزافاً لكي يصيب جناسه
أنا لا أبتغي من اللفظ إلا — ما جرى في سهولة وسلاسه
إنما غايتي من الشعر معنى — واضح يأمن اللبيب التباسه(٢)

---

[١] الديوان ص ١٨٤ .

[٢] الديوان ص ٣١٣ .

وديوان والرصافي انتقال كبير من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ومع صعوبة وضع حدود فاصلة للتيارات الادبية لآداب الامم ، نقدر أن نقول إن شعر الرصافي كان حداً فاصلاً بين القديم والجديد في الشعر العراقي الحديث.

وكما اعدّ نظم « القصائد الغنائية Lyrical Ballads » حداً فاصلاً بين الرومانتيكية والكلاسيكية ، ففي ديوان الرصافي تجديد ثورة واضحة المعالم على الاسلوب القديم وايمان وثقة بالتجديد والثورة على القديم . وقد قال :

سقيتهن المعالي فارتوين بها — وكن فيها مكان الماء في الشمر

كم تشرئب لها الاسماع مصغية — إذا تنوشدن بين البدو والحضر

طابقت لفظي بالمعنى فطابقه — خلواً من الحشو مملوءاً من العبر

اني لانتزع المعنى الصحيح على — عري فاكسوه لفظاً قد من دُرر

واجود الشعر ما يكسوه قائله — بوشي ذا العصر لا الخالي من العصر

لا يحس الشعر إلا وهو مبتكر — وأي حس لشعر غير مبتكر (١)

ورغبته في التجديد والثورة ، تلح عليه وهو لذلك يكرر التعبير عنها . قال:

لقد فاز من بارى جديد به جدُّه — وخاب الذي في جده لم يباره

وليست حياة الناس إلا تجدداً — مع الدهر في ايباسه واخضراره

وما الناس إلا الماء يحييه جريه — ويرديه مكث دائم في قراره(٢)

ولما عبر عن رغبته هذه فيما نظم من آراء اجتماعية وفكرية اتهم بالمروق من الدين وبالفكر والزندقة ، وقطع عنه مورد رزقه ، ولكنه استمر في آرائه بلا خوف أو تردد .

وقد اوتي الرصافي ما يحتاج اليه المجدد المصلح القوي ، فقد كان

---

١ ـ الديوان ص ٦٤   ٢ ـ الديوان ص ٣٨ .

له قدر كبير من الذكاء ، واستيعاب لما كان يقرأ ، وكانت ثقافته معه في ذهنه ، اينما حلّ وارتحل .

ولذلك لم ير أحد له مكتبة عند وفاته ، ولا اظنه حوى مكتبة ما طوال حياته ، لانه كان يعتمد على ذاكرته في علمه الذي وعاه . وهو دليل ذكاء خارق ، وذهن متقد استوعب كثيراً من المعاني والالفاظ واستعملها طوال حياته في شعره .

الزهاوي ... الشاعر القلق

١ - عصر الزهاوى :

عاش الزهاوي فى عصرٍ قلقٍ مضطرب اهتزت مثله وتقاليده وعاش بين قرنين مختلفين ، القرن التاسع عشر الخامد المتحجر ، والقرن العشرين المضطرم المضطرب المتوثب فقد شاهد الهدوء والثورة وتأثرت نفسه المرهفـــة الشاعرة بالنقلة الجديدة .

عاش الزهاوي في العصر التقليدي الموروث ، وما فيه من ركود وهمود ، ورأى عصر الدستور العثماني وما صاحبته من ضجة حين اعلانه وفرحة عند نشره وأحس بالخيبة التي اعتورت الناس عندما استأثرت جمعية الاتحاد والترقي بالحكم وبالخيرات ، دون أن يكون لشعوب الانبراطورية العثمانية أي نصيب . ثم كانت النتيجة تقسيم الامبراطورية العثمانية ودخول الحلفاء بلاده ، وما جر هـــذا الاحتلال على البلاد من ويلات وثورات جرت الى تأسيس دول وامارات ، وكان العراق أحد هذه الدول. ولم يرض العراق بالاستعمار فثار ثورته سنة ١٩٢٠ وكان من جرائها دخول الملك فيصل العراق وسلسلة من المعاهدات كان يفرضها الحاكمون ويرفضها الوطنيون .

انه عصر حافل بالاحداث السياسية . .

وقد صاحبت هذه الاحداث ، أحداث فكرية واجتماعية هزت المجتمع ،

وفتحت الاذهان على مثل جديدة ، واكتشافات حديثة ، وآراء غريبة عن المجتمع ، فقد أخذ المثقفون يتحدثون عن نظرية النشوء والارتقاء ، وعن دارون وعن الديمقراطية ، والاشتراكية ، والفاشستية ، وغير ذلك من التعابير الجديدة والمفاهيم الغربية .. وسمع الناس صيحات تطالب باطلاق حرية المرأة ، ومساواتها مع الرجل وكان من جراء الحرب الاولى مطالبة الشعوب الضعيفة بالحرية والاستقلال وتقرير حق المصير ، ونشر مبادىء ولسن المعروفة (١) .

انه عصر طافح بكل جديد وموار بكل حديث وحديث . .

وقد كان لهذه الآراء ، وهذه الاحداث صداها في النفوس وفي التفكير فأخذ بعض المفكرين في مؤازرتها ونشرها بين الناس ، ونشطت بعض الآراء لمقاومة هذه التيارات الجديدة ولم يكن النشاط أو المقاومة وقفاً على امة من الامم أو على جانب من الكرة الأرضية ، فقد تغنى العرب بالحرية وتغنى بها أحرار الاتراك مثل نامق كمال وكان القصد ايقاظ الامم من سباتها الذي طال أمده واذا نادى قاسم أمين بتحرير المرأة في مصر فقد كان صدى هذه الدعوة يتردد في جنبات العراق ، وحدث فيه ما حدث في مصر من تأييد للفكرة ومعارضة قوية لها (٢) .

وقد شهدت الدنيا حركات عنيفة وثورات سياسية واجتماعية ، واجتاح التيار القومي اكثر بقاع العالم ، وكان من أثر هذا التيار ابتعاد العرب عن الدعوة

---

(١) « الشعر العراقي الحديث » . . فيه تفصيل واف طبع في بغداد ١٩٦٠ ، وطبع في القاهرة ١٩٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٠ وما بعدها .

الى الجامعة الاسلامية ، ونشاط انصار الجامعة الاسلامية لتأييد دعوتهم والذب عنها بالخطب تارة وبالكتب مرة اخرى (١) وبالدعوة الى احياء مجد القرآن الكريم والسير تحت رايـــة الدولة المسلمة التي أخذت تهاجم من الكفار وأعداء الدولة الكافرين .

وفي هذا العصر تظهر الدعوة القومية العربية قوة عارمة يصحبها دعوة الى انشاء انبراطورية عربية تضم شمل العرب في أقطارهم المختلفة ، فتداعب أحلام العرب وتبسم آمالهم وأمانيهم لاستعادة الامجاد العربية القديمة ، فبعثت هـذه الدعوة القوة فى النفوس والعزيمة فى مناهضة الاجنبي مستمدة من التاريخ العربي والاسلامي روح الكفاح والجهاد ، خاصة وأن الدستور العثماني قـد أعلن على أسس الحرية والعدالة والمساواة بين شعوب الانبراطورية العثمانية فيتألف حزب جديد من أعضاء مجلس الامة (المبعوثان) العرب باسم الحزب العربي (٢) لرعاية حقوق العرب في البلاد العربية وغير البلاد العربية .

وفي مثل هذا العصر تظهر روح المجازفة فى روح أبنائه ، وتظهر الرغبات الكامنة في النفوس فيسير بعضهم في ركاب الحركة الجديدة ، ويعتري آخرين اليأس والخيبة لانهم لم يفوزوا بأمانيهم . وفي مثل هـــذا العصر تهيمن الفوضى الفكرية ويظهر القلق الروحي والاضطرارى النفسي بين الأفراد ، لأنهم يرون مثلهم التي عاشوا عليها قد انهارت أمام أعينهم .

---

(١) أصدر حبيب العبيدي « حبل الاعتصام في وجوب الخلافـة فى الاسلام » بيروت ١٩٠٦ راجـع ص ١٠٢ .

(٢) تراجع جريدة المفيد وجريدة صدى بابل ففيهـا تفصيل عن الحزب العربي .

وقد كان أثر هذا القلق ظاهراً على شعراء العرب فانعكس في شعرهم (١) .

٢ ـ الزهاوي والعصر العثماني :

وقد كان موقف الزهاوي واضحاً فقد آزر السلطان عبدالحميد ومدحه والف كتاب (الفجر الصادق) يدعو الناس فيه الى الجامعة الاسلامية لأن الفكرة الاسلامية كانت مسيطرة بسيطرة الدولة العثمانية ، ودعا الناس للسير تحت راية العثمانيين واعتبر من لا يسير تحت هذه الراية ملحداً أو كافراً وباغياً وهاجم الحركة الوهابية واعتبرها حركة الفرقة الهالكة لأنها شقت عصا الطاعة على الدولة العلية وأوجب تدمير هذه الفرقة التي نقضت بيعة السلطان وخرجت على طاعته . ودعا صراحة الى أن شروط الخلافة ليست ضرورية ولم يكترث بالشروط التي وضعها المسلمون للخليفة من العلم والفضل والخلق (٢) لأنه كان يريد ارضاء السلطان ويخشى شره ويتقي أذاه (٣) ولكن هذا الخوف أخرجه

(١) يراجع « الشعر العراقي الحديث » للكاتب ص ٣٢ الى آخر الفصل والفصل الثاني بصدد الأمثلة .

(٢) الفجر الصادق ص ١ راجع المقدمة طبع القاهرة ١٩٠٥ والشعر العراقي الحديث ص ٢٥ وما بعدها .

(٣) في نسخة السيد هبةالدين الشهرستاني حاشية كتبها السيد هي « وقد اعتذر لدي مما صدر منه في صدر هذا الكتاب بأنه ألفه مخافة استبداد عبد الحميد واضطهاده له » والتوقيع في ٢٤ شوال ١٣٣٤ بغداد وعنوان الكتاب « الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق » وكتب فيه « تأليف علامة العراق ونابغته بالاجماع والاتفاق من هو لكل فضل حاوي حضرة جميل افندي صدقي الزهاوي » وقد قرضه « ذو الادب الوافي معروف افندي الرصافي » بقوله :

هـذا كتاب فيه يتضح الهدى ... علماً فتسطع للعقول حقائق
يا ظلمة الشبهات والكذب انجلي ... فلقد بدا للحق فجر صادق

عن مثله العليا اذ خلق من السلطان عبدالحميد انساناً شبيهاً بالاله ، فجعل جميع تصرفاته فوق الشك وسياسته المثل الاعلى التي يجب أن تحتذى وبعزمه وحده يحفظ الاسلام ، وبقوته ينشر الاسلام . فقال في افتتاح (فصل يلدز) :

سلام البرايا فى كلاءة احمد ... بيلدز لا يغفو ولا يتغيب
وان امير المؤمنين لوابل ... من الغيث مُنهلٌ على الخلق صيِّب(١)

وقد افتتح فصل (الخليفة الاعظم ايده الله) بقوله :

سياسة مولانا الخليفة مخذم ... يفلُّ به الامر العسير ويحسم
لقد سعدت أمنا بلاد وسيعة ... بعــدل أمير المؤمنين تنظم
لقد دام محفوظ الجناب مآثر ... اضاءت على الآفاق منهن انجم
وقد بعث الله الخليفـة رحمـة ... الى الناس ان الله للناس يرحم
ففي عهده قد أصبح الملك عامراً ... به الأمن يزهو والاماني تبسم
هو الملك الـبر الرؤوف بأمة ... أنار هداهـا والامام المعظم
اقام به الاديان أركان دينـه ... فليست على رغم العدى تتهدم(٢)

وقد كان شعراء هذا العصر وما قبله يعتبرون الخليفة العثماني رمزاً للوحدة الاسلامية وكانوا يشيدون باخلاقه وفضائله ويرفعون ذكره وجعلوه ظل الله فى ارضه فهـو الذي يحمي بيضة الدين ويدافع عن المسلمين ويقاتل المشركين والكافرين(٣) وكان الزهاوي احد هؤلاء الشعراء وسار على ما تقتضيه امور السلطة

---

(١) الفجر الصادق ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠ .

(٣) يلاحظ « الشعر العراقي في القرن التاسع عشر » للكاتب فصل في مدح السلطان بصدد التفصيل .

٣ - احتلال العراق :

وتتوالى الأحداث على العالم العربي ويحتل العراق ، وتظهر دعوات جديدة فيه من أجل نظام الحكم المقبل في ظل الاحتلال ، فقد قامت جماعة تنادي ببقاء الانكليز في العراق وقامت جماعة اخرى تدعو الى الجمهورية ونادت جماعة اخرى بالملكية واختلفوا فيمن يحكم البلاد هل النقيب أم الشيخ خزعل ام أغاخان ورشح آخرون أحد أبناء الحسين وقد كان مصير البلاد واقعاً بين حفنة من الناس لا تهمها غير مصالحها تتنازع بعيدة عن الشعب وعن غاياته وأهدافه ولا يعرف الشعب عامة بما يحدث وما تتقاذفه من التيارات .

وفي هذا الخضم الزاخر بالأحداث تطالعنا جريدة العرب التي كان يصدرها الاحتلال بقصيدة بتوقيع (شاعر عربي) يقول فيها الشاعر المتخفي :

احب الانكليز واصطفيهم	لمرضى الاخاء من الانام
جلوا في الملك ظلمة كل ظلم	بعدل ضاء كالبدر التمام (١)

ويهاجم الاتراك مهاجمة عنيفة ويذكر مآسيهم وكيف انهم سلبوا حقوق العرب ويندفع بحماسة وحرارة ويقول :

تبصر ايها العربي واترك	ولاء الترك من قوم لئام
ووال الانكليز رجال عدل	وصدق في الفعال وفي الكلام
وانت تسومك الاتراك خسفاً	وتسلب من حقوقك باهتضام (١)

ولما بحثنا عن قائلها وجدنا الزهاوي فقد نشرها في ديوانه الكلم المنظوم

---

(١) جريدة العرب سنة ١٩١٨ والكلم المنظوم ص ١٤ طبع ١٩٠٩ .

سنة ١٩٠٩ ولم نـكن نلومه لو لم يعد سبكها ونشرها سنة ١٩١٨ (١) ويعجب القاريء كيف وقف من الاتراك هذا الموقف وانقلب عليهم .

لا شك ان القلق النفسي الذي استحوذ على الشاعر هو الذي دفعه الى هذا التناقض دفعاً . فقد كان الزهاوي مكرماً وكان عـزيزاً وكانت له منزلة سامية رسمية ، زمن الدولة العثمانية وعندما دخل الانكليز العراق خشي أن يفقد مكانته وخشي اذى السلطة الجديدة الحاكمة وقد هدد فعلا بالاعتقال باعتباره من رجال الدولة العثمانية المرموقين وبالنفي الى الهند لـكنه أثبت انه كان مراسلا لجريدة (المقطم) الموالية للانكليز فعفي عنه . ولـكنه لم يصل الى ما وصل اليه في العهد العثماني وانما اهمل شأنه ، وبذلك كُبتت في نفسه غريزة التقدم والظهور في المجتمع الجديد ، وفقد غريزة التأكيد على النفس .

كان رد الفعل في نفسه عميقاً ، وكانت تدور فيها معركة حامية الوطيس ، بين موالاة السلطة الجديدة وبين التأكيد على الذات ، فغلبته الغريزة لأن جذورها كانت عميقة في نفسه وتطمئن رغباته . . لم لا يحصل على مركز اجتماعي اعلى من المركز الذي حصل عليه في الدولة العثمانية ؟ فقد كان نائباً عن بغداد ونائباً عن المنتفق (٢) ، ولم تكن في العراق مناصب مرموقة تتمشى وغروره غير الوزارة . فلم لا يكون وزيراً في وزارة النقيب الاولى ، وقد أصبح فيهـــا وزيراً من لا يساويه في العلم والشهرة والمقام الاجتماعي ؟! ان عدم حصوله الى ما تطمح اليه نفسه كان إهمالا لقدره وطعناً في ذاته ، وتجاهلا لمكانته ، فظن الزهاوي

---

(١) الادب العصري ج ١ .

(٢) المنتفق لواء من ألوية العراق الجنوبية ويسمى الآن لواء الناصرية .

بأنه أصبح كماً مهملا وانه سيفقد احترام الناس وتقديرهم له . والانسان حريص على تقدير المجتمع واحترامه ، وعدم حصوله على المنصب الرسمي معناه اندحار واحتقار له ، فتسرب القلق الى نفسه والخوف الى قلبه .

كانت معركة نفسية انتصرت الغريزة فيها ودفعته الى مدح الانكليز ونسيان كل ايام الاتراك ومناصبهم في البرلمان أو في تحرير جريدة الزوراء الرسمية أو في حصوله على الوسام المجيدي (١) .

كان الزهاوي رحمه الله يتدفق حيوية ونشاطاً وكان شاباً متوثباً رياضياً يغتصب اعجاب الاقران ويتفوق عليهم (٢) فقد ألفت نفسه التقدم صغيراً لنشاطه وذكائه ، وحاطت به هالة من التقدير والاحترام لانه كان ابن مفتي بغداد وزادت مكانته الرسمية عندما فاز بالنيابة في البرلمان العثماني مرشحاً عن جمعية الاتحاد والترقي وهي السلطة الحاكمة . فالقوة والمركز الرسمي ومركز الاسرة أمور أكدت ذاته حتى انه برز بين اخوانه نواب العراق وتميز عنهم عندما تبنى القضايا العربية وطالب بجعل اللغة العربية لغة رسمية في العراق أسوة بما هو في الشقيقة العربية سورية (٣) فنال التقدير والاحترام وحف النواب العرب وغيرهم به تقديراً واعجاباً .

أراد الزهاوي أن ينال مثل هذه المكانة فى هذا العهد بعد أن تفرقت اشلاء

---

(١) الادب العصري ج ١ .

(٢) رسائل الزهاوي نشرها في مجلة الكاتب المصرى .

(٣) نص أقواله فى مجلس المبعوثان مترجمة في شخصيات عراقية للاستاذ خيري العمري ص ٦٩ و ٧٠ .

الانبراطورية ودخل العراق فى حوزة الانكليز . وقد أراد اثبات ذاته فهرع الى المحطة مع الناس ووقف خطيباً فى استقبال حاكم العراق السير كوكس وأوغر صدره ضد الثورة العراقية (١٩٢٠) وكانت البلاد في أتونها تسعر . كما ساند عبدالرحمن النقيب وحزبه (الحر المعتدل) وانضم اليه كما انضم من قبل الى الاتحاد والترقي آملا أن يحوز منه ما حاز في الماضي ، غير ان سياسة الحزب لم تكن على أسس شعبية وما استهدفت مصالح الشعب لأنها كانت تسند عبدالرحمن النقيب الذي استند اليه الانكليز لجعله واجهة يتسترون وراءها في حكم العراق ، مغتنمين كبر سنه وسمعة اسرته الدينية ومنزلتها بين الناس ، ولكنهم سرعان ما نبذوه لأنه لم يسر فى الخط الذي كانوا يرسمونه له ، ووجدوا من يقوم بخدمتهم وخدمة مصالحهم .

كان الزهاوي يترقب قلقاً واجفاً الحصول على وظيفة وقد رضي عنه الانكليز واعتبروه شاعرهم (١) وجاء عبدالمحسن السعدون زميله فى مجلس المبعوثان الى الحكم فعينه سنة ١٩٢٥ عضواً في مجلس الاعيان .

تظافرت كل عناصر القلق على الزهاوي تقدم في السن ، وخور فى القوى ، وامراض وشلل ، وبدت أعراض المرض تقوى وتشتد عليه فلا يكاد يمشي منفرداً خوف الاكباب والسقوط . وخيبته من الملك فيصل عندما هرع يحيه بقصيدته المشهورة :

---

(١) لاحظ مذكرات « مس بل » المطبوع في لندن سنة ١٩٢٧ الصفحات ٥٦٢ ، و ٥٩٣ و ٦٠٦ فقد جاء في الصفحة ٦٠٦ ما معناه « ثم نهض شاعرنا الكبير الذي طالما اخبرتك ـ جميل الزهاوي » و ص ٥٦٢ في شأن خطابه في قدوم كوكس .

نا محبوك فاسلم ايها الملك   ومصطفوك لعرش زانه الفلك (١)

ويهدي ترجمته لرباعيات الخيام له فيطلق عليه شاعر الملك، ويخصص له راتب قدره ستمئة روبية يرتفع الى ثمانمئة، فيرفض الزهاوي، لانه لا يريد أن يكون مجرد زينة في البلاط وانما يريد أن يكون له مقام اجتماعي ومركز رسمي يشعر بذاته وبكيانه وبقابليته وقال انه لم يرفض استكباراً وانما الشاعر الاجير لا يمدح عن شعور (٢) والواقع ان الزهاوي اعتذر، مع انه بالغ في المديح وأوغل في الزلفى لانه يريد أن يكون مرموقاً ويريد أن يكون في عمل يحترمه فيه الناس لا أن يكون زينة.

أراد الزهاوي أن يصل ويصل بسرعة فهادن الانكليز وسار مع الحزب الحر وهاجم الاتراك طمعاً في اثبات ذاته وتأكيداً لشخصيته، فأضاع الوفاء الذي حفظه الرصافي للعثمانيين.

٤ ـ ثورة الزهاوي:

ولما لم يتحقق للزهاوي حلمه رفع راية التمرد لاثبات ذاته ولتأكيد شخصيته فدعا الى تحرير المرأة بالعنف وبالقوة ودعا الى الفلسفة والى الاخذ بنظرية دارون وحشر نفسه في أمور كثيرة مثل نظرية الجاذبية ودارون والكائنات (٢) وغيرها من الامور لكي يثبت انه عبقري وانه فيلسوف وانه عالم وانه يأتي بما لم يأت به غيره من الاقران.

---

(١) المطلع يذكرنا بقول عمير بن شميم التغلبي [القطامي]:

انا محيوك فاسلم ايها الطلل   وان بليت وان طالت بك الطيل

(٢) راجع « الكاتب المصري » ص ٤٦٥ العدد ١٥ السنة الرابعة ١٩٤٦. والمجمل مما أرى المطبوع عام ١٩٢٤.

والواقع ان دعوته الى الفلسفة وتحرير المرأة وما طالب به لم يكن إلا إندحاراً نفسياً للتأكيد على الذات فقد توهم بأنه مندحر والانسان حريص على أن يكون محترماً وأن يكون محفوفا بالتقدير والفوز لذلك لما توهم بهذا الاندحار توهم بأنه أهين وان كرامته قد جرحت لذلك شكا بكل حرقة ولوعة للاستاذ احمد حسن الزيات واستجداه الاحترام عندما قال له (أذيب عمري في شعري والامة تقذفني بالبهتان والحكومة تخرجني من مجلس الاعيان . .) فحسب الشعب والحكومة ضده فكان صدى هذه الخيبة ثورة في شعره يعتصرها الألم فقال :

افتحوا للفتى المضيم الطريقا　　فلقد جاء يزبئر حنيقا
رافعاً راية التمرد تهفو　　حاملا من براعه منجنيقا(١)

أرأيت أشد قسوة من هذه الثورة العمياء التي تريد أن تدمر كالمنجنيق دون وعي لتطفيء غلة الزهاوي الذي لم يفتح له الطريق والذي منع من اثبات ذاته وفرض شخصيته فظن أنه مُنع من التقدم وانه لم يُقدر حق قدره فقال :

ايها الدائسون بالرجل حقي　　ليس حقي بأن يداس حقيقا
قل لأبناء يعرب ان في القبر　　أباكم يذم هذا العقوقا
أخذت آمالي تضيع واخشى　　انني لا أرى لها تحقيقا

لم ينل الزهاوي ما يريده فسخط وثار وتألم لأنه رأى غيره يتقدم في مناصب الدولة وقد تأخر هو عنها وبذلك لم تشبع رغبته في التقدم واثبات ذاته والتي برزت كثيراً في شعره :

وللحق والتاريخ أقول ان الزهاوي كان أحسن بكثير ممن تسنموا وظائف

(١) الاوشال ص ١١٤ .

الدولة المرموقة الثقافية منها وغير الثقافية ولكن اندفاع الزهاوي وتقلبه السريع وعدم رزانته ، حوائل حالت دون وصوله الى ما يريد ، فقد فت في عضد الوطنيين خلال الثورة العراقية . ثم راح يرثي الشهداء ثم هاجم الدخيل ومدح الاتراك ثم هاجمهم وهاجم الوهابية ثم مدح الملك السعود الوهابي .

ولما رأى احلامه تنهار انكش على نفسه وندب ايامه في ظل الحكم العثماني مستغفراً لما قدمه قائلا والحسرة تملأ قلبه :

اين عزي في دولة الاتراك   انا مما فقدته أنا باكي
كنت بالامس راضياً عن حياتي   وانا اليوم من حياتي شاكي (١)

وليظهر قدرته وتبرمه وليثبت ذاته سمى القصائد التي نظمها في الملك « المطرودات » ولسان حاله يقول :

قد مدحت الذين لم   يستحقوا مدائحي
احسبوها على ضرور   تهما من قبائحي

وتطول بالرجل أيام الانتظار فيرثي له اخوانه ويؤملون له الفوز ولكن تطول أيام الانتظار فيقول :

يقولون صبراً يا جميل على الذي   أصابك من ضيم وأنّى لي الصبر
ولابد من حرب على من تعصبوا   علي فأُردى أو يفيء لي النصر
وكل امرىء يسعى الى المجد جاهدا   ولكن طريق المجد اكثره وعر(٢)

وأراد أن يكسب الرأي العام ويؤكد أهميته فاعلن انه سيهاجر وانه يترك

---

(١) الاوشال ص ١١٤ .
٢) الاوشال ص ١١٣ .

العراق لانه لم يأخذ المكانة اللائقة به فقد أضناه العذاب وأرهقه الاهمال ، وهاجم الدخيل الذي يستفيد وحده من خيرات وطنه وقال :

انی علی الاوطان انفق مهجتي أما الدخيل فأي شيء ينفق
قد يسكت المهضوم إلا زفرة منه وإلا عبرة تترقرق (١)

هذا القلق كان كما رأينا نتيجة من نتائج المجتمع نفسه أثرث على الزهاوي نفسه وهي غريزة يصاب بها كل انسان وشدة الحرص نتيجة لما يعتور النفس الانسانية وخاصة اذا كانت تتعلق بالمركز الاجتماعي لانسان تمتع بهذا المركز وأحيط بالأحترام والتقدير وقد صورت نفس الزهاوی القلقة آلامه أكثر من واقعها لرهافة حسه فظن الأمر على غير حقيقته فقال :

قد تعذبت في العراق كثيرا كنت في حبه أقاسي سعيرا
والذی فيه قد أطال عذابي كان خصما على عذابي قديرا (٢)

وقد تصدت له احدى الجرائد عندما أعلن رأيه وقالت انه عندما طلب جواز السفر منحته الحكومة اياه مع راتب لمدة سنة فاسقط في يديه ولم يسافر إلا بعد ثلاث سنين (٣) فهل أراد أن يثبت ذاته للسلطة فلم يفلح فقال :

ان اعدائي في العراق كثير كلهم فيه آخذ بخناقي
سأولي ربوع بغداد ظهري تاركاً خيرها لاهل النفاق

وتتجلى رغبته النفسية ومقدار ما يريده لنفسه في قوله :

---

(١) الاوشال ص ٣ .

(٢) الاوشال ٦٧ .

(٣) جريدة شط العرب سنة ١٩٢٤ .

قـد رحلنا عن العراق جميعاً   أنا والشعر والهوى باتفاق (١)

وقوله :

ما عسى أن تفيد نفسي المساعي   ان فضت بالحبوط فيها الدواعي
انا والحق في العراق مضاعا   ن ، وما فيه غيرنا بمضاع (٢)

٥ - الزهاوى والرصافى :

وقد زاد فى قلق الزهاوى بروز عامل جديد فى حياته هو عامل المنافسة الذى لم يكن بحسه بهذه الحدة وانتشار أمره بين اصحاب الجرائد والمجلات الذين كانوا يريدون اثارته والناس متى وجدوا ثغرة في ضعيف جسموها له واستغلوها حسب اهوائهم ورغباتهم . خاصة والزهاوى لم يعد عضوا بمجلس الاعيان وظن المنصب الحكومي يزيد في تأكيد ذاته وشخصيته ، وقد استغلت الجرائد شعر الرصافي وقوته وقارنوا بين الشاعرين ، ولم يكن للزهاوى سند غير شعره الذى لا يضاهي شعر الرصافي وشخصيته التي لا تقوى على مجابهة شخصية الرصافي . فقد كان الرصافي شاعرا شابا قوي الاسلوب، رصين العبارة ، ضخم الجثة،مهاب الطلعة ، وكان الزهاوي مريضاً ، مشلولا، ضعيف الاسلوب ،مترجرج الشخصية.

٦ - الجرائد والزهاوى :

وزاد في قلق الزهاوي ، وضاعف أساه الحركة التي شنها أنصار الرصافي على الزهاوي . فقـد كتب رفائيل بطي مقالاً يمتدح به الرصافي ويقول بأنـه أول من نظم الشعر القصصي ، فيثور الزهاوي الذي لا يرى غير نفسه شاعراً

(١) ديوان الزهاوي ص ٣٤٥ .

(٢) ديوان الزهاوي ص ٢٠٢ .

العراق وعلامته ونابغته فكيف يفوقه الرصافي . فتظهر مقالة تهاجم كاتب المقال وتظهر الزهاوي بمظهر السباق وانه أول من نظم الشعر القصصي في العراق وتبالغ وتقول انه « اسبق شعراء العرب » والطريف ان الناشئة الجديدة عندما تنشر المقال تقول ان الزهاوي أملاه على كاتبه وتشتد الخصومة وتكتب عنه قائلة ان الزهاوي دعا الفيلسوف الالماني انشتاين الى المبارزة و « قداعد للمبارزة جذباً ودفعاً ورباعيات ، ولا نخال انشتاين يتهور فيقدم على هذه المبارزة لأن تلاوة رباعية واحدة كافية لصرعه في حلبة البراز » وقالت (ان لجنة الطب الأدبي قررت تلقيح الجرائد والمجلات بلقاح يقيها جراثيم الرباعيات) ، وتذهب بعيداً في التهكم وتقول (ان جامعة اكسفورد قررت ترجمة قصيدة الزهاوي الفلكية ليستظهرها الاساتذة المختصون) (١) .

ويتصدى له محمود احمد ويرجع جميع آراء الزهاوي الى الشعراء والكتاب الآخرين ويأتي بأمثلة من نظم الزهاوي لآراء كوستاف لوبون ومنها « محيا للحب يخاف الريب والشك ينميه واليقين يميته » أخذه الزهاوي :

الحب بالشك يحيا   وباليقين يموت

وأخذ من الشريف الرضي قوله :

ساكت انت والاعادي تقول   ومضرّ بك السكوت الطويل

فقال الزهاوي :

راحل أنت والليالي تزول   ومضر بك البقاء الطويل

وان قول الزهاوي :

---

(١) تراجع اعداد الناشئة الجديدة سنة ١٩٢٣ .

ولولا دفع رب الناس بعض النـــاس بالبعض
لدالت دولة الانســا ن أو زالت عن الأرض

مأخوذ من قوله تعالى :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾

وان قوله :

لو كان يسعى منبر لسعى اليك المنـبر

أخذه من قول البحتري :

ولو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنـبر

وأخذ من جوامع الكلم لـكوستاف لوبون قوله :

عاشر اناســاً بالذكاء تنزهوا واختر صديقك من ذوي الاخلاق

من الصفحة التاسعة من الـكتاب « قلما اجتمع لامرء خلق وذكاء لذلك ينبغي عليه أن يختار اصدقاءه من أهل الخلق ومعاشريه من أهل الذكاء » .

وأخذ من الـكتاب نفسه قوله :

وفي السياسة للالفاظ مقدرة ليست على سامعيها بالبراهين

المعاني الموجودة في الصفحة الحادية والعشرين « من ضرورات فن سياسة الامم معرفة طائفة من الألفاظ المؤثرة لأن فعلها اشد من فعل الادلة العقلية » .

ويدافع عن نفسه في المجلة ثم يتصدى ابن أخيه ابراهيم أدهم الزهاوي ويدافع عنه ويهاجم محمود احمد ورفائيل بطي ويتدخل الادباء منتصرين لجانب من الجانبين، فتقف مجلة (ليلى) الى جانب الزهاوي ولا تتأخر جريدة الأمل عن المساهمة في المعركة وتؤدي نصيبها منها .

ويصدر الزهاوي مجلة (الاصابة) (١) التي قال عنها انها منار للنضال عن الحق في العلم والادب وانه ينازل فيها انصار القديم الذي لم تعد فيه فائدة للامة التي تريد النهوض في القرن العشرين ، ولن يتساهل أو يرأف بمن يتشيع للباطل وسيصليهم حرباً شعواء ...

٧ ـ مقارنة وخاتمة :

وقد جمعت الناشئة الجديدة آراء كل شاعر من الشاعرين بزميله بحوار لطيف فيه كثير من الرأي الصادق الذي يعبر عن دخيلة الشاعر ومن هذه الآراء :

يقول الزهاوي: ان ترجمة حياة الرصافي في « الادب العصري » غير صحيحة

ويقول الرصافي : ان دعوى الزهاوي فى ترجمته تحتاج الى اثبات .

ويقول الزهاوي : ان الرصافي اشعر من شوقي وحافظ شاعري مصر الكبيرين وهو تلميذي .

ويقول الرصافي : ان الزهاوي لا يعرف من العربية بقدر ما يعرف طالب « ملائي » وطالما صلحت شعره فى اول عهدي بالنظم .

ويقول الزهاوي : ان شعر الرصافى بدرجة شعر « البناء » أو هو من الوسط أو دونه .

ويقول الرصافي : اني لا افهم كثيراً من رباعيات الزهاوي التي يدعي انها فلسفية .

---

(١) لم يصدر الزهاوي غير ستة أعداد عدد صفحاتها جميعاً (٤٨) صفحة فقد صدرت في يوم الجمعة ١٠ ايلول سنة ١٩٢٦ وصدر آخر عدد منها يوم الجمعة ١٥ تشرين الاول من السنة نفسها .

ويقول الزهاوي : اني أول من سن نظم الشعر القصصي في العراق أو في العالم العربي وتعلم الرصافي الطريقة مني .

ويقول الرصافي : لا نجد صفة من صفات الفلاسفة عند الزهاوي ولا نعرف ما هي فلسفته التي أرهقنا بذكرها .

ويقول الزهاوي : معروف صديقي وهو فرختي لأني علمته الشعر وفقهته في الاجتماعيات .

ويقول الرصافي : مسكين جميل له مخيلة أوسع من الفضاء فيتصور كثيراً وان كانت تصوراته أوهاماً وهو لا يستحق محبتي بل عطفي وشفقتي .

وهناك قصص كثيرة عن مثل هذه المعارك والمنافسات بين الشاعرين . كان يتدخل في إصلاح ذات البين بينهما اخوان الشاعرين والاخيار منهم ومن ذلك ما قام به الاستاذ محمود صبحي الدفترى مرة اذ جمع بين الاديبين وصالحهما (١) .

وقد بقي الزهاوى قلقاً يتوقع أن ينال عملا وجل آماله كانت معقودة على العودة الى مجلس الأعيان غير أن القدر لم يمهله اذ توفي في شباط ١٩٣٦ .

رحم الله الزهاوي فقد أتعب نفسه كثيراً ، ولكنه سجل في لوح الخلود

---

(١) شخصيات عراقية للاستاذ خيري العمري .

ابو القاسم الشابي ثورة وشاعر

الثورة :

الثورة حركة وشباب وتحرر وانطلاق وقوة وهي دعامة قويـة راسخة من دعائم الانسانية تلذ للثائرين فيها الاتعاب والاهوال ويرون في المكابدة في سبيلها نشوة تدفعهم الى العمل ولذة المواصلة والسهر عليها لأنهم يبنون بناء جديداً بدل قديم بالٍ متهدم والحياة قوة وثورة في جميع جنباتها الاصلاحية ولن يكون اصلاح إلا بالثورة على القيود القديمة التي تشل حركة التوثب والتحرر وكلما انتشرت الثورة بين ابناء الشعب وكثر اعتناق آرائها ومبادئها في أذهان الثائرين والقادة كلما أدت الثورة رسالتها في البناء لأن الشعب بكثرته خـير سند لكل ثورة

وتعتمد الثورة على القادة والمفكرين الذين تشربت روح الثورة وأهدافها فى قلوبهم وثقافتهم المدفاع عن ابناء الشعب ضد الظلم والطغيان والعبودية ويزيدها اشتعالاً الايمان العميق بها وبنتائجها ولولا الثورة لما تحرر شعب على وجه الارض فهذه فرنسة قضت على الباستيل وقضت على النظام الملـكي الفاسد في ثورتهـا وهذه روسيا قضت في ثورتها على استبداد القياصرة وتحكمهم فى رقاب « الرعية » ولولا الثورة لما تحررت الصين ولولاها ما استهان ابطال الجزائر ومراكش وتونس بالموت ورضي الشهداء بالموت والتعذيب ولولا الثورة لمـا انتشر الدين الاسلامي .

واعداء الثورة في كل زمان ومكان معروفون لا يمكن ان تتخطاهم العين ولا يحتاج الانسان الى أن يحدس ليعرفهم . وأول هؤلاء الأعداء الاستعمار الضاري

والاقطاع الشره والحكم المطلق الأعمى ، ثالوث يتآمر على حرية الشعوب فى كل زمان وفي كل مكان وحوله جماعة من الاذناب يتآمرون معهم على سلامة الشعب والوطن ، ولهذه الجماعة فضل آخر فضل ايقاظ الشعوب من رقدتها مطالبة بالحرية والاستقلال . وبعد الثورة يخرج « الرعاع » مواطنين ولن تكون حياتهم منحة الحاكم المستبد ويكون المواطنون هم المسيطرين على مصائرهم ولن يكون للاقلية حكم عليهم .

أدب الثورة :

وأدب الثورة أدب الواقع الذي لا يزيفه الملوك ولا يشوبه الأمراء ولا تنمقه وتختار كلماته شعراؤهم انه أدب السهولة واليسر والوضوح الأدب الذي يشرح لهم مشكلاتهم ويجنبهم ما يحيق بهم من مؤامرات على حريتهم واستقلالهم ويفتح عين الشعب على كل دساس ظالم وطاغ ومستعمر انه ادب الكرامة والانسانية انه أدب الحيــاة ، وللادب فضل كبير على الأمم فهو الذي يخلق الثورات ، والثورات تغير وجه التاريخ فهو خالق التاريخ فقد خلق الأدب في فرنسة تاريخاً جديداً هو تاريخ الثورة الفرنسية وخلق للصين الشعبية تاريخاً مجيداً هو تاريخها الحديث وأعد الأذهان العربية للثورة .

وناضل الأدب ثائراً في مصر وسورية وتونس والجزائر وعمان والبحرين فالأدب خالق الثورة وصانع التاريخ ولنرى مدى هذا الأدب فى تاريخ تونس الشقيقة .

فرنسا وتونس :

اكتسحت فرنسا تونس عام ١٨٨١ . (١) فاحتلتها بعد حرب ضروس

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٧٧ وما بعدها وهذه تونس ص ٢٦ .

ولكنها خلقت في نفوس ابناء تونس روح التحدي والنضال ، روحاً بقيت ثائرة فى سبيل استعادة كرامتها ، روح شعب يريد أن يعيش حراً مستقلا ، فحارب قوى الاستعمار الضاربة الفتاكة بصبر وجلد لأن المستعمر جاء مستغلا لا صديقاً فقد « تناول نواحي من حياة البلاد فهدم معالمها وسد منابعها ، وتناول نواحي أخرى فغير أوجهها وحول مجاريها (١) اذ كان اكتساح الاستعمار الفرنسي للحياة العربية مرعباً شمل البلاد كلها وتدخل فى كل شيء وشمل حياة تونس جميعها ، اثر في اللباس والنظام والآلات والمصلحات والمصنوعات والاطباء والمهندسين والصيادلة والقضاء (٢) استولى على كل شيء وأخذ يستجلب ابناءه مهاجرين يزاحمون أهل الوطن فى حياتهم ورزقهم ويسومونهم سوء العذاب

كان الاستعمار الفرنسي يريد أن يقضي على مقومات الشخصية العربية والنزعة الاسلامية والفكرة الانسانية ، كان يحارب الثقافة والعلم والحرية الفكرية كيلا تثور عليه الجماهير العربية المسلحة وتطالب بحقها في هذه الحياة ، وقد ساعد الاستعمار البيئة الاقطاعية في تونس وأعوان الاستعمار ، فعاشت تونس تحت وطأة ارهاب استعماري دكتاتوري رهيب فقد كانت « السياسة الفرنسية المتبعة هي مصادرة الحريات العامة ، سواءاً في الأجواء أو القول أو التنقل (٣) .. » .

فقد قضت فرنسة على كل الانظمة الدستورية التي كانت تصدر عدا جريدة

---

(١) الحركة الأدبية في تونس ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٨ .

(٣) هذه تونس ص ٧٥ .

واحدة (١) وكانت تزيد فى القوانين الاستثنائية حتى خشي التونسي أن يتحدث في بيته بل انها خولت المقيم الفرنسي اعتقال أي شخص دون محاكمة وفي الوقت نفسه اطلقت حرية الصحافة الفرنسية (٢) وكتمت أنفاس الشعب التونسي ومنعت عنه حتى حق التعبير عن رغباته وحرية الاجتماع فكانت تجمع في صعيد واحد ديموقراطية لابنائها ودكتاتورية للعرب (٣) .

وقف أبناء الشعب من هذا الاستعمار موقفين : وقف قسم منهم ذاهل النفس مجروح الكرامة فقد اقتنع بقوة المستعمر وبتفوقه في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية وكان هذا القسم ضعيف الشخصية حائراً يشعر بالنقص فأراد أن يعوض عن شعوره هذا ، فاتجه للفرنسيين يستفيد من زائل الجاه وضائع المال درس لغتهم وتملقهم وسار في ركابهم - وقد حدث مثل هذا في العراق ابان احتلاله من قبل الانكليز - ، وكان مع السائرين مع السلطة المحتلة الشاعر الزهاوي ونشأت طبقة جديدة ساندت المستعمر وآزرته فكانت حرباً على أبناء وطنها (٤) زادت فى النفس اشتعالاً وانتقاداً فاتجه العرب الى تراثهم القديم يستمدون منه العون لتقويم هذه الشخصية العربية الهزيلة وقد كان

---

(١) هذه تونس ص ٧٥ .

(٢) هذه تونس ص ٧٦ .

(٣) لم يستسلم الشعب التونسي وقاوم الاحتلال الفرنسي بالسلاح بثورة عارمة انتشرت في ارجاء الوطن ولم يسكن أو يسكت انما بقى هذا الشعب الابي يكافح خلال ستين سنة كفاح الابطال المغاوير وضرب مثلا رائعاً فى التضحية وانكار الذات ولم تقدر فرنسا بكل ما امتلكت من وسائل الارهاب والاضطهاد أن تقمع هذه الحركات ، ومتى قدر حاكم على القضاء على مشاعل الحرية وموقديها ؟ - « هذه تونس ص ٣٠ . الفصل الثاني عشر ص ٨٣ »

(٤) الحركة الادبية ص ٤٨ .

على رأس هؤلاء البشير صفر الذي ايقظ القومية في نفوس ابناء تونس واتخذها سبيلا لايقاظ الشعب للسير في ركب الحضارة المتحررة فكان هذا هو القسم الثاني المدافع عن كيان الشعب وقوميته واستقلاله ومنه نشأت طبقة الاحرار المناضلين.

وقد ساعد في هذا النضال ما كانت تتمتع به تونس قبل الاستعمار الفرنسي(١) من استقلال وعما كان لها من صلات باوربا فقد كانت فيها نهضة فكرية وأدبية خاصة في عهد الوزير خير الدين (٢) من انشاء المدرسة الصادقية (٣) وتنظيم التعليم في جامع الزيتونة وتأسيس المكتبة العبدلية وتشجيع الصحافة والطباعة ساعدت هذه الاعمال في تطوير حياة الفكر وصدرت جريدة الرائد وا كثرت من نشر الكتب العربية.

وقد كان لجامع الزيتونة والمدرسة الصادقية بعوث في اوروبا للدراسة وكان لهذه البعثة فعالية كبيرة عند عودتها الى الحياة التونسية والادب التونسي (٤).

اذن فقد كانت بلداً يختلف عن غيره من البلاد وليست جماعة من الجاهلين المتوحشين كما ادعت الحكومة الفرنسية (٥) تتفاعل مع التيارات العالمية والاتجاهات الفكرية الداخلية.

---

(١) خلاصة تاريخ تونس ص ١٦٦ ، ١٦٧.

(٢) لاحظ خلاصة تاريخ تونس ص ١٧٦ بشأن اصلاحاته وما بعدها.

(٣) أول من ادخل الطباعة الى تونس محمد باي الثاني. خلاصة تاريخ تونس ص ١٧ وكان قد استعمل قبل ذلك الطباعة الحجرية. وأول من أدخلها الى العراق مدحة باشا دخل بغداد سنة ١٨٦٩. لاحظ لونكريك كتابه أربعة قرون وخلاصة تاريخ تونس ص ١٧٤.

(٤) الحركة الأدبية في تونس ص ٢٩ ، ٤٥ ، ٢٣ ، ٢٧ في شأن حركة خير الدين الاصلاحية

(٥) اجتمع سالسبوري بوادنجتون في أروقة مؤتمر برلين سنة ١٨٨٧ وقال له « انكم لا تستطيعون أن تتركوا تونس بين ايدي البرابرة » راجع (تونس وفرنسه) ص ٦٩.

وعندما احتلت فرنسا تونس اعتبرتها وطناً لها ونظروا الى التونسيين من عل نظرة السيد للعبد وغدا كل شيء عربي أو اسلامي حقير فسخروا من تقاليدهم ومن دينهم ومن لغتهم ، ومما زاد آلام الشعب تلك الحركة الفتاكة بالشعب حركة تجنيس القطر العربي بأن سهلت الخروج من الجنسية التونسية واعطاء تسهيلات كبيرة للتونسيين لكسب الجنسية الفرنسية واعطت الحق للاجانب المقيمين فى تونس في الحصول على الجنسية الفرنسية واخراج الاجانب الذين ولد اجدادهم فى تونس من الجنسية التونسية والحاقهم بالجنسية الفرنسية الى آخر ذلك من الوسائل الجهنمية للاكثار من الجالية الفرنسية وتعزيز العنصر الفرنسي (١) .

ابو القاسم الشابي :

في هذا الجو الخانق المكفهر المتوثب نشأ الشابي وفى النفوس ثورة وفي القلوب غصة وكانت هذه الثورة في قلب كل ابي فقد قضى الشابي عشرين سنة يتنقل مع والده القاضي من بلد الى بلد وتعرف مباشرة على مشكلات هذا الشعب في مختلف طبقاته ، وكان والده قاضياً ينشد الحق فيأخذه من الظالمين ، وكان الشابي يحتك بالزارع والتاجر والمحامي والمثقف والاديب وغيرهم وكان يرى والده يحكم بين هؤلاء ويرد الحق للمظلومين . كان ينظر للناس نظرة متساوية نظرة القاضي ، فنمت الانسانية في قلب الشاعر ولم يعد يرى فرقاً بين انسان وانسان ، الكل متساوون في الحقوق والواجبات ، والكل لهم نفس المشاعر والاحاسيس والكل يتألمون ويفرحون ، يؤلمهم الظلم والجور وما أشد الظلم واعمق

---

(١) هذه تونس ص ٧٩ وما بعدها . وللكاتب تعليق على الشابي نشر في جريدة اليقظة للاستاذ سلمان الصفواني نشر فى ١٦ ــ ١٠ ــ ١٩٥٦ .

أثره في النفوس الحساسة ، نشأ الشابي على حب الحق وتقديس الحق و كان والده يقوي هذا الحب فى نفسه بما يوصيه به فقد قال له : « ان الحق خير ما فى هذا العالم وأقدس ما فى الوجود » (١) ولـكنه يلتفت فيلقى هذا الحق يئن جريحاً مما يصبه عليه المستعمرون في وطنه . كانت عوامل نفسية جامحة مضطربة في نفس هذا الشاب الذي رأى والده يعطي الحق لابناء الشعب فرادى وينتصف من قويهم للضعيف ومن ظالمهم للمظلوم ولـكنه لم يكن بقادر على أن ينصف هـذا الوطن وهذا الشعب من العالم المتجبر - من الاستعمار - ، كان شاعراً بطبعه فوجد الشعر الذي بين يديه شعراً تقليدياً لا يشفي غلة ولا ينقع اواما ولم يجد في شعر تونس ما يعبر به عن خلجات نفسه فيتبرم به قائلا : « وها نحن تشتاق قلوبنا الشعر الصادق الحي فلا نظفر به إلا في دواوين معلومة للشعراء الأقدمين وها نحن أولاء تتوقد نفوسنا الى الشعر الوطني الحماسي فنستعيره من شعراء الشرق الذين خاضوا بحره وصارعوا موجه المتلاطم حين رماهم القدر بالنكبات والارزاء وساق اليهم عادي الدهـر الاحداث الهائلة والخطوب الجسام فقاوموا المحتلين وتغنوا بالحرية وحلموا بالوحدة العربية .. » (٢) .

كانت الظروف تستعد كلهـا لشهرة ابي القاسم الشابي ، والظروف طالما خدمت الادباء والشعراء فى الشهرة ، وليس الشابي بأشعر شعراء تونس ولا باعلم علماء تونس ، ولـكن حالفه الحظ فى هـذه الشهرة ولم يحالف الحظ أخواناً له يفوقون الشابي شعراً وعلماً وفضلا . وشهرة الشابي لا تتناسب وشاعريته فقـد

---

(١) اغاني الحياة ص ٩ .

(٢) الشابي وجبران ص ٢٦ .

دوت هـذه الشهرة في كل مكان وخدمته الظروف خدمة صادقة ، فكم من شاعر أشعر من الشابي وأصدق عاطفة ولا يقل عنه وطنية واخلاصاً في بلاد العرب لم يصل الى ما وصل اليه الشابي ، ولعل تفرده في تونس كان مثار اعجاب ، فنحن لا نعرف عن تونس شيئاً ، ولما سمعنا بشاعر تونس ينظم هـذا الشعر الجميل العاطفي الرقيق أدهشنا هذا الصوت وأعجبنا به ولا شك في أن هناك من الشعراء في غير تونس من البلاد العربية من يبز الشابي ويبرز على سواه في الجزائر أو المغرب أو عدن ولـكن لم يتح له ما اتيح للشابي . ويتجلى هذا الاعجاب في كثرة ما كتب عن الشابي من مقالات وكتب ، فقد كتب (١) عنه اكثر مما كتب عن الزهاوي والجواهري وعن الرصافي نفسـه ، مع ان الشابي لا يكون تلميذاً في مدرستهم الشعرية .

شهرة الشابي :

ساعدت الظروف العامة على شهرة الشابي ولست بمنتقص من قيمة الشابي ولـكن أقول ان شهرة الشابي الواسعة لا يسندها شعره المنشور في « اغاني الحياة »

---

(١) اسماء بعض الكتب التي الفت عنه :

١ ـ ابو القاسم الشابي : حياته وأدبه ، زين الدين السنوسي ٢ ـ شاعران معاصران ، عمر فروخ ٣ ـ ابو القاسم الشابي شاعر الحرية ، طه باقي سرور ٤ ـ الشابي وجبران ، محمد خليفة التليسي ٥ ـ مع الشابي ، محمد الحليوي ٦ ـ كفاح الشابي ، ابو القاسم كرو ٧ ـ ابو القاسم حياته وشعره ، ابو القاسم كرو ٨ ـ ابو القاسم الشابي والشابي والحياة ، محمد الشعبوبي . لاحظ عكاظية تونس ص ٥٤ . ٩ ـ الشابي شاعر الحب والجمال ، الدكتور عمر فروخ   نشر الاستاذ ابو القاسم كرو « آثار الشابي وصداه في الشرق » بعد كتابـة هذا المقال جمع فيه ما كتب عن الشاعر .

ولا مقوماته الفنية . ولم تكن الحالة العامة وحدها عاملا في هذا الأمر ، فقد كانت عوامل حياته الخاصة تدفعه دفعاً ، كعامل الخيبة الذريع الذي حالفه طوال حياته ، الخيبة في أحاسيسه وعواطفه ، وأولها الخيبة في حبه الأول ، فعندما تفتحت ينابيع لبه الشاب تفتح عن فتاة عذبة الطفولة والاحلام وكان كبيراً في قلبه وفي حبه ولكن هذا الحب مات في عمر الزهور وكانت النكبة موجعة ممضة ، فقد ماتت الحبيبة ، ماتت ولم يرها ، ماتت وهو بعيد عنها فحفر هذا الموت أول اخدود في قلبه الطري النابض الحساس وحب الطفولة الحب الاول ، الحب المخلص الصادق البريء ، يترك اللوعة طيلة العمر في القلب . فقد أرسله والده الى جامع الزيتونة للدراسة وبينما هو فى الغربة إذ ماتت فتاته الاولى التي ترك موتها في اللاشعور منه حزناً دفيناً بقي ظاهراً على كل شعره حتى على شعره الذي ظن بأنه يطفح بالسعادة والهناء (١) فقد جمد الموت أحلامه وأمات البسمة من شعره والضحكة من الحانه فكان انغاماً حزينة شجية تطرب الشرقيين الذين يفرحون بألحان الحزن والهموم ، فوجدت مكاناً في القلوب وخاصة ما حاق بهذا الموت من شباب ، ونحن الشرقيين اكثر انسانية من الغرب ويهزنا الشباب ويحزننا موته ، ونحن عاطفيون تطربنا كلمات الاسى على العذارى اللواتي فى فجر العمر اللواتي لم يتمتعن بهذا العمر فلا عجب ان وصف الشابي ليلاه التي أغمض الموت أجفانها ، أغمضها زهرة فواحة طاب أريجها وتضوع شذاها :

---

(١) قال زين الدين السنوسي : انا نعرف ان الشابي قد كان زواجه سعيداً موفقاً ، وبالفعل فإننا نجد للشابي غمرات سعيدة في زواجه . . » ص ٢٩ أبو القاسم الشابي حياته وأدبه .

أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب

كعروسة من غانيات الشعر من شفق السحاب

ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيوم

حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم(١)

هذه الحسناء أبقت الحسرة حية والانين ثائراً واللوعة تتردد طوال حياته فقد مات الفجر ولم تشرق نضرة الحياة بعدها :

آه لقد كانت حياتي فيك حالمة تميد

وتعيش فى كون من الغفلات فتان سعيد

فمضى الردى بسعادتي وقضى على الحب الوليد (٢)

الطفولة فى شعره :

بقي الشابي يحب الطفولة ويتغني بالطفولة ولولا انها لم تمت في الطفولة لما ترددت هذه الكلمة مرات في شعر الشابي . كل ذلك دليل على شدة تعلقه وولعه ومقدار الخيبة في حبه الأول ، فليس هناك شيء أعذب من الطفولة ، وليست هناك حلاوة مثل حلاوتها ، وليست هناك ذكريات أحب اليه من ذكريات الطفولة (٣) فهي كنز الرجولة والشباب وعليها تعتمد شخصية الرجل طوال حياته واتجاهاته وتفكيره ، ومن الطفولة تتكون هذه العقد النفسية فيكون الانسان سمحاً رضياً أو يكون شحيحاً بخيلا . في حركات الانسان

(١) اغانى الحياة ص ٧٠ .

(٢) اغانى الحياة ص ١٠٦ .

(٣) الشابى وجبران ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

ومقدار العناية التي يعنى بها أو الاهمال الذي يهمله تبدو شخصية المرء . وقد يكون الانسان سعيداً برعاية والده ولكن هناك من المنغصات ما تملأ حياته هماً ونكداً . ولا أظن حياة الشابي أو طفولته سعيدة (١) رغم رعاية والديه فان شعره الطافح بالاحزان والآلام خير دليل على ما كانت تعانيه نفسه فقد تكون لوالده آراء أراده أن يشب عليها أو أن له اتجاهاً يريده أن يسير عليه ولابد أن تكون اخلاق ابن القاضي خاصة وان يعيش ويتصرف تصرفات تتسق مع سمعة والده ومركزه وهذا وحده حد يحد الطفولة من الحركة والحرية .

زواجه :

وحادث ثان أثر في حياة الشابي ، حادث زواجه ، وهنا يقف الباحث متسائلا ما الذي دفع بوالد الشاعر الى تزويجه ، أأراد أن ينسيه حبه الأول أو انه أراد أن ينجب له ولداً ؟ نعرف أن والده هو الذي أراد أن يزوجه وكانت رغبة والده في هذا الزواج اكيدة (٢) ولم يكن للشابي مطلب في هذا السبيل ... كان الدافع كريماً باي حال من الاحوال ، دافع والد يريد أن يريح ولده بأن يطفيء غلة الجسد المتعطش ولينسيه آلامه وأوجاعه ويرفه عن قلبه الغارق في همومه ولكن هيهات أن ينسي الزواجُ الحبَّ ، فقد يكون المرء راضياً مرتاحاً

---

(١) يقول الاستاذ محمد خليفة التليسي ان طفولة الشابي كانت سعيدة مغمورة بعطف ورعاية والديه ـ الشابي وجبران ص ١٧٠ .

(٢) حدثنا الاستاذ السنوسي ان الشابي جاءه وعيناه لا تفارق الارض . جئتك لاستشيرك هل أتزوج فقد كان والده يحب أن يتخذه لنسله عرق خلود وبقاء ، فهو بكره ، والشيخ أحرص ما يكون على بقاء جذوره مع أن الشابي كان منكمش الفؤاد يتهيب الزواج بعقله المدرك . ابو القاسم الشابي ص ٢٧ .

لاستجابة جسمه لنداء الطبيعة ولكنه لن يكن سعيداً وقد يكون هادىء الطبع ولكنه سيبقى يتطلع الى الحب والى الحنان ، فالشاعر طفل كبير يريد من يسبغ عليه الحنان ويغمره بالعطف والحب والاحاسيس الفياضة ، يريد أن تتجاوب الحسناء مع قلبه ومشاعر روحه ، فاذا كان هـذا الزواج بلا رغبـة منه أو فرض عليـه فسيبقى معتقداً ان عطف الزوج تصنع تفرضه الواجبات الزوجية وحنانهـا تكلف تدفعه المصلحة الفرديـة لذلك كانت زوجه ترعاه عندما يحلق في خياله وينصرف واجماً شارد اللب حائر القلب ، قال عنها :

راعها منه صمته ووجومه وشـجاها شحوبـه وسهومه

فهي تريد أن تعيده الى دنيا الواقع ، فلا يسرها أن ترى زوجهـا غريق الهموم ، وقد تظن انه بعيد عنها يفكر فى التي ماتت فتقول له :

أبداً يحمل الوجود بما فيـه كأن ليس للوجـود زعيمه (١)

انا لا اشك في أن هذا الزواج كان زواجاً مخفقاً عاناه شاعرنا بقلبه الـكبير وروحه الرضية فقد كان زواجاً مفروضاً عليه هـدأ من نداء الجسد ولكن أنى له أن يصل الى خفقات القلب وومضات الروح ؟ أنى له أن يصل الى آمال الشاعر وأحلامه ؟ انها خيبة ثانية اصيب بها الشاعر وساعدت على شهرته وبعد صيته .

موت والده :

اما الامر الثالث الذي اصيب به الشاعر فقد كان موت والده الذي اعاقه عن التمتع بالحياة والاغتراف من حريتها وطلاقتها ، انـه شاب قوي الرغبات ، ثائر الاماني خائب فى حبه وزواجه يريد أن يعوض عما فاته يريد أن يمتع نفسه

---

(١) اغاني الحياة ص١٤٤ وقد صدرت طبعة جديدة منه سنة١٩٦٦ طبع الدار التونسية للنشر .

الحيرى الظامئة يريد أن يجد سلوى عن فتاته يريد أن يحيا حياة شاعر غير مسؤول . حياة اللذة والمتعة واللاأبالية حياة الشاب العنيفة المغامرة الجريئة ، يأكل متى يريد أن يأكل ويشرب متى أراد أن يشرب لكن موت والده الذي ترك وراءه اسرة وقع عبء إعاشتها على الشابي حالت دون ذلك فلن يتنعم بلذة طعام وشراب ووراءه حنان ام واخوان وزوجة تصده عما يريد وتفرض عليه العمل الدائم الدائب ومجاراة من لا يستحق المجاراة ، قال شاعرنا من قصيدة له :

وأود أن أحيا لبكرة شاعر
فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
إلا اذا قطعت أسبابي مع الدنيا
وعشت لوحدتي وظلامي
لكنني لا أستطيع، فإن لي
أمّاً، يصد حنانها أوهامي
وصغار إخوان يرون سلامهم
فى الكائنات معلقاً بسلامي

انه الشعور بالمسؤولية العميقة القائمة على العواطف الكريمة الخالصة هو شعور الاخ الكبير الحاني الذي يذوب في سبيل اخوانه الصغار يحرص عليهم اكثر من حرصه على حياته فيضحي فى سبيلهم بكل شيء ، ولكن لا يقدر على اسعادهم واسعاد روحه لما تريد ، فيثور على الدنيا ويصرخ قائلا :

الويل للدنيا التي في شرعها فأس الطعام كريشة الرسام (١)

---

١ . اغاني الحياة ص ١١٥ .

حاقت بروح الشابي الهموم من كل ناحية ولكنه لم يكن بقادر على ابعادها عن روحه بغير الثورة في الشعر وطالما خففت ثورة الشاعر عن قلبه بعض الآلام فاذا ما نظم ثائراً واذا ما انتهى من تفريغ ما في روحه دفقات في شعره يحس بالسعادة وكأنه القى عن صدره ثقلا. فالشعر والكتابة خير متنفس للحزين الباكي والثائر العارم سيتحول بعد ذلك الى الصفو والهدوء ، وكلما كان المصاب كبيراً كلما كانت الثورة عنيفة . كان مصاب الشابي متأتياً من الموت الذي أفقده حبيبته ووالده ، فهل له من القدرة على صد هذا المصاب انه أقوى من أي شيء في هذه الحيـــاة ، انـه الشيء المجهول القوي الذي لا يقدر عليه ، ووراء الموت الاله العظيم .

كانت هناك قوى تصده أن يطلق نفسه على سجيتها وان يعيش كما يريـد ومن هموم الشعراء انهم يريدون أن تـكون الحياة مفصلة كما يتخيلون وان تكون وفق ما يشتهون ومن هموم الشعراء انهم لا يأخذون الحياة كما هي في واقعها ويتصرفون وفق الحياة وقواها ومن هنا تأتي الثورة في نفوسهم . فهو أراد شيئاً في خياله ونما في ذهنه وظن انه سوف يلاقيه وسوف يحصل عليه ولكنه اصطدم بالواقع مراً بالنسبة اليه فقد وقف حائلا امام الشاعر الحساس . والمصائب تتأتى على الناس جميعاً ويتأثر بها الناس جميعاً ولـكن وقعها يكون أعمق أثراً وأشد ألماً في نفوسهم لما امتازوا به من رهافة الحس ورقة الشعور والاحاسيس .

ثورة الشاعر :

ثار الشاعر الشابي ولـكن لم تجده ثورته وتأثرت نفسه ولكن لم يفده ذلك

فتيلا فهو لا يقدر أن يطاول من أنزل به هـذا المصاب ، انه الله الذي يخشاه ويرتعب ان سمع عنه ما يمسه من قريب أو بعيد ، ان ابن القاضي والمتربي تربية دينية ، لابد أن يجد الشاعر متنفساً يرد به عن قلبه آلامه وان يخفف من هـذه الانفاس الحرى المصعدة ، ومتى ثار الانسان لابد أن يبحث له عن مكان يفرغ فيه هذه الثورة فقد يجد فى المجتمع أو فى الشعب أو يجده في نفسه ، وقد وجده الشابي في المستعمر الجاثم على صدر تونس . فثار عليه ثورة عارمة ، فكان شعره السياسي خير معبر عن ثورة الشعب ، ان المستعمر لا يخرج بابيات من الشعر أو قصائد ينظمها الشعراء ، انما باعداد آراء الشعب وتوجيهه توجيهاً صحيحاً واعداده للثورة ، وشأن الشعراء هو اعداد هذا الرأي العام الموحد ضد المستعمر وضد الاستعمار وكان الاستعمار يفتك في الشعب وتزداد ثورة الشعب عليه وتزداد ثورة الشابي معه .

والشابي مؤمن بقوى شعب مؤمن ايماناً عميقاً في تاريخه الطويل الحافل خير سند وفي الأقطار العربية المناضلة الف دليل على انهم يأبون الضيم والجور ولا يستسلمون لمحتل أو مستعمر ، وكان الشابي يشعر بأن له رسالة (١) في هذه

---

(١) يرى الدكتور فروخ ان الشابي يحمل معول الهدم فى تشاؤمه ونقمته وليست له رسالة فيقول : « والشابي شاعر ناقم يزعم أنه يريد أن يؤدي رسالة ولكنه فى الحقيقة يحمل معولا ليهدم به كل شيء في الحياة والناس والبلاد والوطن والامة ... وان اداء الرسالة يقتضي اتجاهاً واضحاً وثباتاً على مبدأ واحد ... شاعران معاصران ص ١٦٩ .

وأرى أن النقمة والتشاؤم في طور الاحتلال ضرورية للشعب حتى يسترد استقلاله وحريته ، فالشعب الناقم هو الشعب الثائر الذي يحس بأنه مغبون وبأنه مظلوم ، وحتى يشعر الشعب بالظلم والغبن ثار وانتفض على الظالم والمستعمر ، والتشاؤم هو خوف من مستقبل سيء ومن حياة ذليلة أو من واقع مظلم مرير ، وهذه صفة كريمة للشعب فانها تحفزه نحو حياة أرغد =

الحياة ، رسالة كل فرد من أفراد الشعب ، رسالة كل متحرر فكانت الثورة النفسية تؤلمه ، فهو يرى الفرنسيين يتمتعون بالخير ويترك سواه لشعبه .

وكانت ثورته على المستعمر تكتسح معهـــا التقاليد المتحجرة وصور الشعر التقليدية الميتة ، وجد الناس يعيشون على رمم القدامى وكان يريد أن يسير مع الانســانية حيث النور والحقيقة ، حيث التجديد والتطور فكان لذلك حرباً على الرجعية التي تريد أن تجمد القوى الانسانية المتحررة التي تتدفق حارة. وثار على الشعب الذي لا يحارب المستعمر ويرى الشعوب كلهـــا تطالب بالحرية والكرامة ، وشعبه لا يطالب ويعيش في سبات فيقول :

ان يم الحياة يدوي حواليـ ـــك فأين المغامر المقــدام
أين عزم الحياة ؟ لا شيء إلا الموت والصمت والاسى والظلام
عمــر ميت وقلب خــواء ودم لا تثـيره الآلام
وحياة تنام في ظلمة الوادي وتنمو من فوقهـا الأوهـام

ويزداد سخطه فيستعير من المتنبي شطراً فيقول :

أي عيش هـــذا وأي حيـاة «رب عيش أخف منه الحمام»(١)

= ومستقبل افضل ، وكيف يكون الشعب هانئاً سعيداً وهو يئن تحت وطـأة الاستعمار والذل وكأني بأستاذنا فروخ نسي حاجة الشعوب الى الكفاح ونسي ما جره الاستعمار على البــلاد العربية من ويلات ، والشعر صادق لاحاسيسها ، وما الشابي إلا المصور الماهر الذي عكس روح النقمة والتشاؤم التي كانت تسود ، ولا تزال تسود في البلاد العربية . أما الرسالة فقــد كان يحمل رسالة هي محاربة الاستعمار وان لم تكن لها حدودها المرسومة وليست الاعمال بما ترسمها لها من حدود وانما بما يصنعه الانسان وما يتركه من آثار .

(١) اغاني الحياة ص ١٧٥ .

ان النقمة والتشاؤم والثورة على الشعب تستحيل عنده الى يأس ، فيدفعه هذا اليأس الى مهاجمة الشعب الذي لا يقدم من التضحيات والنضال ما يراه جديراً به وليس هناك أبلغ من هذا اليأس من قوله :

يا إلهي .. أما تحس أما تشدو أما تشتكي أما تتكلم

مل نهر الزمان أيامك الموتى وأنقاض عمرك المتهدم

ويخاطب الاستعمار :

ألا أيها الظالم المستبد حبيب الظلام عدو الحياه

سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه

وقال من القصيدة نفسها :

سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل(١)

خاتمة :

هذا هو الشابي الذي اكتسب شهرة اكثر مما يستحق ساعده على ذلك عدم وجود ذكر لشعراء تونس فى الشرق العربي وما حفت حياته من مآسي وزاد في هذه الشهرة ما كتب عنه لانه يمثل الشعر العربي في شمالي افريقيا العربي ولو نخلنا ديوانه لما وقف على قدميه مع أي شاعر من شعراء الدرجة الثانية فى البلاد العربية كالعراق وسورية ومصر . ولكنه اشتهر لاننا سمعنا به فى المشرق العربي ولأنه وجد من يعني به العناية الكافية .

(١) اغاني الحياة ص ١٨٥ مصر ١٩٥٥ .

رأي في ثورة الرصافي

الرصافي والوطن :

رحم الله الرصافي ، فقد كان انساناً تضنيه مصائب الانسانية ، وتؤلمه آلمها كان يحس احساساً عميقاً صادقا بأن حال قومه لن تستقر ، ولا بد أن تفضي الى ثورة تقضي على كيان النظام القائم ، ولكنه لم يكن يقدر على تعيين زمن الثورة التي يتوقعها .

كان يرى ان نظام الحكم سائر في غير مصالح الاكثرية ، وكان الرصافي يرى الشعب يعذّب من جراء الجوع والمسغبة ، وهو مسلم يقتضيه الدين الاسلامي وجوب مساعدة هذا الشعب ، ويرى جماعة ترقص مع كل حاكم ، وتعطر الجو لكل أمير ، وتهرج لكل قادم ، من غير أن تهتم إلا بمصالحها الذاتية ، فكان ناقماً متبرماً ، شديد النقمة عميق الشكوى .

والرصافي على ما كان عليه من نكد الحظ وسوء الحال ، لم يهاجم أبناء وطنه بل كان هجاؤه ينصب على الاجنبي « أصهب العثنون » ، فقد كانت روحه السمحة الأبية ، ترى جفوة وطنه له ، شيئاً جميلا يقدمه له الوطن ، كما يتأول العاشقون أحياناً جفوة أحبائهم ، فقال قولة المتصوف :

إن جفتنا أوطاننا فهي حِبٌّ ومن الحبّ يُستلذُّ الجفاءُ
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا بل لها الود عندنا والوفاء

قد بكينا شجواً عليها ومنها ... وعنانا سقامها والشقاء
كم أردنا سخطاً عليها ولكن ... غلب السخط في القلوب الرضاءُ
انما هذه المواطن أمٌّ ... مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء ... ومن الأم هل يُراد الجزاء (١)

وحب الانسان، هو الذي يفرض عليه أن يغضي عن سيئات أبناء شعبه لأنه يرى نفسه جزءاً من هذا الشعب، فما عليه إلا أن يكون صريحاً في قوله، جريئاً فى معالجة مشكلاته، وقد كان الرصافي صريحاً وواضحاً، وقد وصفه صديقه الأستاذ مصطفى علي بقوله «... كان فى الصراحة فى القول والوضوح فى الشخصية والصفاء في النفس والسمو في المقاصد بحيث يأبى أن يضرب بينه وبين الناس حجاباً من الرياء، ويأنف من أن يخيط عليه ثوباً من النفاق ..» (٢)

وقد كان شعره مثلا واضحاً في ذلك، وهو على الشقاء الذي حاق به، لتجاهل الوطن لحقه، نراه يترنم وقد دهمت الوطن المصيبة بعد ثورة ١٩٤١ قائلا:

وطن عشت فيه غير سعيد ... عيش حرٍّ يأبى على الدهر عوجه
أتمنى له السعادة لكن ... ليس لي فيه ناقة منتوجه
أخصب الله أرضه ولو اني ... لست أرعى رياضه ومروجه
كل يوم بعزّه أتغنّى ... جاعلاً ذكر عزه أهزوجه
ما حياة الانسان بالذل إلا ... مرة عند حسوها ممجوجه(٣)

(١) ديوان الرصافي ص ٣٣٩ .
(٢) «الرصافي» تأليف الاستاذ مصطفى علي ص ٨ .
(٣) ديوان الرصافي ص ٤٦٨ .

أجل عاش معروف غير سعيد ، لما أصابه وأصاب وطنه من فقر وحرمان واستعمار وسيطرة أجنبية وتمزق بين ابنائه وتطاحن دائم ، والرصافي انما يتعلق بوطنه ، ويظل في كنفه ، ليتهيأ له التحرر ، ولتنتشر فيه حرية الفكر فقال :

وما حبها إلا لأجل تحرر — يكون الى العلياء بالناس منجرا

وما حسنها إلا بأن سماءها — تضاحك من أحرارها أنجماً زهرا

اذا كان في الاوطان للناس غاية — لحرية الافكار غايتها الكبرى(١)

صبر الرصافي :

وقد رضي الرصافي بالعيش في وطنه ، رغم احساسه بسوء حياته ونكده فيه ، لأنه يحب الوطن ، ولا يرى سواه بديلا ، وقد ساعد الرصافي على ثباته في ذلك أمور منها :

انه كان يعيش فرداً وغير مسئول عن أسرة يخشى عليها الأذى ، أو اطفال يخاف أن يهيض جناحهم العوز والفاقة ، وهذا يذكرنا بالجواهري ، فانه اضطر الى مهادنة السلطة بعد أن أثقلت أسرته كاهله .

وعندما احتاج الرصافي فى أواخر أيامه ، وجد بين الطيبين من أمده بالمال والطعام ، وكانوا يقيلون عثرته المالية ثم ان الرصافى لم يسجن ولم يُعتد عليه طوال حياته بل لقى خير ما لاقاه شاعر معارض في زمانه .

الادارة والرصافي :

أما انه لم يُنط به أي عمل حكومي مرموق فان للعمل الحكومي صفات ، منها

(١) ديوان الرصافي ص ٥١

المحافظة على الآداب العامة ، ولم يكن الرصافي يحافظ عليها ، فانه اشتهر بالشذوذ الجنسي، وكان يسكن بين العاهرات من غير أن يبالي . وقد حدثني المرحوم خيري الهنداوي عن استهتاره بأشياء كثيرة ، لا تتفق والعمل الحكومي ومظهره الرسمي.

الرصافي والانكليز :

ولعل الانكليز كانوا يريدونه أن ينضم الى صفوفهم وقد علموا معارضته وقصائده ولعلهم أرادوا أن يعينهم الرصافي في حكم العراق وخاصة ان النقيب كان يزمع أن يرشح نفسه للحكم ورشح الرصافي لاصدار جريدة تسانده فقد قالت جريدة العراق « عاد من القاهرة عن طريق البصرة السيد بركسي كوكس ومعه بعض رجال السياسة ... وحضرة الشاعر الكبير معروف افندي الرصافي ... » غير أن الخطط التي خططها جماعة من الانكليز في اسناد طالب النقيب لم تنجح ونجحت ملكية العراق .

وتاريخ الرصافي يظهر مقاطعة الانكليز مقاطعة بائنة غير انني وجدته يصدر جريدة الأمل والغريب انها كانت تقف مع الانكليز وتمتدح الاحتلال البريطاني وتهاجم من يهاجم احتلال العراق فقد نشرت في صفحتها الأولى :

« اننا لا نستطيع القول استناداً الى الحق المجرد والعقل المنزه عن الهوى ان الجنرال مود لم يرفع بفتح بغداد شأن امته فحسب بل خدم القضية العربية أعظم خدمة ... » (١)

« وكثير من قصار النظر يعدون يوم فتح بغداد يوم حداد ومصيبة وهو صحيح لو بدل هذا الفتح استعبادنا القديم باستعباد جديد ونقلنا من الحكم التركي الى الحكم الاستعماري ولكن الأيام اثبتت عكس هذه الأوهام فانه

(١) العدد ٥٦ الصادر في السادس من كانون الاول ١٩٢٣ .

لم تمض أعوام قليلة إلا وتسلم أهل البلاد زمام امورهم وأصبحوا سادة أنفسهم وتمتعوا بحكم عربي هلكت أجيال عديدة في حسرته وجميع الدلائل متوافـــرة متظافرة على أن هذه البلاد سائرة بخطى واسعة نحو الامام كلما أحسنا التفاهم مع حلفائنا وتجملنا بالدهاء والكياسة وليس على من ينكر فضل الجنرال مود على العراق إلا أن يجيب على هذا السؤال :

ماذا يحل بالقضية العربية لو بقيت بغداد على ما كانت عليه فى العهد السابق ؟

وفي العدد نفسه نجد خطاب المعتمد السامي الذي يقول عن قـدوم مود الى العراق بأنه مثل قدوم اسكندر الا كبر وتراجان وخلفاء النبي وهولاكو أثراً وجلالاً ... !!

فهل كانت هذه المقالات هي الاسباب التي دعت الى تعيينه مفتشاً للغةالعربية سنة ١٩٢٤ ؟ وهل نشرت المقالات دون علم الرصافي ؟ إذن ما كان موقف الرصافي من نشرها ؟ ومن نشرها ؟ ومن المسؤول عنها إذا لم يكن صاحب الجريدة مسؤولاً ؟! ولو كان غير الرصافي صاحب الجريدة لكان له عذر فالرصافي بشخصيته القوية وبوقاره المعروف وبكلمته المسيطرة تدل دلالة واضحة على انه مسؤول عن كل ما صدر فى الجريدة ، ولكن هذا لم ينله ما أراد إلا عملا لم يكن يتسق وآمال الرصافي ورغباته الكبيرة فى الحكم فكانت ثورة جديدة على المستعمر فلو ان الرصافى استوزر كما استوزر غيره أكان يهاجم الانكليز (١) ؟ أم يسير في ركابهم ..

---

(١) أصدقاء الرصافى مسؤولون عن كثير مما لا يعرف المعاصرون للرصافي وعليهم تبعة توضيح كثير مما نجهل .

بقي الرصافي بعيداً عن كرسي الحكم زمناً ولم يكن إلا نائباً في المجلس فهل كان إبعاده عن السيطرة هو السبب المباشر لثورته ومعاداته للانكليز ؟

اشتهر الرصافي بمعارضته الواضحة وبالتهكم على الوزراء والدولة وكيانها وتهكم على المظاهر الكاذبة وهو يعلم جيداً ان الانكليز يحكمون العراق وليس أبناء وطنه فهل عافت نفسه كرسي الحكم لأنه وجده كاذباً والفى السيطرة الفعلية للانكليز . . وهو إنسان يريد الحكم صالحاً ودون تدخل ؟ ورضي أن يكون نائباً وهو يعلم ان النيابة بالتعيين ؟! ان في حياة الرجل غموضاً وتناقضاً وقد يستطيع المعاصرون وخاصة أخوانه ومريدوه أن يوضحوا هذه الأمور ؟

فلسفة الرصافي :

للرصافي فلسفتة الواقعية ، فهو يريد أن تجله السلطة ، مفضلة إياه على غيره ، لمنزلته ، ولشعره ، وهو يكره اولئك المنافقين الذين يعملون فى السر أشياء تخالف مظاهرهم التي يبدونها للناس ، لانهم يتعالون خلقاً تجاه الناس ، حتى اذا خلوا الى شياطينهم تسافل خلقهم . ولم تكن السلطة والسياسة لتقر الرصافي على حاله هذه ، وهو لذلك لم ينل ما قال غيره ، فشن حرباً شعواء على المنافقين ، الذين يلبسون الباطل لباس الحق واعلن كرهه للسياسة والسياسيين فقال :

قد أبت هذه السياسة إلا ... أن تكون الغشاشة الدساسه
وأبت أن تصافح الناس إلا ... بيد من خديعة فراسه
كلما مست الأمور بكفٍ ... لوثتها بما بها من نجاسه(١)

والحق ان طبيعة الحياة العامة في ذلك النظام كانت قائمة على النفاق وتسمية الامور بغير مسمياتها ، فقد كان العراق مستعمراً ولكنه يسمى مستقلا

---

(١) ديوان الرصافي ص ٣١٣ .

أو ملكياً ، وكان الساسة يموهون على الشعب ، ويسخرون منه ، باسم النظام الدستوري تارة ، وبالديمقراطية تارة ، وباسم الحرية والاستقلال آونة اخرى . لذلك سلّط الرصافي لسانه على هؤلاء الساسة ، وقد حاولت السلطة أن تداريه وأن تصطفيه وأن تقربه وأن تغريه بأمور غير الحكم فلم تفلح على حين استفاد غيره من الجاه والمال والسلطان (١) .

الرصافي وفيصل :

وللرصافي رأي في حكم العراق فقد كان صديقاً للنقيب الذي رشح نفسه لرئاسة الحكم جمهوريا كان أم ملكياً وكان طالب النقيب قد استدعاه لما كان وزيراً للداخلية لاصدار جريدة تناصره في هذا الرأي وقد كان الرصافي يأمل أن يكون شيئاً في هذه الدولة وان يكون مسموع الكلمة بما سوف يناله من عمل رسمي بيد ان النقيب ابعد الى هنجام وماتت كل آمال الرصافي التي تمناها .

(١) من تلك الاغراءات تخصيص قطعة أرض له في أبي غريب القريبة من بغداد فقد زودني الاستاذ عبدالمجيد حسيب القيسي نص رسالة متصرفية لواء بغداد المرقمة ١٥١٤٩ والمؤرخة في ٣ ـ ٧ ـ ٩٣٨ وهو : الى الاستاذ السيد معروف الرصافي :

« قررت اللجنة في جلستها المنعقدة في ٢١ ـ ٨ ـ ٩٣٨ تخصيص قطعة أرض في ابي غريب الى الاستاذ معروف الرصافي تبلغ مساحتها الف دونم وذلك بالنظر لمكانة الاستاذ المشار اليه الادبية والاجتماعية ونظراً للخدمة الثمينة التي أداها للعراق ، وقد وقع الرسالة الاستاذ أحمد زكي الخياط رئيساً والسادة أمين خالص وديجبرن وويليامس اعضاء وسكرتير اللجنة يونس عوني . وقد علق الاستاذ القيسي على الرسالة التعليق التالي : « يلاحظ ان هذه الفقرة لم تشمل الا الرصافي فقط حيث وزعت الاراضي كما يلي: ١٧٦٠ دونماً للدوائر الحكومية، الف دونم للرصافي، ١٤٨٥ دونماً للمستحقين من اصحاب المستمسكات وعددهم ٢٢٠ أي بمعدل سبعين لكل فرد وهم من رؤساء العشائر والفلاحين ، واعطي ٢٣٦ الى أصحاب اللزمات » .

وقد زاد الطين بلة حين جاء الملك فيصل الى العراق وكان الرصافي يرى في والده الملك حسين انساناً حارب الدولة العثمانية الاسلامية ولجأ الى الانكليز الذين كان ينظر اليهم نظرة الكافرين .

ويبدو ان هناك دافعين دفعا الشاعر الرصافي الى كراهيـة الملك فيصل ، الاول : اعتقاده بأن العراق يجب أن يكون محكوماً من ابناء العراق ، ومعنى ذلك أن يكون طالب النقيب رئيس الحكم فيه واذا ما جاء طالب النقيب سيعتمد عليه وسيكون للرصافي شأن مرموق فى هذه الدولة ويحق للرصافي أن يطمح أن يكون أحد حكام العراق فقد كان ممثلاً عن العراق فى مجلس المبعوثان وكان عضواً فى جمعية الاتحاد والترقي ووقف معها حتى النفس الاخير . والسبب الثاني اعتقاده ان الانكليز والفرنسيين ما جاءوا إلا لاستعمار البلاد العربيـة وتفريق شملها والقضاء على الاسلام لذلك وجدناه ينظم قصيدته في الثورة العربية التي قام بها الملك حسين :

هي النفوس وان لم تبلغ الحلما	مطبوعة الطبع إن لؤماً وإن كرما
تجري على ما اقتضاه الطبع جامحة	ولن يغير منها قولك الشيما
إن الحديد على ما القينُ يطبعه	عليه في الكور إن سيفا وإن جلما
قد كنت أحسب ان اللؤم أجمعه	على الحسينين في مصر قد انقسما
حتى بدت مخزيات الدهر مشركة	من الحجاز حسيناً ثالثاً بهما
فذان قد أخجل الاهرام بغيهما	وبغي هذاك ابكى البيت والحرما
قالوا الشريف ولو صحت شرافته	لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما
فكيف وهو الذي بانت خيانته	فصرحت عن طباع تجلب النقما

لم تكفه في مجال البغي فتنته   حتى غدا بعدو الله معتصما
اذ راح بالانكليز اليوم ممتنعا   فضاعف الشر فيما جر واجترما

ويظهر بوضوح نزعته الى الوحدة الاسلامية وكل خروج على هذه الوحدة خروج على الدين الاسلامي لذلك رأيناه يهاجم العريسي في الشام لما عقد مؤتمراً في باريس وقد وقف من شهداء عاليه موقفاً سلبياً واضحاً وقد انتهزت الناشئة الجديدة بعد ذلك شعره الذي ذم فيه أبناء الشام وهاجمته بعنف واعتبرته من الموالين للاتراك الاتحاديين وانه وقف موقفا سلبياً من القضايا العربية وقالت انه هاجم العرب وسبهم ولعنهم في أحلك ظروف حياتهم السياسية .. ولكن الرصافي لم يسكت فرد في جريدته الأمل يدافع عن نفسه ويوضح فكرته ويهاجم صاحب الناشئة بعنف ويعلن انه لا يساجله ولن يرد عليه .

ولكن هذا الهجوم لم يبرر مواقفه السابقة من القضايا العربية ، وعندما هاجم أبناء الشام وهاجم الثورة العربية ، لأن فيصل الاول كان ملكاً على العراق ولا إخال الرصافي قادراً على الدفاع عن نفسه وشرح وجهة نظره لأن الفكرة القومية كانت قد انتشرت بين الشعب واعتنقها الناس وكانت تسير مع الفكرة الاسلامية ولم يستطع الرصافي أن يقف امام تيار الرأي العام وامام السلطة فسكت .

وقد بقي كرهه للملك فيصل مستقراً في قلبه لأن الملك فيصل أصبح رئيس الحكومة وأصبح الرصافي كماً مهملاً بالنسبة للسلطة والحكم وذهبت محاولات الكثيرين سدى في الاصلاح بينهما لأن الملك فيصل لم يعطه ما يريد والرصافي يرى من هم أقل منه كفاءة ومقدرة وشعراً قد أصبحوا وزراء فلماذا لا يكون هو وزيراً ..

وقد حاول عبدالمحسن السعدون وكان من اصدقائه الاصلاح بين الملك فيصل والرصافي ، وهو الذي لم يرد طلباً للسعدون ، ولكنه أخفق بل لم يحضر الى حفلة حضر فيها الملك فيصل وكتب الى السعدون يقول :

فتى السعدون قد حاولت صعبا | فلم أر في المليك لي اعتصاما
ولو خاصمت نفس الموت يوماً | واحضرني لزدت له خصاما
وما يخفى عليك أبا علي | مقام لا يخلد لي مقاما
شمخت على الحياة فكيف ارضى | بحال لا تيسر لي المراما
يعز علي يا حر اعتذاري | اليك وقد عصيت أخا هماما
فانك عاذر في الناس حراً | يعاشر في مواطنه الكراما
وأنت اذا هززت به جبالا | لعادت تستجيب لك احتراما
يجور الملك معتدياً وإني | لذو شرف نهضت به غلاما
ألم تر انه في كل أمر | يَسُلُّ علي من حقد حساما
فما ارضى لصدري غير عز | يلوح عليه من خلق وساما

فهو لا يرى في فيصل انساناً يعتصم به لأنه لم ييسر له المرام الذي يطلبه ويريده ، لذلك سَلَّ عليه سيف الهجاء ونظم أبيات من اقذع أبيات الهجاء في البلاط ومن يحيط بالبلاط من رجال ، وخير ما يمثل هذه الرغبة التي تضطرم بين رزانته ووقاره وبين احاسيسه التي تمثل الحرب الدائرة في نفسه لاظهار رغباته المكتومة ابيات قالها في بيروت في تكريم الريحاني :

هي النفس أغشى في رضاها المعاطبا | واحمل منها بين جنبيَّ قاضبا
تكلفني ان اخبط الليل بالسرى | وان امتطي فيه من الهول غاربا

وتنهضني للمجد بالعــزم ماضياً وبالهم مقلاقاً وبالرأي صائبا
وإني لاشكوها اليهـا تظلماً فارجع عنها بعـد شكواي خائبا
على ان لي منها حصاة رزينـة فتلت بهـا كل الامور تجاربا
لقد تعبت فيما تروم من العلى كذلك نفس الحـر تلقى المتاعبا

ولكنه لا يلبث ان يثور ويوجه كل هجومه نحو العراق واهل العراق فيقول:

الا عـدّ عما في العراق واهله أراه باخلاق الزمان معايبا
معايب لو أني هتكت ستارها لأرسلت منهـا للمعاند حاصبا

ويقولها صراحة :

لنا ملك تأبى عصابـة رأســه لها غير سيف التيمسين عاصبا
تبوء عـرش الملك لا بحسامه وما كان في يوم له الشعب ناخبا
ولكن بطيارات قوم تطايرت فكانت علينا من شواظ سحائبا
وليس له من امره غير أنه يعــدد اياماً ويقبض راتبا

والواقع ان البلاد العربية قد قسمت بين الحلفاء وكان الملك فيصل يحارب في صفوف الحلفاء وكان من اصدقائهم وثار مع والده ضد الاتراك فما كان من الحلفاء إلا أن يرضوا الملك فيصل ولو بالمظاهر الكذابة ولست اريد ان اعيد التاريخ فهو قريب معروف ولكن ذكرني هذا بالعصر الذي عاش فيـه المتنبي وعمق اثر المتنبي في نفسية شاعرنا الرصافي فهو يرى كما رأى المتنبي من قبل ان الحاكين ليسوا على مستوى عال من الكفاءة والمقدرة إلا ان الظروف هي التي خلقتهم وسلطتهم على الناس وكما حرم المتنبي من الحكم حرم الرصافي منه وبقي هـذا الحقد على الملك فيصل حتى موته فتجلى في قصيدته التي رثاه فيها

فقال :

ابو غازي قضى فأقيم غازي ... فانطقنا التهـاني والتعازي
وأطلقنا المـدائح والمراثي ... بانشـاءٍ لهن وبارتجاز
وجئنا حاشدين بصدر يوم ... حكى يوميْ عكاظ وذي المجاز
غداة قلوبنا امتلأت سروراً ... وحزناً يجريان على التوازي
فهن بعامليْ فـرح وحزن ... خوافقُ في جوانحنا نوازي
فكنّ من ابتهاج في هـدوء ... وكن من اهتياج في اهتزاز (١)

قال : (ابوغازي قضى) وكأنه ازاح عبئاً ثقيلا عن صدره ثم قـدم التهاني على التعازي والمدائح على المراثي والسرور والابتهـاج على الحـزن رد فعل نفسي يدل على مبلغ كراهيته لفيصل الذي لم يؤمّره .

وحاول الملك فيصل استرضاءه وتوسط الثعالبي في هذا الأمر فقد حدثني السيد خيري الهندي انه لما يئس الملك فيصل من ان يزوره الرصافي معتذراً ، جاءه الثعالبي ورجاه ان يأخذه الى الملك ، وكان خيري الهنداوي جالساً فقال للرصافي : « يا معروف إنك تخاف الملك فيصلا » ، فاجابه الرصافي : « ويحك أنا لا اخاف احداً سوى الله» . فاغتنمها الهنداوي فرصة وقال له: « اذن اذهب وقابل الملك » ، وقد ظن الهنداوي بأن لقاء فيصل والرصافي سيسوي الامور وانه سيحوله الى جانبه . ولما دخل الرصافي على الملك فيصل ، هش له ، ورحب به ، وأراد ان يمهد له طريق الاعتذار ، فقال « يا معروف أنا الذي : يعـدد اياماً ويقبض راتبا ؟ » ، اشارة الى بيت الرصافي في هجاء الملك فيصل ، ولكن الرصافي لم يعتذر ، بل جَبـه الملك فيصلاً قائلاً : « ارجو أن لا تكون كذاك

---

(١) ديوان الرصافي ص ٣٣٦ .

يا صاحب الجلالة » ، فاسقط في يد الملك فيصل وأربد وجهه ، ثم خرج الرصافي ولم يعد اليه ، انه لم يقدر أن يقول غير الحقيقة التي يراها ، وكيف له ان يقول غير الحقيقة ؟ انه أراد ان يثبت شخصيته ويؤكد كيانه واراد ان يسمع الناس ان الرصافي قوي الشخصية لا يخاف الملك ولا يترضاه وبذلك ارضى نزعته النفسية وحبه لذاته واكد وجـــوده . انه لا يقل عن الملك فيصل فى شيء وقد فات الرصافي خدمات فيصل للحلفاء ونسبه وموقفه من الثورة العربية ومن الاستعمار فليس من السهولة ان يغفر الرصافي ويسلم بما يريد .. وقد رأينا من الشعراء من كان ضد الانكليز ونظم فى هجوهم ولـكن سرعان ما نظم فى مدحهم والترحيب بهم فتقدم واخذ مكانته بل ان شاعراً من الشعراء ساهم في حرب الانكليز وسرعان ما كان واسطة في بث سلطتهم وتغنى فى جريدة العرب بهم فاعتمدوا عليه حتى في احلك ايامهم في العراق .

فهل تعد صراحة الرصافي وقـوة شخصيته مما تلائم المجتمع الذي كان يعيش فيه الرصافي والتقاليد التي كانت سائدة .

وليست الصراحة دائماً مقبولة من المجتمع ، لأنه لم يكن ليفصل بين المرء وأعماله ، وقد اختط المجتمع للناس طريقاً من التقاليد ، لا ينبغي أن يخرجوا عنه ، فمن سار على ذلك الطريق اسبغت عليه النعوت الطيبة ، ومن خرج عنـه انثالت عليه النقدات المرة .

وكان الرصافي لا يرضى إلا أن يسير المجتمع حسب هواه ، وحسب رغبته ، فثار على المجتمع وغضب على الحيـــاة ، ولم يقدر على مهاجمة الشعب ، لأن الشعب لم يكن ذا سلطة ، فظن ان الحكومة والملك والانكليز يقفون

في وجهه فثار عليهم وهاجمهم .

ومن جراء ذلك لم يحصل الرصافي على ما حصل عليه الشعراء الآخرون كالشبيبي وابي المحاسن واحمد الفخري وخيري الهنداوي وعلي الشرقي من الوظائف الرسمية بل لم يفز بعضوية مجلس الأعيان التي فاز بها الزهاوي ، فوجه ثورته على الملكية والعائلة المالكة . وقد كان من حسن حظ الشعب و حسن حظ الأدب ان تأتي هذه الثورة بالفائدة المرجوة ، لأنها اتفقت مع الحالة العامة للشعب ، وكان متوثباً يريد الحرية والديمقراطية والاستقلال ، فوجه هذه الثورة بصورة غير شعورية نحو هؤلاء الذين يملكون كل شيء ولا يفيدونه ، ولو قُيّض للرصافي أن يغمض المجتمع عينه عن زلاته الاخلاقية او يكون هو مستقيما في الظاهر لكان شعره غير شعره اليوم ، ولكان ضعيفاً في ثورته ، او معتدلاً في شعره السياسي ، بصورة عامة .

الثورة :

كانت حياة الرصافي شكوى عارمة ، وثورة دائمة ، وهي تنفيس صادق عما يعانيه الرصافي نفسه ، وكان الوعي العام في العراق يتفتح على شعارات الحرية والديمقراطية فاخذ الرصافي ينظم في هذا المضمار ويطالب بالحرية التي اغتصبها المستعمر ، وبحرية التعبير ، ويهاجم المستعمر الذي بث الضغائن بين النفوس فقال :

لم يكفه انه للحكم مغتصبٌ	حتى غدا يقتل الآراء والفكرا
إذا رأى نهضة للمجد اقعدها	وإن رأى فتنة مشبوبة نَعَرا
فكم ضغائن بين الناس اوجدها	وكم بذور من التفريق قد بذرا(١)

١) ديوان الرصافي ص ٣٢٤ .

ولن يعيد الحق الى نصابه والحكم الى اهله الا الثورة ، وتظهر هذه الثورة عندما نظم في ذكرى السعدون ، صديقه الذي كان يسبغ عليه عطفه ورضاه :

وإنا لقوم مستقلون فطرةً إذا انكر استقلالنا منكر ثرنا
فلو جُعلت تبراً سبيكا بيوتنا ولسنا بحكام أبينا بها السكنى
يهون علينا في السياسة أننا نُصلّب في الأعواد او ندخل السجنا

الرصافي والحكم :

تبدو رغبة الرصافي واضحة جلية في الحكم ، وحب الظهور في المجتمع ، في شعره فهو يستنكر اغتصاب المستعمر الحكم وقتل الآراء ومصادرتها ، لا يرضى الرصافي أن يحكم العراق أجنبي فيقول :

لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده ، والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله(١)

ان كلمة « الحكم » ومعانيها تسربت الى شعر الرصافي ، ولولا سيرته الخلقية المريبة التي اشتهر امرها لتقدم كثيراً في معارج الحكم والحياة السياسية والادارية ، ولاصبح وزيراً شأنه شأن قسم من شعراء هذه الفترة . فلما حرم اظهر غضبه على الحاكم .

أهمل الرصافي رسمياً ، ولم يعط ما يستحق من العناية من جراء هذا الامر ولكنه مع ذلك لم يترك بلا عون مالي ، فقد كان له راتب منذ دخوله العراق وقد عين معاوناً لمدير المطبوعات ، ولم يكن لها مدير ، وكان له راتب شهري قدره ٥٠٠ روبية عندما ترك مديرية المطبوعات (٢) وانقطع الراتب ، ثم اعيد اليه

---

(١) الديوان ص ٢٤٧ ، ولاحظ فصل السياسيات
(٢) الشعر العراقي الحديث ص ٢٥٢ .

وقد كان له راتب تقاعدي ، وإن كان ضئيلاً ، كان يكفيه ، وكان الاصدقاء يمدون له يد المساعدة (١) ، والمجتمع البدائي لا يرى المنزلة الا للقوة والحكم وقد فقد الرصافي الحكم والقوة فشعر بمرارة وأسى واراد ان يفرض مركزه بتصرفاته مع أصدقائه ومع اقرب الناس اليه ، وهو يبدو في ذلك شاذاً ، والحق ان الرصافي كان شاذاً في تصرفاته وحتى أقرب الاصدقاء اليه يشهد بشذوذه ، وهذا الاستاذ مصطفى علي يقول : « اذ أننا نحن حفظاء الرصافي نعرف ان له من الشذوذ ما لو رآه هو عند غيره لأخذ منه العجب مأخذه ، ولو أبصره من سواه لانكره عليه كل الانكار » .

ولعل مرد هذا الشذوذ هو رغبته في أن تفصل الحياة على وفق ما يريد الرصافي لا على ما اتفق المجتمع عليه من نظم عامة ، ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان عدم منح الرصافي المركز الاجتماعي سبب كل هذا الشذوذ أو ان هذا الشذوذ هو الذي جر الرصافي الى عدم حيازته المركز الذي لم يكن يرضاه لنفسه . ان الرجل الذي يشعر بأن المجتمع قد ظلمه وأن الدنيا لا تسير على هواه يكون صادقاً في كل شعره لأنه يعبر عن آلام نفسه ممثلا لآلام المجتمع ، وقد اجتمعت هذه الصفة في الرصافي فاجاد في شعره ، وكان صادقاً في مشاعره في كثير من شعره لأن الشعب المضطهد المتألم التف حوله وتناشد شعره فسار واشبع رغبته في الظهور واثبات الذات فابدع في نظم القريض .

والرصافي يهمه أن يكون محترماً ويهمه أن يبدو هذا الاحترام للناس، فلو ألفت كتب عنه في حياته لكان اثرها عمقاً في نفسه ولأعادت الطمأنينة الى قلبه ، ولو أن

---

(١) « الرصافي » مصطفى علي ، فصل الاستاذ ذلك في حديثه عنه ص ٦٥ .

حفلات التكريم توالت عليه لكن أثرها اكثر عمقاً في نفسه ، إن المظاهر وخداع المظاهر لها اثر كبير في النفوس القلقة المضطهدة .

مساعدة :

كتب نوري ثابت في جريدته « حبزبوز » مقالاً نلخصه هنا قال : استدعاني أحد الوزراء فقال نحن دفعنا مبالغ كبيرة لصحافيين جاءوا الى العراق(١) ولكن الرصافي ابن الوطن البار مهجور في الفلوجة فيجب أن تذهب اليه وتكلفه بقبول النيابة الشاغرة ، واذا أراد فليبق معارضاً في المجلس ، وتفقد داره وقدم له مساعدة مالية ريثما تتم عملية الانتخاب ، لأنه ليس من الانصاف والمروءة ألا يكرم شاعرنا العظيم وابن الوطن البار القائل :

أنا ابن دجلة معروفاً بها ادبي　　　وإن يكُ الماء منها ليس يروني
قد كنت بلبلها الغرّيد انشدها　　　اشجى الاناشيد في اشجى التلاحين(٢)

واستأجر نوري ثابت سيارة وأخذ معه ابا حمد (٣) وحاتم الكرخي (٤) وسافروا الى الفلوجة ، وعُرض على الرصافي الأمر ، فكان جوابه : أما النيابة فانا أقبلها ، ولكني أرفض قبول التطفل على خزينة الدولة وافضل الموت جوعاً على التطفل (٥) .

---

(١) عرض نوري ثابت بمعروف العرناووط ، ويعتبر نوري ثابت نفسه من اقرب الناس للرصافي ومن تلاميذه المخلصين . وتجلت رغبة نوري ثابت في تقدير الرصافي بما كان يشرحه من قصائده ونشر من التعليقات التي كانت تصدر عن شعره . لاحظ جريدة « حبزبوز » السنة الخامسة ١٩٣٦ .

(٢) قال سالم بن دارة في شرح ديوان الحماسة ص٣٧٠ ج ١ ، ط محمد محي الدين عبدالحميد:
« انا ابن دارة معروفاً له نسبي　　　وهل بدارة يا للناس من عار »

(٣) هو المرحوم الصحافي الفكاهي عبدالقادر المميز صاحب جريدة « ابو حمد » .

(٤) مدير ادارة جريدة « حبزبوز » .

(٥) جريدة « حبزبوز » وكانت اسبوعية العدد ٢٤٣ ـ ٥ ـ ١٩٣٦ .

من هذا تتجلى لنا أمور كثيرة ، منها ان الرصافي لم يكن منسياً بل كان اصحاب السلطة من الساسة يريدون أن يستفيد الرصافي ، وكان يؤلمهم ان يروه محتاجاً ، وكانت لهم علاقة خاصة به ، علاقة ود وعلاقة اخاء ، ولولا شـذوذ الرصافي لما تأخروا عليه بالوظائف العاليـة ، والأمر الثاني ان الرصافي رضى بالنيابة ورفض المبلغ النقدي لأن قبوله المبلغ النقدي معناه ان الرصافي يعيش عائلا على غيره ، وانه آلة تستعمل ، وزينة لا اهمية اجتماعية لها ، ولو لم يكن الرصافي طموحاً لرضي بقبول المبلغ الذي ارسل اليه ، فقد وجدنا بعض الشعراء يغرفون في عهده ومن بعده من خزينة الدولة ومن غير خزينة الدولة من اغنياء البلد وموسريه من غير أن يشعروا بغضاضة او ذلة ، اما الرصافي فلم يكن يرضى ان يذل نفسه ويقبل المنح كيلا يكون بوقاً ؛ وتحقق بعض حلمه في الخروج على المجتمع ، فهو يأخذ المال ولكن بطريق يرضاه غروره .

وقد حدثني السيد خيري الهنداوي ان للرصافي راتباً يتقاضاه وكان هذا المبلغ يجيئه به رسول خاص ، فكان يأخذ الراتب ولا يوقع اعترافاً بالتسلم ، ويطرد الرسول بعد أن يتسلم الراتب . الأمر الثالث قبوله لمنصب النيابة ، وهو عمل مبرقع يرضي كبرياءه وغروره ، فانا لا أجد فرقاً بين نائب يعين ويقبل الراتب وبين قبول المخصصات السرية ، الفرق في الاسماء ولكن النتيجة واحدة انه اصبح موظفاً ما دامت تعرض عليه النيابة ، بل كان يعرف انه عيّن في هذا العمل . فقد حُدّثت ان احد اصدقائه ذهب اليه ليبارك له انتخابه فقال له : « بارك لي التعيين » . الأمر الرابع ان عناية الناس به لم تكن تتجلى بالعطف عليه بل كانت بالاعجاب بشعره لذلك لم يسجن او يطارد او يضايق في رزقه

حتى في احرج واحلك الأحوال السياسية ، ففي سنة ١٩٤١ ايد الرصافي الثورة العراقية على الانكليز ، وهاجمهم وهاجم اعوانهم بقصيدة مطلعها :

اليوم قري يا مواطن أعينا   وتطربي بالحمد منك الألسنا

فلما انتصر الانكليز ، واحتلوا العراق مرة ثانية ، جرت اعتقالات واسعة النطاق والقي القبض على قادة الشعراء والكتاب الذين أيدوا الثورة ، ولكن الرصافي كان قد استثني من هذا الاعتقال .

كان الرصافي يريد أن يأخذ الشيء بالعزم والحزم والعمل ، واشار الى ذلك في مواضع كثيرة من شعره :

إن الخصال التي تسمو الحياة بها   عزم وحزم وإقدام ومُقتحمُ

وكانت نفسه نفس الفارس القوي الذي يريد أن تسبغ عليه أثواب التحميد كالبطل الذي يدخل المعركة بلا خوف او رهبة فيقول :

فليذهب اليأس عني خاسئاً ابداً   إني بحبل رجائي اليوم معتصم

ولست ممن إذا يسعى لحادثة   يسعى وارجله بالخوف تصطدم(١)

وظني ان الشاعر لو اتيح له ان يكون ضابطاً لكان من خيرة الضباط (٢) ، ففي حياته وخلقه ما يؤهله لأن يكون من اقدر الضباط ، فهو قوي الجسم ،

---

(١) الديوان ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

(٢) « ارسل الرصافي في سن الثانية عشرة الى المدرسة الرشدية العسكرية لأن هوى الأهلين عهدئذ أن يخرج أولادهم ضباطاً في الجيش ، وهذا سبيل الجندية أو إمارة الجند ، تعلم فيها ثلاث سنوات ثم رسب فانزعج الحدث المرهق الذهن وغادر معهده الى غير رجعة » .

رفائيل بطي . الكاتب المصري ٢١ - ٢ - ١٩٤٧

واسع الصدر ، طويل القامة ، مهاب الخطو (١) ، وقد كان والده في صفوف الجندرمه (٢) ، فهل كان اخفاقه في ان يكون ضابطاً سبباً في غرس غراس الثورة والنقمة في لا شعوره ؟ أم أن سبب الثورة والنقمة هو انه لما حرم المنزلة الاجتماعية ، والمقام الذي يشتاق اليه ، شعر ان لا شيء يحترم كالقوة ، فقال :

قد علمتني الليالي في تقلبها ... ان الموفق فيها السيف لا القلم
وان اصدق برق انت شائمه ... برق تبسم عنه الصارم الخَذِم
واخصب الارض ارض لا تسحّ بها ... الا من النقع في يوم الوغى ديم
من كان يكذبني ان الحياة منى ... فليس يكذبني ان الحياة دم

ولم يكن الرصافي بقادر أن يكون ذلك الفارس البطل الذي يحقق ما يريده بالقوة ، فليفرض ارادته بتصرفات شاذة ، كما كان يعامل أصدقاءه ومعارفه ، لأنه كان يعتقد في قرارة نفسه انه لم ينل ما يريد من منزلة فيجب أن يتظاهر بالاباء والشمم ، فقال :

لا يكسب النفس ما ترجوه من شرف ... إلا الاباء وإلا العز والشمم
لا يؤنسنّك أن الحرّ محتقرٌ ... عند اللئام وان الوغد محترم
فالعقل يتّهم الدهر المسيء بذا ... وما يعيبك أن الدهر متهم (٣)

إن اكثر شعر الرصافي كان صادق العواطف لأنه كان يحس بالاضطهاد ، وبالحرمان من المركز اللائق به بين الناس ، وصدقه في العاطفة حول

---

(١) : « طويل القامة ، عظم الألواح ، ممتلىء الجسم ، قوي البنية » ــ رفائيل بطي الكاتب المصري .

(٢) وكان قبل ذلك في الجيش والجندرمة : الدرك .

(٣) الديوان ص ٤٤٦ .

شعره الى همسات في اذن الشعب كان له اعمق الأثر في النفوس (١)، لأنه كان صدى لمشاعر الناس . وقد كان الأمل يداعبه بين فترة وأخرى بأن الشعب لابد أن يحصل على ما يريد، ولابد أن يفوز بأمانيه، لذلك نجده يحدد ذلك بقوله :

انني مبصر تباشير صبح	ستقضي على ظلام الأماني
انني استشف من غير الـ	دهر انقلاباً يعم كل مكان
سيعود الضعيف محترم الحق	ويمسي الظلوم في خسران
فيبوء المستعمرون بخسر	وتضيء البلاد بالعمران

وقد تحقق رأي الرصافي وعم البلاد اكثر من ثورة وانقلاب ولكن ما زال في البلاد العربية ظل المستعمرين وما زال العرب متفرقين والعرب في تطاحن داخلي .

ويلاحظ القاريء في تصرفاته وفي شعره كثيراً من التناقض ولو سبر غور نفسه لوجده قد تأثر كثيراً بالأحداث العامة فسارت هذه الاحداث مع رغباته الـكامنة ومتى وجدت الاحداث العامة متسرباً تتسرب منه الى اعماق الشاعر فسوف تتلاءم مع اغراضه النفسية الدفينة في العقل اللاوعي ثم تخرج صورة صادقة لوعي الجماهير واحداثها العامة فينظم شعراً تتجاوب معه رغبات الشعب ويهتف له، وهذا ما حدث للرصافي فقد سارت آلام الشعب والوضع الشاذ في العراق مع ما كان يعانيه من عناء نفسي جاءه من حرمانه من المنصب الحكومي الممتاز ولو كان الرصافي وزيراً أو موظفاً كبيراً مرموقاً لاختلف شعره كما اختلف شعر

---

(١) تحدث الاستاذ مصطفى علي عن صدق الرصافي في ص ٨٢ و ٨٣ من كتابه «الرصافي»

حافظ ابراهيم عندما عمل فى دار الكتب واصبح يتمتع بمنزلة (البكوية)

فالرصافي عندما الفى عمله مفتشاً ونقل الى تدريس الآداب في دار المعلمين العالية ثقل عليه الأمر فترك عمله متجهاً الى البصرة سراً محتجاً على ذلك وقد كان يريد ان يكون سكرتيراً لمجلس الأعيان أو مديراً للمطبوعات .

وكل اماني الرصافي كانت منصبةً على أن يكون عيناً في مجلس الاعيان ان فاتته الوزارة ولما حرم من هذه المناصب ورأى من لا يدانيه منزلة ثار وتألم وصب ثورتـــه على المستعمر وعلى الملك وعلى الدولة ومؤسساتها فأغنى الأدب والتاريخ الأدبي بانتاجه (١) .

(١) لاحظ جريدة الاستقلال العدد الصادر في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٨ لصاحبها عبد الغفور البدري .

محمد رضا الشبيبي

العراق في العهد العثماني (*) :

كان العراق أحد الاقطار التابعة للدولة العثمانية ، وقد عانى العراقيون من عنت الولاة ما عانوه ، ولكنهم كانوا يكتمون ما يعانونه اكراماً لدولة الخلافة الاسلامية . وقد جر بقاء العثمانيين في العراق مدة طويلة الى تقلص ظل اللغة العربية ، حتى لم يبق لها موئل الا المساجد التي ادت الى العراق ما أداه الجامع الازهر لمصر ، فقد كانت حصن العربية الحصين .

أما الحياة العامة فكانت تزخر بضروب متنوعة من العلل الاجتماعية والسياسية ، وبصنوف مختلفة من نظم فاسدة ، وهي حياة كان يرجى لها أن تزدهر لما امتاز به العراق من وفرة المياه وخصوبة التربة ولطف المناخ ، ولكنها حرمت الرفاهية ، وعمتها الفوضى ، وشاع فيها الجمود والفقر والجهل والمرض . وكانت ولاية بغداد تباع في المزاد العلني في الاستانة ولذلك اهملت المشاريع العمرانية ما خلا الاعمال الجليلة التي قام بها الخالد الذكر مدحة باشا (١) .

(*) لاحظ جريدة « الحارس » للاستاذ صبيح الغافقي العدد ٥٢ الصادر في ٢١ / ١٠ / ١٩٥٣ .

(١) تفصيل ذلك في « الشعر العراقي في القرن التاسع عشر » .

بدء النهضة :

وعندما احتك العراقيون فى الاستانة بالعـرب الذين جاءوها من الاقطار العربية ، تبلورت لديهم الفكرة القومية العربية واخذت تنمو وتتفتح عن أنضر الأزاهير وأطيب الثمرات ، فقد شعر العرب بأن لهم كياناً كبيراً وأن لهم ماضياً زاهياً ، وان لهم مقومات قومية عريضة . ورسخت في نفوسهم الثقة . ودب الاعتداد في قلوبهم ، واحسوا بأهمية امتهم وتأريخهم .

ولا أشك فى أن بداية الوعي العربي كان غير واضح الخطوط والمعالم في الاذهان ، ولكن الاتجاه نحو اللغة العربية ومحاولة الارتفاع بمستواها ، قد حرّكا هذا الوعي ، ثم اعقب ذلك الاتجاه العام نحو الحضارة العربيـة واحياء التراث الفكري ، فكانت حركة محمود سامي البارودي فى التجديد ، ومحاولة اسماعيل صبري باشا أول باعث للارتفاع باللغة العربية وتجديدها .

فاخذ شعراء العراق يرسلون بقصائدهم الى مصر ، وهي تطفح بالثورة ، وتفيض بالسخط على الحالة العامة في البلاد ، لأن تجاهل العـرب وانكار قوتهم والتغاضي عن مكانتهم خرجت من دائرة اهمالهم في المشاركة في حكم البلاد الى تهديد كيانهم ، والقضاء عليهم وعلى قيمهم العربية الاصيلة ، فادى الامر الى بلورة الوعي العربي ، والتحفز لانقاذ شخصيتهم ، لانهم احسوا بالخطر الداهم . وقـد ظهر عمق الوعي العربي في البلاد العربية عامة وفي العراق خاصة رغم المظاهر الدالة على موت هذا الوعي أو اضمحلاله بتأثير العامل الديني .

وقد حاولت عوامل كثيرة منذ الغزو المغولي حتى هذه الفترة التي نحن بصددها الآن ، قتل الوعي العربي سياسياً إلا أن عمق هـذا الوعي بقي صامداً

وما ذابت الذاتية العربية بل كانت هذه العوامل بواعث على استمرار حياةذلك الوعي والمحافظة على بقائه حياً ، وكان من اهم مظاهر ذلك ، التأكيد المستمر على اللغة العربية لانها أقوى رابطة تجمع العرب وتحافظ على كيانهم وحضارتهم . وكانت مصر تفتح صدرها وتنشر هذه القصائد ، وكانت جرأة هذه القصائد مدعاة شك فى أن يكون ناظموها شعراء العراق ، حتى أن الشاعر الكبير بشارة الخوري لم يكن يصدق أن في العراق انساناً يدعى الرصافي ، بل كان يظن ذلك لقباً مستعاراً ، لما امتازت به أشعار الرصافى من جرأة وتحد للحكام وشرح للحالة العامة ، وكان الشعراء يحاولون أن يظهروا فى شعرهم أثر الثقافة الجديدة والفكر الحديث لما كانوا يقرأونه في الهلال والمقتطف والسياسة .

والشبيبي أحد هؤلاء الشعراء الذين مثلوا الشعر العراقي فى هذه الفترة ، وأسهم في وصف حالة العراق الفكرية والسياسية . والشعراء في كل أمة هم ألسنة الشعب المعبرة عن أمانيه وخلجاته ومتى سرت الروح القومية وانتشرت الدعوة المطالبة بها ، ومتى شعر المجتمع بذلك وحمل الشعراء هذه الرسالة ، فلا شك ان شعرهم يكون ترجماناً صادقاً عن أماني الشعب كله .

دور الشبيبي :

تأثر الشبيبي بما حاق بالبلاد وقد كان يدفعه دافعان عميقان ، الدافع الاسلامي ومقوماته الثقافية والتأريخية ، والدافع العربي الاصيل الذي تبلور بالتيارات الغربية ، وما فيها من مظاهر عامة فى الحرية ومقومات اقتصادية تدعو الى انقاذ الامة ورفع مستواها الاقتصادي . وقد حافظ الشبيبي على هذين الدافعين في شعره فقد كان شأنه شأن أي عربي يشفق

من زوال الحضارة الاسلامية وتراثها العريق ، ولا يرضى ان يتخلى عن عروبته او أن يفقدها وبذلك لا يمكن التمييز دائماً بين العروبة والاسلام في تفكير أي شاعر من هذه الفترة . فدعا هذا كثيراً من الباحثين أن يخلطوا بين آراء الشعراء ولم يقدروا أن يصنفوا شعراء العرب تحت المفاهيم الجديدة ، فخلطوا بين التيار الاسلامي والتيار القومي .

كان الشبيبي يعيش فى منطقة الفرات وكانت هذه المنطقة وحي الهامه وفيض شعره ، وكان يراها متأخرة جاهلة مريضة فيشعر بما حاق بهذا الجزء من الانحطاط ولكن لم يكن بقادر على أن يعمل شيئاً لرفع المستوى العام له ، فينفس عن احزانه بالدم الهتان فقال :

أي دمع يفيض من أي مقله — لوقوفي بين الفرات ودجله
لست ابكي على فراتي فرداً — أنا ابكي على الجزيرة جمله
وحقيق إذا تألم عضوٌ — أن تناجي آلامه الجسم كله
جلّ ما بي اني ارى الماء عذباً — أخذ المالح الأجاجي جله
من ترى حرّم الزلال علينا — وعلى الساكنات فيه أحله (١)

كان العراق بلداً متأخراً لا يقدر ابناؤه على شرب الماء الصافي ، وكانت روح الالم والنقمة تصور له ما في الحياة ألماً وحسرة ، والشاعر في الظروف الاعتيادية يطرب لخرير الماء ، ويحلق طويلا مع موسيقاه ، لكن شاعرنا يبكيه هذا الخرير لأن مياه وطنه تذهب هدراً دون طائل الى البحر وابناء العراق يبكون من الفقر واراضي العراق جرداء بور فقال الشاعر :

---

(١) ديوان الشبيبي . القاهرة . سنة ١٩٤٠ ص ٥٣ .

ما إخال الخرير والماء إلا صوت حزن وعبرة مستهله

ان بذل الدم هو آخر ما يقدر عليه الشاعر في بلد سلط عليه سوط الارهاب ان الثورة المباشرة والمبادأة بها معناه الثورة على السلطان ، وعلى الحكومة القائمة لذلك أراد ان يبعث الثقة في نفوس الشعب ؛ ومتى وثق الشعب بنفسه ، وقارن حاله بماضيه تبدأ اول بوادر النقمة والثورة . فاخذ الشبيبي يذكر الشعب بما كان عليه الآباء ، وما قدموه ، وكيف انهم كانوا سادة الدنيا ، وكانت بلادهم عرين اسود وغاب ليوث ، وان هذا الانحطاط الذي وصلوا اليه لا ينزلهم بمنزلة كريمة . انه اراد أن يستثير هممهم دون ان يقول إن الحاكمين هم الذين جروا البلاد الى ما هي عليه اليوم فقال :

أين ذاك العراق ؟ اين بنوه ؟ ليتهم ابصروا العراق واهله
ادبار ؟ لا بل مكامن أسد ورجال ؟ لا بل ليوث مدله
أو لم تكف علة الفقر قومي فاستزادوا من الجهالة عله (١)

العراق بلد الخيرات حباه الله بكل مقومات الرفاهية والسعادة ففيه المياه الوفيرة والاراضي الخصبة ، وكان يعيش في ربوعه ملايين من البشر ، وكان مخضر الجنبات ، واسع الخيرات ، فاستحال الى قفر يباب لا حياة فيه إلا في بقع متباعدة هيمن الفقر عليها ، فتدب روح الالم بين جنبي الشبيبي عندما يرى مياه دجلة اهم عنصر من عناصر الغنى تذهب هدراً الى البحر فيخاطب دجلة قائلا :

يا ماء دجلة عذباً في موارده لأنت في كبد الفلاح يحموم
الفقر فيك مذود وهو مفتقر والبحر منك مجود وهو محروم

(١) الديوان ص ٥٣ ــ ٥٥ .

الظلم ينفيك عن اهليه مضطهداً   أأنت أم كل ماء الارض مظلوم ؟

ثم تندلع نار الثورة في شعر الشاعر فيصرخ في وجه قومه الذين تخاذلوا وما قاوموا عندما اغتصب حقهم قائلا :

ناديت قومي و حق القوم مغتصبٌ   وصحت شعبي وحق الشعب مهضوم(١)

ومتى اتخذ الشاعر ناحية من نواحي الخير اداة لفنه ، لينير السبل في الدياجي الحالكة ، ومتى استنهض العزائم الهامدة ، ووقف شعره على نواحي الاصلاح فقد أدى رسالته في هذه الحياة ، وقد كان العصر الذي عاش فيه الشبيبي يومئذ آخر عصر الدولة العثمانية وهو عصر اليقظة الفكرية ، وكانت تهدف هذه الحركة الى إصلاح البلاد سياسياً واجتماعياً ، وقد تآزر كثير من شباب العرب هذه الدعوة ، وكانت مساعي شاعرنا جليلة وكريمة ، خاصة في الصحافة ، فاذا تتبعنا ما نشر له في صحف مصر كالزهور والمقتطف وصحف سوريا كجريدة البرق والمقتبس ، ومجلة العرفان وغيرها من المجلات والجرائد ، لوجدنا شعره السياسي زاخراً بالمناداة بالاصلاح ، فقد استوحى اوضاع وطنه وخصوصاً في الكوفة والحلة والنجف والديوانية والمنتفك واتخذ منطقة الفرات بصورة عامة الهاماً لشعره وقد اخلص شاعرنا لمثله العليا ، فكان صورة واضحة لما مر بالعراق من حوادث ، ووصفها وصفاً صادقاً ، وكان سجلا حياً للحياة الاجتماعية والسياسية ، قبل الثورة العراقية ، وقد كان شعره صدى لما غمر النفوس الثائرة من ألم ومرارة ، ولأن قومه :

أما شهيد معلى فوق مشنقةٍ   أو موثق بحبال الاسر معتقل

---

(١) الديوان ص ٥٦ ـ ٥٧ .

ان مصائب الوطن اصبحت جزءاً من كيانـه فلا يخلو شعره منها حتى وإن كان غزلاً ، فقد انعكست هذه المصائب في نفسه ولم يقدر أن ينظمها بصراحة ، فتسربت في اغراض الشعر الاخرى ، فان ما يشكوه من جور الزمان وما جرته عليه الايام لم يكن في حقيقة الامر الا شكوى كامنة ، ضد الحكام الذين تسلطوا على العراق وعاثوا بمقدراته ، وقد كان يؤلمه ويقض مضجعه انه لم يجـد الرجل الذي ينقذ الامة مما حاق بها لان الرجال قـد انصرفوا الى مصالحهم الخاصة ، اما جبناً أو طمعاً فقال يستجير بالله ليبعث للامة بالرجل :

يا رب من لا ناس مالهم أحد؟ يارب من لرجال مابهم رجل(١)؟

هذا هو تقريع الشاعر المتألم الذي لا يجـد بين الرجال رجلا يخلّص بلاده ويأخذ بيدها نحو الخير ، أما الحكام فما هم الا زعانف ومن صغار الرجال جاءتهم مقاليد الحـكم بغفلة من الزمن . ومن اخذ الحـكم بغير جدارة ملـكه الحـكم واستسلم للمخازي والمساوىء . ومتى أيقن الحـاكم انه جاء للحكم بالقوة دل على الشعب واعتقد انه يمنحه رحمته ورضوانه ، وعلى الشعب أن يسبح بحمده آناء الليل وأطراف النهار ، والا فالويل له ، هو الجاحـد للفضل والنعمة ، رغم مساويه التي لا يعدها عاد .

ان الزعامة سلمت لزعانف في الشرق قادوا أهله فانقادوا

أما مخازيهـم فليست تنتهي ولو انقضت وتناهت الاعداد(٢)

ومع كل ما كان يشعر به من غمط لحقوق بلاده من قبل الدولة العثمانيـة

---

(١) الديوان ص ٢٩ .

(٢) الديوان ص ٣٨ .

الا انه أبدى من ضروب الوفاء الاسلامي ما يقدر عليه ، فعندما هاجمت انكلتره الدولة العثمانية استعد للدفاع عن الدولة المسلمة ضد المستعمر الغربي ، وآثر أبناء دينه واشترك في الحرب مع المجاهدين العراقيين ، وقال يصف الحرب باسلوب رشيق وصفاً رائعاً :

طلائع يوم الوعد انجزت الوعدا ... وأذهلن جيلاً ما أعاد ولا أبدى
من الغرب هدّت جانب الشرق نبأة ... وفي الغور صوت موحش طرق النجدا
لدن اضحت الدنيا مكرّاً ومن بها ... من الامم الكبرى معبّأة جندا
مكشرة شوهاء فوهاء انشبت ... بنا وبأهل الارض انيابها الدردا
فكنت اذا أطلقت طائر نظرة ... لتكفيها احشاءنا استعرت وقدا
لظى نضجت فيها الجلود وعاذر ... بجاحمها أن ينضج القلب لا الجلدا
فلا حرها يُطفا ولا هو يتقى ... ولا نارها كانت سلاماً ولا بردا
هي الحرب ما شبت أداة رديئة ... وإلقاحها في غير منفعة أردى
مظنة جرح دبروها لتشتفي ... فما نجع التدبير فيها ولا أجدى
الى أن بدت نغارة ذات قرحة ... فما وجد العراق من نكئها بدا
الى أن أتى ما ليس يملك دفعه ... ولا يستطيع الجالبون له ردا (١)

ولمركز العراق الممتاز بين الشرق والغرب ، أصبح هدفاً لحملات متعددة وشهدت أرضه معارك تأريخية حاسمة ، وبذل الساسة الغربيون جهدهم للاستيلاء عليه ، وكانت اولى هذه الخطوات عندما بدأ الانكليز بالمحافظة على طريق الهند ، ووسعوا هذا الطريق حتى شمل العراق خوفاً من استيلاء الالمان

(١) المصدر السابق ص ١٥ .

عليه بعد أن مدوا خط بغداد براين المشهور . لذلك سارعوا الى احتلاله وأسسوا فيه نظامهم العسكري الذي برم به العراقيون ولم يطيقوا بقاءه .

والشعب العراقي يكره الحكم العسكري الذي يذيب شخصية الفرد ولايعترف بحريته فكيف يرضى بحاكم عسكري بعيد عنه في الدين واللغة ولا يمت له بأية وشيجة . لذلك كانت ثورة العراق العارمة سنة ١٩٢٠ الثورة التي كبدت القوات الانكليزية المحتلة خسائر كبيرة ضج لها مجلس العموم البريطاني وبذلوا جهدهم في ارضاء الشعب والمحافظة على مصالحهم تارة بالمعاهدات وطوراً بتفتيت قوى الشعب الوطنية بطرق مختلفة .

الشبيبي والملك حسين :

وعندما حدثت الثورة العربية ضد الدولة العثمانية كان الشبيبي مبعوث العراقيين الى الملك حسين والقادة العرب الثائرين في الجزيرة(١) وبعد أن بلغ الرسالة اتخذ طريقه الى دمشق . التي كان فيها الملك فيصل الاول . وفيها شاهد دخول الجيش الفرنسي يطأ أرض سورية العربية ، وتتحطم الدولة الفتية فتحقق جل ما قاله في قصيدته :

ماذا بنا وبذي البلاد يراد فقدت دمشق وقبلها بغداد

ومنها :

وردت مياه الرافدين مغيرة شقر من القب البطون وراد
هجن طردن من الجياد كرائماً عربية فكأنهن جياد
بردى واودية الفرات ودجلة والنيل غص بمائك الوراد
حال العلوج من الاحامر بيننا وتعذر الاصدار والايراد

(١) ومن طريف ماروي ان الملك حسين قال للوفد العراقي انا لا ابخل بارسال أحد اولادي غير أني اخاف أن تصنعوا به ما صنعتم بجده الحسين .

انها بلاد واحدة لشعب واحد باهدافه وآماله ولغته وأمجاده ، يحول المستعمر البغيض بين اجزائها ويقسمها الى دول وممالك فاحال اعياده الى مآتم ، وكيف لا تتحول الى مآتم بعد أن فرق العدو هذه الأمة :

الجـو وهو مقطب متجهم ... يبكي لنا ، والارض ، وهي جماد

لسنا نحد عليك يوماً واحداً ... أو ليلة ، كل الزمان حداد

شل العـداة جموعنا فتفرقت ... في الخافقين كأنها أذواد (١)

ويهصر قلبه الحنين الى دمشق ، والى الغوطتين ، فهي بلاده التي حال الاستعمار دون الوصول اليها فاذا بعواطف الشاعر تضطرم بالحنين واللوعة وتثور في نفسه ذكريات دمشق المحبوبة ، فيتساءل حيران قلقاً :

هل في مروج الغوطتين لأهلها ... ولرائديها مربع ومراد ؟

وهل الربا حلل ضواف طرزت ... وطرازها الازهار والاوراد

وشيت من الروض الاريض مطارف ... خضرُ الأديم ، وفوفت أبراد

بين الغصون ومن مشين تشابه ... في الحـال كل مورق مياد

ويتذكر الامجاد القديمة أيام صلاح الدين الايوبي وأيام الفاتح محمد والفاتح مراد وكيف وقفوا بوجه المستعمر الذي استباح الحرمات فخسيء حاسراً ذليلا وأخذ يلقي اللوم على العرب لتفرقهم وعدم حفظهم حرمة الاجداد ، كما حفظها الآباء :

أضدادكم متساندون قد اجتنوا ... ثمـر الوفاق وأنتم أضداد

ان هلع الشبيبي على مروج الغوطتين فيه رقة وعذوبة وفيه اخلاص العربي

---

(١) لو قال فل العداة بدل (شل) لاستقام المعنى مع (تفرقت) .

لبلده ، وخوفه من أن يدمر المستعمر جمال الرياض وعطر الزهور ، وينزل بساحتها الاحزان .

رُزِيء الصلاح صلاح دين محمد والفاتحان (محمد) و (مراد)
الذاهبون مضى لنا بذهابهم في الله جـد دائم وجهاد
خُنا ذمام الفاتحين وعهدهم ما هكذا تستنجب الأولاد
انا بما نجني وهم فيما جنوا بئس البنون ونعمت الاجداد
كانت حفائظ (يعرب) إن صوليت ناراً ، ونار الآخرين رماد
إني يذكرني الشهامة (عنتر) فينا ووالد (عنتر) (شداد)(١)
ويهزني عصر (العراق) تسوسه لخم و (آل محرق) و (إياد)

وكان كثير الريبة بالمحتلين وقليل الثقة بهم ، فلم يصدق وعودهم التي بذلوها معسولة في الاصلاح ، فقال :

وعدوكم الاصلاح فلتتوقعوا برقاً جوانب وعده إيعاد

ويذكرهم بما سيحل بهم عندما مد الاجنبي السكك الحديد فقال :

مدوا الحديد وما اهتززت لمده سكك الحديد بارضنا أصفاد
طرق الحديد إذا التوت وتشابكت شرك به شرف العراق يصاد(٢)

الدين :

وقد كان الشبيبي شديد الحرص على تماسك الامة وعلى وحدتها ، وكان

(١) يقول العرب (عنترة) وليس (شداد) من ابطال العرب المعدودين .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٣ ـ ٣٨ .

أي تفرقة يراد منها شق وحدة الصفوف، لذلك حارب رجال الدين الذين يريدون أن يفرقوا بين أبناء العرب فقال :

يا قوم ما الدين عادات معطله ... وإنما الدين تحليل وتحريم
وما السياسة والأوهام فاعلة ... تحكم كيفما شاءت وتحكيم
لا تجعلوا آلة التفريق دينكم ... فالدين عن وصمة التفريق معصوم(١)

وقد كان يرى ان نداء الاصلاح غريب على قومه ، لذلك يؤلمه نومهم فيقول :

سألتك لا تجيب فما لقومي ... اسائلهم وما فقهوا سؤالي
أخسفاً يا بدور الشرق يا من ... يرف عليهم علم الهلال ؟
سكنتم نائمين على مهاد ... له حركات وضع وانتقال(٢)

ولا عجب فالشبيبي قد بذل جهداً فى اقناع قومه وأمته ، دعاهم الى التوحيد والاسلام ، قال من قصيدة مستوحاة من ذكرى الرسول الامين :

دعوتُ الى التوحيد بجمع شملكم ... ولم أدع للشمل البديد المشتت
وجئت رسولا للحياة، ولا ارى ... بكم غير حي فى مدارج ميت
ويسرتُ شرعاً ـ ماتعنت ـ يافعاً ... وسرعان ما ملتم به للتعنت

ومنها :

وكم قائل « نفسي » اذا النفس بوغتت ... وما قال ـ مثلي فى الملمات ـ « امتي » (٣)

(١) المصدر نفسه ص ٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٠ .
(٣) الديوان ص ١٠٧ .

ويريد الخير لشعبه ، فيؤلمه ما عليه الشيب والشباب من عدم الشعور بالمسؤولية ويؤلمه ما ألم بالوطن الذي تفرق احزاباً وفرقاً . وما أجمل قوله ، وهو قول المؤمن بحق هذا الشعب :

شباب طائش نزق — وشيب ما بهم رمق
وشعب طالب ثقة — فدلوه ، بمن يثق ؟
ففي آرائنــا شيع — وفي أحزابنا فرق
قد استقشرى خلافكم — ألا ياقوم فاتفقوا
فما هانوا من اجتمعوا — وماسادوا من افترقوا(١)

الدستور :

ولم يترك الامور تسير دون أن يشير الى العلل التي تشوب تيارها ، فقد أشار الى مواطن الضعف ، وعناصر الاضطرار ، التي تفشت في الوطن ، فقــد أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ وهلل له العراقيون كثيراً ، لما املوا فيـه من الخير والسعادة والحرية ، ولـكن ساءت الأمور العامة في العراق ، بلد الخيرات وتدهورت أحواله ، فكان وقع ذلك عميق الاثر في نفس الشبيبي ، بحيث أصابه الوجوم ، وصور لنا ذلك تصويراً رائعاً ، في قوله :

وقفت عليها انكت الارض واجماً — واضرب في خـد الصعيد تُرابا
أصعّـد أنفاسي بهن لوافحاً — وأندب أجفاني لهن سحابا
فلم اتنفس زفـرة بل حشاشةً — ولم أبك دمعاً بل بكيت شبابا
خليليَّ لا ذقت الشراب فانني — تزودت من ماء الشئون شرابا
نشدتكما هل تمسحان مدامعي — لتتخـــذا مما نضحن خضابا

---

(١) المصدر نفسه ص ٩١ .

انها التقاليد البالية والخرافات والفتن والفساد تعصف بهذا الشعب من ناحية فتأخر فكرياً وانحطت ثقافته ، ومن ناحية اخرى هدرت ثروته ، فقد اصبح الماء سماً وعلقماً ، وخطراً يتهدده الشعب فى حياته وزرعه ، وما يملك ، واستحال الماء الذي يخصب الارض ويقدم الشعب ويغنيه الى مصيبة من مصائب العراق :

جرى الماء شهداً في البلاد فماله　　جرى بأخاسيف الجزيرة صابا
تسيّب لم يجمح فكان مصيبة　　وعلل لم ينقع فكان سرابا

ثم يضيق صدر شاعرنا بمصائب الأمة وتتأجج فى قلبه الثورة عندما يرى برق الحياة قد انطفأ من وجوه أبنائها ، فبدت سوداء كالحة ، من اثر الفقر ، ويصرخ من قلب مكلوم ، طالباً ان يرى الساعة التي تفيض فيها الوجوه نضارة وحياة وسروراً :

متى ايها السفع الوجوه أرى لكم　　وجوهاً أفاضت نضرة ونعيما
تشع حياة غضة وطلاقة　　وتشبع نوراً ريّقاً ونسيما (٢)

ويثير في النفوس الهمم ويدلها على الطريق الواضح فيقول :

جداول لم تشف الغليل صوادراً　　ولم تُروِ ظمآن الفؤاد عِذابا
لئن لفظت ماء الفرات ربوعُهُ　　فقد سلن من ماء السيوف شعابا
ألا هل حياة في العراقين لم تكن　　طعاناً يقفّيه الردى وضرابا (٣)

الساسة :

ولا يختلف الساسة في كل قطر ، وفي كل بلد ، فهم الحاكمون الذين

---

(١) المصدر السابق ص ٦ ــ ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩ ــ ١١ .

(٣) المصدر السابق ص ٧ .

يتلون الواحد منهم كل يوم :

متى نحن نحيا أو نموت سياسة   لها كل يوم مظهر متلون
خداع وكذب وافتراق وقسوة   وظلم أهـذا العالم المتمدن (١)

ثم يجيب شاعرنا عن هذا الاستفسار بنفسه في قصيدة أخرى ويطلب ترك المنطق مع المستعمر لأنه دخل الارض حرباً وبالقوة ولا سبيل الى تحـرير البلاد إلا بالنضال السياسي في سوح الشرف والحرية لأن الركون الى السياسة ومناوراتها وحيلها مضيعة للوقت . قال :

السيف قرب منا كل قاصية   لا المنطق الفصل من قول ولا الجدل
ماذا نؤمل في ادراك غايتنـا   من السياسة ؟ كلا انها حيل (٢)

ويلح في التأنيب والسخرية في اسلوب بارع جميل ، فقد كانت البلاد تمور بالازمات السياسية بعد أن قيد العراق بالمعاهدة سنة ١٩٣٠ ، وقامت حكومات بعدها فيقول (سنة ١٩٣٤) :

صدور من الآلام واجفة تغلي   على اننا من حاضر اللهو في شغل
متى نتحرى الجد فيما نقوله   وما نتمناه ونحن الى الهزل ؟
اترتفع الأقوام عنا مكانـةً   ونحن ندير الطرف في عالم سفلي ؟
وللناس غايات كبار ترومها   وليس لنا منها سوى الشرب والاكل (٣)

انه تأنيب الشاعر المخلص الذي يؤلمـه انحطاط العراق الذي تصلحه الهمم العالية والارادة الصادقة ، لان الفساد والفوضى وضياع المثل العليا سبب واضح

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ .

من أسباب التدهور والتأخر ، وهو يرجو الخير لامته ولا يكون الخير إلا بالاخلاق الفاضلة والسير في الطريق السوي :

يقولون : إتيان الكبائر جائز وفعل الخطايا المنكرات مباحُ
أفي هذه الاخلاق للجنس نهضة وللبَشَر الآتين منه فلاح ؟
يريدون للدنيا ضماداً وانهم بجثمان هذا الاجتماع جراح
ويعتبرون الناس مرضى كانهم ـوهم كيِّفوا داءالنفوس ـ صحاح
الا ِهم يكبَحْن من شهواتهم . فينحطَّ ميل ، أو يلين جماح
وهل فاضل يرعى الفضيلة إنها خيال سيفنى ، أو حمى سيباح

ويؤكد الشبيبي دائماً على ان الكفاح الحقيقي لا يكون بالحديث والمنطق ، وانما هو بالاستماتة في الذود عن حياض الوطن فيبث في قلوبهم القوة ويقول :

يسام العراق الذل وهي عزيزة ويخرس اهلوه وهن فصاح
أسكان أجواز العراقين هل لكم نزوع الى نيل العلا وطماح ؟
فلا تضعفوا إن السعادة قوة ولا تجبنوا ان الحياة كفاح (١)

ويمني الشبيبي قومه بالاماني التي يريدونها لانفسهم باعادة المجد التليد وبنائه بناء جديداً يتسق والحياة الحاضرة لان العيش في القديم موت :

ذلت حديثاً أمـة أبداً تفاخر بالقـدم
وأحال منهـا رمـة طول التباهي بالرمم
هـدم الزمان فجـددوا ما رث ، وابنوا ما هدم

ويرسم صورة للقوي المستأسد الذي يهابه الناس ولو كان كاذباً يخفر الذمام،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .

ويرسم صورة واضحة للمستعمر الذي حنث بكل قسم له ، وقد نشر القصيدة في « الاعتدال » سنة ١٩٣٤ :

أقسم اذا كنت القوي الجلد ، وأحنث بالقسم

فلأنت أصدق من مشى ... في الخافقين على قدم

ويل الضعيف نداؤه ... في مسمع الدنيا صمم

خان الذمامَ عداتنا ... يا عرب يا أهل الذمم

وفقدتم معنى السيا ... دة والكيان المحترم (١)

ان سوء الحالة العامة دعت الشبيبي الى طلب المصلحين الذين ينقذون الشعب من حالته ، ولكن أنى يتسنى له ذلك ، ومن يطالب بالاصلاح - مهما عز شأنه وعلا مقامه - كان جزاؤه النفي والتشريد والسجن ، فقد كان الحكم المسيطر حكماً فردياً لا يقر الا بالطاعة له ، ولا يرضى الا بالامتثال لاوامره ، كان ذلك قبل الحرب العظمى الاولى ، وكانت كلمة الدولة هي العليا ، ومع ذلك فلم يركن شاعرنا لحياة الذل التي يراها مريرة ، وخرج يدعو الى الثورة قائلاً :

تقابل عزمكم بالصغار ... وتقرن صحتكم بالضنى

أيهنيكم انها في الشقاء ... ويشقيكم انها في الهنا ؟

فلا تنسفوا الحق عن قوة ... بعيد لها نسف ذاك البنا

بزرق الحدود وحمر البنود ... وبيض السيوف ، وسمر القنا

ولابد للحق من ثورة ... رويداً ، فاما لكم أو لنا (٢)

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٠ .

ويسفر عن أمانيه ساخراً من ادعاء المساواة والحرية التي يدعيها المستعمر ويقرر الواقع ، واقع القوة الذي يحكم ، ويذكر كيف كان العرب في عزم مسيطرين على العالم بجيوشهم حتى ضاقت بها الارض ولم تصل حالنا الى هذا الهوان والسوء إلا بعد أن خنا عهد الاجداد وكنا بئس الاحفاد فقال :

الذاهبون مضى لنا بذهابهم ... لله جد دائم وجهاد
خنا ذمام الفاتحين وعهدهم ... ما هكذا تستنجب الاولاد
إنا بما نجني وهم فيما جنوا ... بئس البنون ونعمت الاجداد
كانت حفائظ (يعرب) ان صوليت ... ناراً ، ونار الآخرين رماد
اني يذكرني الشهامة (عنتر) ... فينا ووالد عنتر (شداد)
ويهزني عصر (العراق) تسوسه ... (لخم) و (آل محرق) و(اياد)

ويقف الشبيبي ، ويرى العرب متفرقين دولا وشيعاً . ويرى الخلاف بين ابناء الامة الواحدة ، فقال :

ما بين (مصر) و (الحجاز) تطاحن ... ومن (العراق) الى (الخليج) جلاد
ويعللون جريحهم بادائه ... فرض الدفاع كأن ذاك ضماد
يا للرزية كم تفرق بيننا ... وتضلنا الاضغان والاحقاد ! (١)

ويسخر من تشدق المستعمرين من أنهم جاءوا لتحرير الشعب ، وانقاذه من الجهل ، ومن ادعائهم المساواة والعدل قائلاً :

وا كذب عصر ما تشدق أهله ... ـ على ظلمهم ـ بالعدل أو بالمساواة
ذئاب وشاءٌ ، لا الذئاب رواجع ... عن الغي أو تعدو على زمر الشاة (٢)

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥ ـ ٣٧ .

(٢) الديوان ص ١١٣ .

الحلفاء والنضال السياسي :

ولقد اصيب العرب بالنكبات في استقلالهم وامانيهم وقسمت ديارهم الى مناطق نفوذ بعد أن ثاروا مع الملك حسين في سبيل وحدتهم واصبحت مناطق النفوذ غربية قاسية الحكم ، واحتل الانكليز العراق وفرضوا السيطرة العسكرية عليه . وقد كانوا يظنون ان الحلفاء سوف يساعدونهم على نيل استقلالهم السياسي ودعم وحدتهم العربية غير أن النكبات والرزايا جاءت من حلفاء الامس فقد ظهرت نياتهم واضحة فعاد الشبيبي الى العراق كئيب النفس عندما رأى فرنسة تحتل سورية ورأى دمشق يحتلها المستعمر ويخرج ملكها العربي . عاد الى العراق ورأى الانكليز قد صنعوا بالعراق ما صنعت فرنسة فى سورية وكان العراقيون بين مبعد وسجين .

ثم حدثت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وبعدها اضطر الانكليز الى تأليف وزارة من العرب في الظاهر وكان الحكم الفعلي للانكليز بوساطة المستشارين الموجودين في كل مراكز الدولة الحساسة .

وفى عام ١٩٢٤ عين الشاعر وزيراً في وزارة ياسين الهاشمي وبذلك ودع شاعرنا حياة الكفاح والثورة ولم نسمع له بيتاً واحداً فى مقارعة المستعمر والثورة عليه ، ويظهر ان الاعباء الجسيمة كانت تحول دون نظمه للشعر أو ان المنصب قد حال دون هذا الامر كما حال دون كثير من المعارضين وفي وزارة ياسين الهاشمي التي شكلت في ١٩٣٥ استقال وخلفه صادق البصام ثم جاء مع جميل المدفعي سنة ١٩٣٧ وكانت وزارة مضطربة ، واجرت تعديلا في ٣١ تشرين الاول ١٩٣٨ ، وفي عهدها حدث انقلاب عسكرى طوح بها

في كانون الاول ١٩٣٨ ، ثم ذهب الانقلاب وجرت امور كثيرة على العراق وحارب الجيش العراقي الانكليز سنة ١٩٤١ وخسر العراق ودخل الانكليز العراق في احتلالهم الثاني فألف المدفعي وزارته الخامسة في الثاني من حزيران ١٩٤١ وجاء الشبيبي وزيراً، الوزارة التي سجنت رعيلا من المعارضين للسياسة البريطانية وفصلت وزارة الشاعر خيرة الاساتذة والمفكرين الذين ناوؤا الحكم البريطاني .

وفى وزارة السيد محمد الصدر فى ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ جاء شاعرنا وكانت وزارة ضخمة غير انها تعرضت لعدة استقالات فقد استقال اربعة وزراء من الوزارة ومن هذا نرى ان الشبيبي لم يستقل من الوزارة إلا مرة واحدة ولم يعدها (١) .. وكان عضواً في مجلس الشيوخ والنواب ورئيساً للمجلس وكان دائم المعارضة للوزارات فى المجلس فانغمر فى السياسة وما كان يجد الوقت الكافي لنظم الشعر والتعبير عن احاسيس الشعب إلا عندما خرج من الوزارة سنة ١٩٣٦ ولمّح في مهرجان المتنبي فقال :

يا قلب عادك من دمشق عائد	والذكريات من الحبيب تعاود
أيام ننشد في الجزيرة غاية	يسمو بفكرته اليها الناشد
ما بيننا إلا شباب طامح	أو ثائر ، أو ناقم ، أو واجد (٢)

فهل كان هذا البيت الذي ذكر فيه أيام شبابه معبراً عن رغبة نفسية كامنة في الثورة .. وإلا فما تعليل ذلك السخط والثورة العارمة التي هدأت عندما اصبح من أصحاب السلطة فى العراق ؟ وهنا تبرز فلسفة من فلسفات الحكم التي ركن اليها جميع الوزراء وأصحاب النفوذ وسيركن اليها في المستقبل الوزراء ، هي ان العمل

(١) دليل الجمهورية العراقيــة ص ٢٢٤ ـ ٢٣٧ لسنة ١٩٦٠ ط . دار التمدن بغداد ١٩٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٩٣ .

فى السلطة يساعده على تجنب الاخطاء ووقاية البلاد من رعونة الحاكمين وفساد المستعمرين وخير لنا أن نكون فى الحكم وننقذ ما يمكن انقاذه خير من أن نكون سلبيين ونرى الظلم يستشري والبلاء يعم .

الشبيبي صدى عصره :

كان شاعرنا صدى للخطوب والاحداث التي أصابت البلاد ، وذلك واضح في شعره ، فكانت ألحانه شجية تنبعث من قيثارة من أشجان البلاد ، وكان عصره الذي نظم فيه جلّ شعره عصر اليقظة الفكرية الاولى للعراق ، اذ قال في هذا العصر في مقدمة ديوانه : « اتجه الناس فيه اتجاهاً جديداً لم يسبق له مثيل ، ومالوا الى الاهتمام بمظاهر التقدم والرقي على اختلافها ، وذلك بمجرد اعلان الدستور فى بلاد الدولة العثمانية سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ، وقد امتاز العصر المذكور بكونه عصر اليقظة فى الفكر والشعور ، تفنن الخيال العربي فيه في التعبير عن هواجس النفوس الطامحة الى مجاراة الامم الناهضة ، الراغبة فى التخلص من عوامل الضعف والانحلال ، وحاول الادب أن يمثل الحياة ، وذلك في مختلف صورها الضاحكة والباكية ، وشتى مظاهرها المشرقة أو الداجية » .

فقد سمع شاعرنا بالدستور وتلفت الى آثاره في بلاده ، فلم يجد إلا خيبة الامل المنبعثة من أرزاء العراق ، فذرف دموعاً سخينة بدلا من الفرح :

سمعت به صوتَ الرقيّ وأوجست ... به النفس من أعلى (فروق) خطابا
أخذناه تغريداً فردّ بـه البكا ... على إثر أرزاء العـراق نُعابا
فيالك صوتاً كان طائر يمنه ... يُردّد ورقاه فـردّ غرابا
هناك تأملت الديار مواثـلاً ... تغوّرن أنشـازاً وضقن رحابا

فارسلت فيهن الاماني فاخفقت   وسرحت فيهن الرجاء فخابا

ومنها :

فلم أتنفس زفرة بل حشاشة   ولم أبك دمعاً بل بكيت شبابا

خليلي لا ذقت الشراب فانني   تزودت من ماء الشؤون شرابا(١)

ميزات شعره :

عرضت فيما تقدم نماذج يسيرة من شعره ، ومن دراسة هذه النماذج وغيرها يظهر لنا أن شعره يتصف بقوة السبك وجزالة اللفظ ومتانة الاسلوب ، وبالبعد عن سخف القول وركاكته ، وهو يأسر القارىء بالفاظه المأنوسة ، وديباجته الناصعة ، مع اقتدار على تصوير خلجات نفسه ، وهجسات وجدانه أتم تصوير ، وأحسب أن بيئة الشاعر النجفية ، وتأثره بالشعر القديم ، قد أضفيا على شعره هذه الصفات .

وقد تفوق الشبيبي تفوقاً بارزاً على كثير من معاصريه ، وطفر في ديوانه بالشعر العراقي بعيداً ، واعرض عن تقليد العصور المظلمة التي كلفت بالمحسنات البديعية وبالاغراض الشعرية التافهة . حتى انه فاق الرصافي والزهاوي وهما قائدا النهضة الادبية في كثير من صفات شعره العالية ، ويندر أن يجد الناقد له بيتاً يعاني من ضعف أو ركاكة ، مع انه نظم بعض قصائده على قواف صعبة كالضاد والشين ، واللام مع الهاء ، وقد اسعفه الطبع وواتته القريحة وهذا دليل على عمق دراسته للادب العربي القديم ومرده أن الشبيبي لما طبع ديوانه ابعد عنه الكثير من شعره الركيك ونمقه ولم يبق إلا ما يتلاءم ومكانته وزيراً وشخصية كبيرة

---

(١) الديوان ص ٥ ـ ٨ .

في المجتمع وما كان يرضى ان يذكر شعره الذي لم ينشره في الديوان بل كان يؤلمه ان يذكر هذا الشعر . والديوان صورة واضحة تترجم لنا نفسية الشاعر في سمو مكانتـــه وبروز شخصيته فهو ديوان الشاعر الحـــذر المتوجس الذي فهم السياسة بعـد فهم الادب ، ولا يريدان يورط نفسه فيما لا يحب(١) .

تأثره الديني :

وما كان شعره مقصوراً على ناحية واحدة مـن نواحي الوطن ، انما تعـدى ذلك الى كل النواحي التي كان يعاني منها الوطن ، ومـع أنه نشأ نشأة دينية بحتة فانه كثيراً ما كان يهاجم الدين عندما يجدهم اصبحوا حجر عثرة في سبيل التقدم .

وقد ظهر التأثير الديني في شعره ، خاصة بالقرآن وبالحديث ، وهـو السبب المباشر فيما نرى على ديوانه من اتزان وروية ، فهو يحث على مكارم الاخلاق والفضيلة ، ولا يرضى بغير ذلك بديلا :

واذا لم تستقم أخلاقـكم ذهب العلم ذهاب الزبـد
عدّ عنك الروض لا ارتاد لي غير أخلاق هي الروض الندي(٢)

وقوله في هذه الابيات التالية دليل على دعوته للخير :

المال مأرب كل في صناعته بئس الصناعة لا كانت ولا الأربُ
يستعجلون من الاغراض اعجلها اين التطوع في الأعمال والقُربُ

---

(١) في شعراء الغري للاستاذ الخاقاني جزء كبير من شعر الشاعر الذي لم ينشره في الديوان كشعر الشباب ومدح الشيخ خزعل ، يؤكد ما ذهبنا اليه .

(٢) الديوان ص ٨١ .

يُقيّض الله رزقاً غير محتسب أذا مضى عمل فى الله محتسب
نسعى ونقعد والاقدار حاكمة سيان فيها سكون النفس والطلب

انه ينظر الى المال النظرة الدينية ، فهو لا يصلح لان يكون أرباً مقدماً على الدين وفضائل الاخلاق ، ويريد ان تكون اعمال الخير تطوعاً ، ويؤمن إيماناً صادقاً بأن رزقكم في السماء وما توعدون . ويدعو الناس من اجل السعي الى مرضاة الله والتهيؤ للآخرة :

خلد لنفسك فى العقبى ذخيرتها وراع عمرك إن العمر منتهب (١)

ويحاول ان يجد عيباً لقول الشعر فيأخذه عن القرآن الكريم :

كفى الشعر ذماً أن للشعر قائلا وما هو الا قائل غير فاعل (٢)

ونجد في كثير من قصائده الروح السمحة الرقيقة التى تريد الخير للناس :

فتنة الناس ، وقينا الفتنا ، باطل الحمد ، ومكذوب الثنا
رب جهم حوله قمراً وقبيح صيراه حسنا

ويخاطب المصلح ويدله على العيوب ، ولا ينسى ان يشير الى عيب فيه ، فيقول :

ايها المصلح من أخلاقنا أيها المصلح ، الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حتى أنا

ويشير الى هذه العيوب وهذه المفاسد ، وهي مما نهى عنه القرآن الكريم كالتنابز بالالقاب وأن بعض الظن اثم فيقول :

---

(١) الديوان ص ٦٦ — ٦٨ .

(٢) الديوان ص ٦١ .

لم تزل ـ ويحك يا عصر أفق ـ　　عصر ألقاب كبار وكُنى
حكم الناس على الناس بما　　سمعوا عنهم وغضّوا الأعينا
فاستحالت، وأنا من بعضهم　　أذني عيناً وعيني أذنا

ولما وجد البلاد محتاجة الى الاصلاحات وألفى التواكل بين الناس قد استحال الى جناية لا يقرّبها الجاني قال:

إنما نجني على انفسنا　　حين نجني ثم ندعوا من: جنى(١)؟

وتربيته الدينية ومقامه الكبير وشعوره بالمسؤولية جعلته عند طبع الديوان حذراً في غزله، فلا يقول الا بمقدار، فما اختار في الديوان الا العفيف من اللفظ والشريف من العبارات، فلو قرأنا شعره الغزلي في الديوان لوجدنا الروح الدينية تسيطر عليه فيقول:

اذا الشك إعتراك بكل شيء　　ورابك في الوجود وساكنيه
ثق بهوى تبوأ من فؤادي　　مكاناً لا يليق الشك فيه (٢)

ويخضع الحب للمسائل العقلية فيقول:

وخيراً من الجزع المستمر　　أرى الصبر، عقبى الصبور الظفر(٣)

فهو يرى ان الصابر لا بد ان يفوز جزاء صبره ثم يقول للمحب:

ما كفاكم من امتحان المحب　　أن تجافى عن المضاجع جنبي؟

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .
(٢) الديوان ص ١٤٤ .
(٣) الديوان ص ١٥٣ .

هل أسال البكاء عيناً كعيني ؟ أو أذاب الفراق قلباً كقلبي ؟(١)

وكأني به يرى سهره الطويل ومسيل الدموع من عينيه وذوبان قلبه بالفراق ، من الأشياء الكبيرة عليه ، وهو لا يصف ما يعانيه ، وكأن القضية عنده من شئون المنطق والعقل ، ولما يريد اقناع حبيبه يقول له ان الذي يشتاقكم قد يسلوكم ، ولكنني لا اسلوكم لأني أحببتكم :

لقد يشتاقكم غيري ويسلو فهل أسلوكم وأنا المشوق (٢) ؟

ويقول للحبيب :

اتظن أني في أسارك نائم ؟ أنا ماشهدتك لا أريد فكاكا (٣)

وقد تجلت سيطرة عقله على قلبه بقوله :

قلبي يريد بلا غب زيارتكم والعقل ينهاه الابعد إغباب

قضية بقياس الروح موجبة وللنهى جنبتا سلب وإيجاب(٤)

ويقول :

إني لأكره سلوتي ، أما الهوى ـ وعيونكم ـ ، فأحبه وأحبه

وبليتي في الحب أني أينما وجدا الجمال وجدت اني صبه(٥)

ومن رقيق غزله قوله :

أما لأسير في هواك سراح وهل لتباريح الفؤاد براح ؟

---

(١) الديوان ص ١٥٧ ونشرت في مجلة الحرية سنة ١٩٢٤ وحذف منها بيتاً .
(٢) الديوان ص ١٥٥ .
(٣) الديوان ص ١٥٠
(٤) الديوان ص ١٣٧ .
(٥) الديوان ص ١٣٥ .

أجل، سلمتك العاشقون قلوبها ... وما فوق تسليم القلوب سماح
اذا بدأوا يستعطفونك عاودوا ... وان بكروا يستطلعونك راحوا
هَوُوا فاتقوا بث الغرام فأضمروا ... فخانهم الصبر الجميل فباحوا
يحبّون وخز النُجل وهي صوارم ... وطعن القدود الهيف وهي رماح
خليلي ما أحلى الغرام سجية ... اذا كرّمته عفة وصلاح (١)

فالغرام يجب ان يكون عفيفاً نزيهاً وهنـــا نجد أثر الشعر القديم ظاهراً في شعره، كالغدو والرواح والبكور والصوارم والقدود، ومن طريف شعره قوله:

هل عند من أسهروا ألاّفهم خبر؟ ... في الليل طول وفي اجفاننا قِصرُ
دجت ليالي محبيهم وآنسني ... ليل تضيء حواشيه اذا ذُكروا
يومي أصيل اذا وافت بشائرهم ... وليلتي كلها من رقة سحر
طيف الكرى اثر منهم قنعت به ... بكفي من العين - اذا لم توجد - الاثر
هذا نصيب من الدنيا خُصصت به ... أم صدفة الدهر أم هذا هو القدر (٢)

هذه دراسة سريعة أرجو أن أكون فيها قد اعطيتكم صورة واضحة عن شاعرنا (مد الله في عمره). (٣)

---

(١) الديوان ص ٤٠ .

(٢) الديوان ص ١٤٣

(٣) لا يفوتني ان اذكر ان الشيخ محمد حسن آل ياسين نشر قصيدتين للشاعر في مجلته الزاهرة (البلاغ) في العددين الرابع ص ٤٨ والخامس ص ٤٠ السنة الاولى، ولاحظ (البلد) الغراء للاستاذ عبدالقادر البراك لسنة ١٩٦٦ .

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

محمد علي اليعقوبي

[illegible]

مقدمة

بقي العراق تحت الحكم العثماني حوالي اربعة قرون وناله مانال الأنبراطورية العثمانية من تأخر وانحطاط ، ولم تدخل المطبعة هذه الانبراطورية التي هي اساس الثقافة الا بعد استصدار فتوى شرعية بدخولها وعلى شرط أن تطبع الكتب غير الدينية .

وقد سبقت مصر وسورية ولبنان البلادالعربية الاخرى في نضالها عندما دخل الفرنسيون تلك الديار محاربين او مبشرين ، فرأت ما لم تره في العهد العثماني من علم وثروة وقوة .

أما العراق فقدبقي متأخراً عن الركب العربي يغط في سبات عميق ، فأخذت الثقافة والادب واللغة في الضمور يوما بعد يوم حتى انحصرت في بقاع محدودة معدودة كالمساجد والمدارس الدينية في النجف الاشرف والموصل وبغداد كانت اقباس من نور ضئيل يأنس اليها الواردون من اصقاع العالم لأغراض دينية وطلباً لكسب الرزق ، ولم يكن في هذه المدارس غير تيارين اثنين هما :

التيار الذي اتصل بالحياة التركية في بغداد والاستانة وسار في طريق فرضته عليه مثل واهداف واتجاهات تتلاءم ورغبات حياة الولاة والحاكمين .

التيار الذي انعزل عن الحكم وانضوى تحت راية اخرى حريصاً على كرامته خائفاً وجلا لم يثق بالحاكمين واغراضهم ومقاصدهم .

وبين هذين التيارين كانت تتأرجح حياة الادب العربي في العراق حتى

اوائل القرن العشرين ، واستوى في ذلك الموصل والكاظمية وكربلاء والبصرة وسامراء وبرز شعراء فى هذا العصر تختلف جودة شعرهم باختلاف ثقافة الشاعر وقدرته على فهم الحياة ومدى تأثر المجتمع فيه (١) مثل عبد الغفار والاخرس وحيدر الحلي وجعفر الحلي . (١)

وفي اوائل القرن العشرين ظهر تيار جديد ثالث امتاز بتأثره بالثقافة التي وردت من مصر وسورية ولبنان . فقد كانت الجرائد العربية تصل العراق فيقرأها المتعلمون والمثقفون وكانوا يتفاخرون بانهم من قراء الهلال والمقتطف والمقتبس والمؤيد واخيرا الرسالة والثقافة فيتأثرون بما فيها من مواد مؤلفة او مترجمة . وكانت هذه الجرائد والمجلات نافذة واسعة اطلت على الثقافة الاوربية وغدت من المصادر الممتازة للثقافة العامة . حتى ان معروف الرصافى قال يوما عن جميل صدقي الزهاوي انا والزهاوي تخرجنا من مدرسة واحدة هي مدرسة المساجد ونقرأ المجلات المصرية فكيف زادت ثقافته على ثقافتي ؟ مما يدل على اثر هذه الجرائد والمجلات وخاصة المقتطف في تفكير الادباء آنذاك . واهم المصادر التي عوّل عليها الزهاوي في ثقافته العلمية مجلة المقتطف .

وقد كان للاحداث المصرية ـ وما تزال ـ اثر بين فى توجيه الرأي العام العراقي فعندما نشبت معركة السفور والحجاب ظهر صداها العميق في العراق فقد انشق العراقيون على انفسهم وصار قسم يهاجم السفور وقسم ينافح ويذود عنه . (٢)

هذه التيارات الثلاثة كانت تعمل عملها فى اوائل القرن العشرين وبقيت حتى

---

(١) ـ براجع ـ الشعر العراقي في القرن التاسع ـ الطبعة الثانية للتفاصيل .

(٢) في (الشعر العراقي الحديث) معلومات عن هذا الموضوع يلاحظ طبعة ١٩٦٥

الحرب العالمية الثانيـــة اي حتى ١٩٣٩ م حيث ظهرت تيارات جديدة لسنا بصددها الآن .

وبدت هذه التيارات واضحة المعالم عندما اختلف الادباء في العـــراق في اتجاهاتهم الفكرية وتسرب التيار الجديد في ادبهم ولغتهم فظهرت الذاتية والتجارب الفردية واضحة واصبح للمجتمـع جزء بين في انتاجهـم وأخذوا يبتعدون عن اسلوب القـرن التاسع عشر فالدارس يجد فرقا بيناً بين شعر محمد جواد الشبيبي ومحمدباقر ويلقى فرقا بين محمد سعيدالحبوبي ومن جاء بعده ويلاحظ اختلافا واضحا بين اسلوب شعراء هذا العصر كالرصافي والزهاوي وبين شعراء القـرن التاسع عشر كعبد الغفار الاخرس وعبد الباقي العمري والحليين وغيرهم من الشعراء .

ما مكانة الشاعر ؟

فما مكانة اليعقوبي بين هؤلاء الشعراء ؟ وما مقدار تأثر اليعقوبي بالثقافـة الجديدة ؟ ! وما اثر التيار النجفي في شعره ؟ وقبل الجواب عن هذه الاسئلة ينبغي ان نتعرف على طابع النجف وتياره . فللنجف طابع شعري امتاز بالرصانة والقوة وما زال يفضـل الالتصاق بعمود الشعر العربي جهده . ويعنى اكثره بالالفاظ عناية كبيرة تصل الى الحد الذي يضيع هذه القوة والرصانة احيانا .

مدرسة النجف

ومدرسة النجف مصدر رئيس لتيار غزيرمن الرثاء والحماسة والفخر . ولكن هذا التيار ما حاول يوما ان يتجدد بسرعة ويتحرر في اسلوب تناول المعاني فقد كررت المعاني فيه واعيدت الالفاظ في القصائـد والجمل في الابيات وعكف الشاعر على

التخميس والتشطير والمجاراة اكثر من عنايته بتطعيم شعره بشيء جديد، حتى لا نجد فرقا كبيراً بين شاعر وشاعر عاشا في فترة واحدة من حيث استعمال الالفاظ والنهج الشعري الذي يسير في ركابه الشاعر . ويبقى الطابع النجفي مسيطراً سيطرة كبيرة ما دام الشاعر مستقراً في النجف . فالشاعر النجفي كان يعجب بجعفر الحلي واسلوبه أكثر من اعجابه بالجواهري ومحمد صالح بحر العلوم ، ويهز شعر جعفر اعطافه وعواطفه اكثر من شعر الرصافي وشوقي وما زال جزء من شعراء النجف يعدون المكانة الاولى لشعراء تأخروا بمراحل عن ركب الشعر العربي الحديث ، وما تزال اغراض الشعر العربي محدودة متأثرة بالرثاء والفخر والحماسة والاغراض الفردية .

والشاعر النجفي يبرز ويقوى وينبغ متى ترك النجف واتصل بعوالم جديدة وتحرر من بيئة النجف وقد يسف كما سف بعضهم او يعلو ويشمخ مثل كثير ممن عاشوا في بغداد فنجد فرقا واضحا بين الفرطوسي واليعقوبي . فاليعقوبي اشد تأثراً بالادب والبيئة في بغداد منه في النجف فكانت ديباجته انصع من ديباجة الفرطوسي وشعر الدكتور عبد الرزاق محي الدين الحالي اشد اشراقا من شعره عندما كان في النجف واثر بغداد او الحضارة واضح في شعراء النجف الذين سكنوا بغداد لأن الشاعر النجفي مسلح بالثقافة العربية الاصيلة ومتى هضم الجديد فلابد ان يبز اقرانه .

التجديد والبيئة

اليعقوبي لم يترك النجف ولم يسكن بغداد ولكنه كان دائم الترحال والتجوال

فهو بين عاملين يؤثران في شعره . عامل النجف وعامل بغداد . يريد ان يتخلص من اسلوبه القديم ويريد ان يجدد عـــن غير قصد في ان يجدد وان يبدع ولكن الواجبات والتبعات التي القيت على كاهله تلزمه بالقديم لذلك نراه يتدفق مرات ويجمد مرة ولكنه اكثر تجديداً من كثير من انداده من شعراء النجف المعاصرين له .

السياسة والشعر

ان ابرز مشكلة في العراق هي المشكلة السياسية فقد اكتوى العراقيون باعمال الساسة وذاقوا العذاب والعلقم من السياسة في اكثر ادوار الحكم فاتجهـــوا نحو السياسة بكل جوارحهم ومـــلء قلوبهم فلا حديث لهم غير السياسة وقد اثرت السياسة في حياة العراقي ورزقه واثرت في حريته وفكره واسرتـــه . وان أهم حديث لدى العراقين هو حديث السياسة واحداثها لان السياسة حتى الخارجية منها تهزه . فهو يتألم للاحداث المؤلمة في البلاد العربية لانها تجري في أمته ويتألم للدول المسلمة لانها من دينه ويتوجع لأمم الشرق لانها شرقية . ويبكي على من مات في سبيل الحرية في كل مكان تأيداً لحرية البشر ولأنه مر بادوار كبتت فيها الحريات ومنع العراقي من ان يتلفظ بكلمات والفاظ حددت من الجهات المسؤولة فاية ثورة تحدث في العالم يؤازرها لانه يشعر بها ولانها تنفيس عن ثورة عارمة في اعماق قلبه فالباحث يجد الشعر السياسي في العراق له النصيب الاوفى والاوفـــر في الانتاج العام .

الوطن العربي

واليعقوبي نظم كثيراً في قضايا العرب وقد اجاد في هذا الباب فله شعر طيب كثير في فلسطين (١) وهو يذكرها بحرارة وألم ويتمنى لها الحرية والاستقلال ويحيي المؤتمرات التي تنعقد لاجلها ويصف جهادها وبلاءها واستغاثتها ويلوم العرب قائلا :

تشكو ولم نصغ للشكوى مسامعنا ذنب لعمرك منا غير مغتفر (٢)

ويحيي ارواح شهداء غزة وطبرية ويؤنب العرب الذين لم يبالوا بما حاق بفلسطين وما يحدث فيها من مآس تهز القلوب اسى ومرارة ولا يرى فائدة ترجى من (مجلس الامن) انما القوة وحدها ترد الوطن السليب لاحضان امه البلاد العربية وقد نظم قصيدة اثر هجوم اليهود على قطاعي غزة وطبرية واستشهاد جماعة من العرب فقال فيها :

ما لفلسطين ان دعتكم لم تُلفِ عونا ولامساعد
حقوقكم تستباح فيها بين أولي الغدر والمكائد
تسفك فيها الدماء طوراً وتارة تهتك المعابد
مافي الدعاوى التي اقيمت في مجلس الامن من فوائد
لاخير في الحر لم يناضل دون مباديه والعقائد (٣)

ومن جميل شعره فيها الذي يسيل عذوبة ويستحيل ثورة :

يا شقيقي في الهوى عرج معي لنرى حال فلسطين الشقيقة

---

(١) ـ الديوان ص ١ ـ ٢٤ وقد افرد لها جزء سماه الفلسطينيات افتتح بها ديوانه .
(٢) ديوان اليعقوبي ص ١٩ مطبعة النعمان ١٩٥٧ ـ الجزء الاول .
(٣) الديوان ص ٢٣ .

واعني في المواساة اسىً فرفيق المرء من واسى رفيقه
كم دم زاك اراقوه بها احرام دم عيني ان اريقه ؟(١)

ويفرد جزءاً لجهاد المغرب العربي (٢) يندد فية بسياسة فرنسة الاستعمارية بعد ان يشهد مجازر الغرب فيه فيقول :

أرأيت هاتيك المجازر ؟ ما بين تونس والجزائر
اي النواظر لا تفيض دماً ؟ على تلك المناظر !
وعلى مراكش ان مررت فثم تنشق المرائر
ما بين تلك وهذه دارت على العرب الدوائر
ما حال شعب وادع اضحى يحكم فيه جائر
وامضّ ما اقترف اللئام من الجرائم والجرائر
هدروا دم الاحرار فيها (م) واستبيح حمى الحرائر (٣)

وقد امتاز اليعقوبي بالجرأة اذا ماقيس بالمعاصرين من شعراء العراق فقد نظم في احداث سياسية ابتعد عنها شعراء الجيل الماضي ومن هؤلاء من تنكر لما نظم ولم ينشره عندما طبع ديوانه فاذا استثنينا الرصافي فلا نجد من تجرأ على ذكر حوادث ١٩٤١ مرة اخرى ، بعد ان ذاق معاصروها من الاعتقال والتشريد ونظم في الثورة العراقية . وقد نشر الشاعر قصيدة في انتصار الجيوش العثمانية في الدردنيل بعد ان ذهبت الدولة العثمانية وسجل انتصاراتها لانه كان مؤمناً بان الانتصار عليها في عهده معناه القضاء على الاسلام ولم يكن الشاعر مخطئاً فان الغرب

---

(١) الديوان ص ١٧ .

(٢) الديوان ص ٢٥ ـ ٤٠ وقد اسماه (جهاد المغرب العربي) .

(٣) الديوان ص ٢٩ .

حارب الاسلام باعتباره الركيزة العظمى التي تجمع الشرق فقال :

لا سمح الله ، لمحو الاسلام يقتادها الكيد به والعدوان
وللوغى في الدردنيل انباء
يوم اذقنا القوم ذل الهيجاء
بالامس كانوا وهم الاعزاء
واليوم عنه اندحروا اذلاء وهكذا قال اهل الطغيان(١)

وللشاعر قصيدة هاجم فيها العدوان الثلاثي بينما تجنب كثير من الشعراء ذكر إنكلترة ، وعير الشاعر إنكلترة وهاجمها بعنف وسخرية فقال :

ألندن تحمي الشعوب الضعاف وفيما ادعت كذبت لندن
وتعلن في حبها للسلام وتكتم غير الذي تعلن
وتضمن حرية المعتدين وحرية العرب لا تضمن
لقد عاهدت نفسها ان تسيء لكل حليف لها يحسن
ألم يكن الغدر من شأنها ونقض العهود لها ديدن
سياستها كالرماد الذي سنا النار من تحته مكمن (٢)

والدفاع عن السلام من أهم الاسباب التي اتخذها حزب العمال ذريعة للهجوم على مستر ايدن خلال العدوان ، فقد كنت في اثناء الازمة في لندن ووقف كل من مستر (بيفان) و (اديث سمرسكل) النائبان في مجلس العموم في ساحة (الطرف الاغر) منددين بسياسة (ايدن) وقد اشتركت (الديلي ميرور) بمقال

---

(١) الديوان ص ١١٣ نظمت بمناسبة انتصار الدولة العثمانية في الدردنيل وفي الكوت وله أبيات في انتصار الكوت ص ١٩٦ من ديوانه .

(٢) الديوان ١٨٠ .

افتتاحي بهذا الهجوم نددت فيه بسياسة (ايدن) فقد وصل (ايدن) الى الحكم باعتباره داعية من دعاة السلام و لكنه هدم سمعة بريطانيا دوليا عندما استعمل القوة في حل مشكلات بريطانيا مع العرب .

لم يضعف شعر اليعقوبي السياسي لانه لم يكن موظفا ولم يلتو فى معالجة المشكلات السياسة كما التوى الشعراء الموظفون و كما ضعف شعر حافظ ابرهيم ايام كان في دار الكتب المصرية . لان اليعقوبي متصل بالشعب اتصالا مباشراً فهو قريب من الشعور العام .

لاشك في ان اليعقوبي بدل بعض الكلمات وحذف بعض الكلمات من قسم قصائده و لكنه مع ذلك فالحذف والتبديل لم يفقده صراحته ومعانيه التي أرادها فهو يحيي جمال عبد الناصر تحية اعجاب واكبار ويشرح لنا مشكلة قناة السويس والسد العالي في وقت كانت الحكومة العراقية ضد سياسة مصر ورئيسها ، وذكر النصر الذي احرزته مصر في هذه المناسبة فقال :

اعادت عهود الشرق نهضتك الكبرى   فلا برحت في الدهر خالدة الذكرى
تحييك بالبشرى وتهتف بالثنا   بلاد ترى الدنيا تحييك بالبشرى
بيوم وجوه الغرب فيه عوابسٌ   واضحت ثغور الشرق باسمة ثغرا (١)

والملاحظ يرى ان اليعقوبي لم يتأثر كثيراً بالحياة الاجتماعية وكأنه عاش فى محيط غير محيط النجف فما استفزته مشكلات الفلاح والفقر والمرض والجهل كما استفزت الصافي والجواهري والشرقي وبحر العلوم وكأنه لم ير مشكلة المرأة التي خاض غمارها الشعراء في عصره كالرصافي والزهاوي ومحمد جواد الشبيبي

(١) الديوان ص ١٩٠ .

وعبد الحسين والازري وخيري الهنداوي وعبد الرحمن البناه . وان الاشارات التي اشار اليها في الديوان (١) ما هي الا معالجات سريعة ذات الفاظ عامة عالجها كما يعالج اي شاعر من شعراء العصر والواقع ان الشاعر اعطانا صورة صادقة للفكر الذي يعيش جانبا منه ولم يعط للمشكلات الاجتماعية المكان اللازم في شعره وشعوره لشدة اهتمامه بالسياسة ومشكلات الامة الاخرى ويبدو اثر القرآن الكريم واثر الشعر القديم في شعره واضحا فهو يستسقي الغمام لقبر والدته فيقول :

لك الله مقبورة لاعدا ثراك ملث الحيا الماطر (٢)

وعندما اراد ان يظهر شوقه لوفد الكشاف السوري قال انه يشتاقهم مثل شوق رياض الحزن للمطر وهو تشبيه رائع في منطقة النجف فقد قال :

هذا العراق على بعد يشاطركم بالشام في كارثات الدهر والغير
يشتاقكم كل قلب من شبيبته مثل اشتياق رياض الحزن للمطر (٣)

واذا تفاقم الامر قال :

(ذهب القواضب والاسل) (٤) وان السيف لا يزال يضرب بحده ويسل (٥)

وعندما تحدث عن فلسطين قال عنها :

(والسيل بلغ الزبى) (٦) (وسبق السيف العذل) (٧)

---

(١) الديوان الصفحات ٤٥ و ٥٢ و ٦٦ و ٧١ و٨٨ و ١٠٥
(٢) الديوان ص ١٥٢
(٣) الديوان ص ١٨
(٤) الديوان ص ١٥
(٥) الديوان ص ١٤
(٦) الديوان ص ٥
(٧) الديوان ص ١٥

وتحدث عن قتال السويس وبور سعيد فذكر شعيب ومدين :

ولم ينج إن صب سوط العذاب ... عليها شعيب ولا مدين(١)

وذكر فرعون وعصا موسى وقال عن الانكليز وجمال عبد الناصر ·

فراعنة كادوا البلاد بسحرهم ... فكنت عصا موسى التي تلقف السحرا (٢)

ومن لطيف شعره :

يا مصر ان نأت الديار فبيننا ... حبل العروبة لم يزل موصلا

الدين والاخلاق تجمع بيننا ... لانبتغي عوضا به وبديلا (٣)

وليست هذه الا المامة سريعة بشعر الشاعر ارجو ان أوفق على ابراز حياته وشعره في دراسة أكثر تفصيلا .

وأرى ان يكرم شاعر نابطبع شعره كله فقد بذل عصارة قلبه وذهنه في سبيل امته وسبيل سعادة وطنه . فحق علينا ان نكرمه ما يستحق من تكريم .

---

(١) الديوان ص ١٨١

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠ .

(٣) الديوان ص ٤٩ .

« المثاني » ومحمد الهاشمي

حياة الشاعر (١)

ولد الاستاذ محمد الهاشمي فى بغداد سنة ١٨٩٨ فى الكرخ، ونشأ فى أسرة تثقفت بالثقافة المتعارفة في ذلك الوقت، وهي الثقافة الدينية والادبية، وتعلم القراءة والكتابة والقرآن على والده، ثم وهو حدث لقنه أخوه الأكبر النحو وشيئاً من اللغة وحمله على أن يحفظ مقصورة ابن دريد، وكان وهو صغير السن، يناقش الكبار ويغلطهم في النحو حتى عجبوا منه. ودخل المدارس الابتدائية زمن الحكم التركي، وهي «ابتدائي ورشدي»، وكان جل أساتذته عرباً ومنهم حمدي الباجه جي، وعبد الله سلام، ونعمان الأعظمي. ثم دخل المدرسة السلطانية فلم يرقه التدريس فيها باللغة التركية. وعُني بالأمور السياسية، واتصل بجماعة من الساسة، منهم يوسف السويدي، ومزاحم الباجه جي، وحمدي الأعظمي. وكان من ضمن الذين يوزعون المناشير السرية الداعية الى تنبيه الحس العربي ضد الحكم التركي. وكانت هذه المناشير تصل الى بغداد سراً من الجمعية العربية في باريس ومصر. وقد صار، وهو دون الخامسة عشرة، داعياً من دعاة القومية ومعادياً لحكم الاتحاديين الاتراك، وقد برع في قرض الشعر وهو صغير، ومما نشر له حينئذ قصيدة كانت فى الدعوة الى اتحاد المسلمين. نشرت فى جريدة «عالم الاسلام» فى تركية سنة ١٩١٢، وتناقلتها بعض الصحف فى بيروت وتركية. وسيق الى المحكمة من أجل قصيدة له ضد روسيا، نشرت فى بغداد في جريدة «الرياض» لسليمان الدخيل، وفيها بيت فى هجاء القيصر هو:

يا قيصر الروس شل الله عرشك هل ... علمت منقلب الظلام اذ ظلموا

(١) المعلومات مستقاة من الشاعر نفسه.

ثم سيق الى المحكمة من اجل قصيدة نشرها في بغداد ومنها هذا البيت :

تركوك يا لغة النبي وآثروا — في المسلمين سياسة التتريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر، وقبل تنفيذ الحكم سافر الى مصر للدراسة فيها، وذلك سنة ١٩١٣، ومكث هناك ست سنوات، كانت قاسية عليه، لما عاناه فيها من الفاقة والوحدة، واضطر الى أن يعتاش على نسخ الكتب وبيعها، ودرس فى الجامع الأزهر، ولم يتم دراسته فيه، وعاد الى بغداد، وكان نظم شعراً كثيراً في غربته بمصر، تألف منه ديوان، وطبعه بدمشق سنة ١٩١٩ بعنوان « عبرات الغريب (١) » . ودخل مدرسة الحقوق ببغداد سنة ١٩٢٠ واشتغل بالمحاماة واصدر مجلة « اليقين » لثلاث سنوات، وألقى شعراً وطنياً في حفلات سياسية كثيرة، وتعرض من جراء ذلك للأذى كقصيدته التي القاها في « رويال سينما » سنة ١٩٢٤ ومنها :

كذبتم مالكم في الأمر شيء — فقولوا إننا شعب عبيد

نهضت فقيل اي فتى فلما — خبرت الامر أعجبني القعود

واشتغل الهاشمي موظفاً بوزارة الدفاع، ثم كاتباً بالبلاط الملكي، ثم مدرساً بدار المعلمين الابتدائية، ثم بالثانوية ؛ وفى سنة ١٩٢٧ ترك التدريس، وانخرط في سلك القضاء، وكانت آخر وظيفة له فيه « رياسة مجلس التميز الشرعي » وأحيل منها الى التقاعد .

---

(١) وله من الشعر غير ذلك « سمير آميس » اسطورة شعرية طبعت عام ١٩٠٩، و « المثاني » نحن بصدده الان . وترجمة « رباعيات الخيام » وهي معدة للنشر. وله كتاب بارع فى حديث القضاء اسمه « القضاء بين يديك » طبعه سنة ١٩٥٧ وكتاب « حديث عن احسن الحديث » وهو مباحث فى القرآن الكريم ومقابلة أحكامه باحكام التشريعات الحديثة .

المثاني (١):

كنت أظن أن هذا الشاعر الفاضل قد ترك الشعر الى غير رجعة، وذلك بعد اشتغاله في القضاء، غير أن اصدار «المثاني» أثبت انه كان ينظم الشعر طول هذه المدة ولا ينشره. والمثاني مقطعات ذات بيتين، وكان اسمه قبل طبعه «أسورة من نحاس» لأن الشاعر يعتقد أن المرأة تلبس كل سوارين مرة واحدة، ثم بدل اسمه وجعله «المثاني». وهو ديوان ضخم ضمنه تجارب حياته الطويلة في السياسة والاجتماع والدين والاخلاق والتوجيه والغزل وغير ذلك مما مرّ بـه في الحياة الاجتماعية في المحيط العربي الانساني. ويحتاج الديوان الى دراسة طويلة لاظهار مكنونات هذا الشعر الغزير العميق، وسأكتفي بباب واحد أمرّ به مسرعاً اعرضه على القارىء الكريم، هو باب السياسة والثورات والعمل والعمال، لصلته الوثقى بالحياة التي يحياها هذا الجيل العربي المتوثب الثائر.

عالج الهاشمي المشكلات التي عاشها المجتمع من ظلم وتسلط الحاكمين بالسخرية من الملوك ورجال الدولة، فهو يقول مثلاً عن الملوك الذين يرضون بالمظاهر الكاذبة دون ان تكون لهم سلطة حقيقية:

تاج وعرش وعلم وفيك سيف وقلم
وصوت غوث كاذب لاصدق ان خطب ألم

ويقول إن مظهرهم مظهر الوقار والحكم، والواقع أن ابناء الشعب هم الملوك وأن الملوك هم الرعايا:

(١) طبع سنة ١٩٦٢

وملوك كرعايـا ورعايـا كملوك
ان رأوا عندك شيئاً من ثراء سألوك

ثم يعطينا صورة واضحة للدولة التي كان يحكمها هؤلاء الملوك ووزراؤهم ، فهم لصوصهم يسرقون أموال الشعب ظلماً وعدواناً ثم يلـوم الشعب الذي دعاهم لتسليم مقاليد الامور في بلاده فيقول :

ومملكة ومن نصبوا عليها لصوص يسرقون بلاعقاب
ومن خطأ الرعية ان دعتهم ملوكاً قابضين على الرقاب

ويقول فى وزراء الدولة :

نؤمل عدلاً منك في ظل دولة عليها لصوص هم لها وزراء
مشينا الى قدامنا فاذا بنا نرد الى خلف ونحن وراء

وأطـرف صورة لنظام هذا الحكم يرسمهـا الشاعر الهاشمي بقولـه :

حارسها لص وشرطيها لص ، فمانومك بين اللصوص ؟
مكان من يسرق في قصره مكان من يسرق بين الخصوص

ويسخر من استقـلال الحكومات التي جاء بهـا المحتل وأخذ يحكم البلاد باسمها :

أمة مضمحلة وبـلاد قيل فيها حكومة مستقله
كثرة الهاتفين بالكذب اخفت قلة الصدق از في الصدق قله

لأنها حكومات قامت على الرشاوي والمنح ، فيها لصوص بثياب ولاة يتحكمون في مصير البلاد :

قدمت قبل قضايا ك الهدايا والصلات
لولاة ليس يُدرى ألصوص أم ولاة ؟

ويسخر من دعاة العدل والحق فى دولة متفسخة محكومة من الأجنبي الذي لا يعرف غير المراوغة والغش والخداع والرشوة فيقول :

ما العدل؟ ما الحق؟ ومن أهله؟ الحكم للراشي والمرتشي
لا تبلغ الرتبة في دولة مالم تنافق أو ترغ أو تش

ثم يثور على أولئك الذين يمدون أيديهم للمستبد الظالم لأنهم يشجعونه على الاستبداد ويعدون نحو الظلم ، والنفوس الأبية الكريمة تأبى أن تمديدها للظالمين والمستبدين، والمجتمع المتفسخ فيه كثير من هؤلاء ، وهم الذين يدفعون الظالم والمستبد نحو الطغيان :

أرأيت أقذر من يد ممدودة للمستبد على الخيانة تبسط ؟
طال الحديث ولست تعلم منهم من كان أظلمهم ومن هو أقسط

والشاعر حرب على الأجانب والمستعمرين الذين أضلوا العراق وعاثوا فى أرضه فساداً ولم يدعوه يتمتع بخيراته ، فقد سرقوا نفطه وأمواله وتركوه دون أن يمدوا اليه يد المساعدة ، مع أن هذه البلاد بخير وأموالها وفيرة . . . وقد استغل العراق وأصبح سوقاً لتصريف البضائع الأجنبية التي جرت الى استعمار البلاد والسيطرة عليها ، وحث الشعب على الصناعة ، فهي مهما كانت تافهة البداية فستكون بعد فترة من الزمن ركيزة من ركائز الاقتصاد :

غزيت بلادك بالصناعة غزوة كانت تجر وراءها استعمار
في كل ما صنعت يمينك ثروة فاصنع ولا تملل ولا مسمارا

لأن طريق الاستعمار الاقتصادي يؤدي الى سيطرة سياسية فعلية لا ينفيها

غير البدء بالعمل الصناعي :

اصنع لنفسك آلة تنجيك من خطر الأجانب
من ههنا وهنا علي ك تحاوشوا من كل جانب

وما استعمار الشرق وانحطاطه الا لأنه متأخر صناعياً وعلمياً :

قد حرمنا ما صنعنا إبرة وانحطاط الشرق من جهل الصناعه

وقال :

لك من سلاحك عدة ومن الصناعة ألف عُدّه
جهل الصناعة شدة جرت وراءك كل شده

وقال :

ولا مثل علم بالصناعة قوة فناهيك من فن عظيم ومن علم
ألم تجدوا ان الصناعة ثروة تمدونها للشعب في الحرب والسلم

والنفط ثروة العراق التي يتمتع بها الأجنبي ، وهو من موارد ثروة العراق التي لا يستفيد منه أبناء الشعب غير الأذى :

ياسيدي لك النف ط ولا لي سيدي
اشعلته لا بيدي فاحترقت منه يدي

وقال للمفاوض او للحاكم الذي كان يحكم البلاد :

عوض عن النفط أو ساوم به كذبا النفط والدين والدنيا بدينار
ما كان ساومك النمرود في حطب ولم يساومك ابراهيم في نار

وتحدث فيما جر النفط على أهل عبادان من وبلات الاستعمار وقابل ذلك بحالة الشعب العراقي الذي فرضت عليه المعاهدة ليحافظ الأجنبي

على النفـــط :

وأحرق أهل عبادان نفط ... ومحترق به أهل العراق

معاهدة الأجانب فى لقاء ... كتبت بها الهوان بلا فراق

ويلخص مافي العراق من كنوز تغني وتسعد الشعب كله لو استغلت لمصلحة أبنائه ، ففيه النفط والتمر وخصب الأرض ووفرة المياه ومع ذلك فالعراق فقير متأخر جائع عار :

النفط ثروتنا والتمر ميرتنا ... والأرض عدتنا والماء وادينا

الحمد لله هذا كله وخلت ... من الحساب سوى الأصفار أيدينا

ومع ان فترة الشاعر فترة لم تكن تعني بالعامل قوة من القوى الشعبية ، فقد إهتم بالعامل بصورة عامة ، والتفت اليه التفاتة جميلة ، فقـــد طالب بأن يرفق به لأنه أجير وليس عبداً ، وينبغي احترامه ورعايته ، فقال :

أجيرك ليس عبدك فاحترمه ... ولا تنظر الى وسخ الوضين

فان يدنس له ثوب فدعه ... ليرخص ثوبه عرق الجبين

ويرسم صورة العامل ، انها صورة رجل دائب نشيط حاذق منصرف الى عمله كل الانصراف ، فيقول :

ما كل ما يتسمى عامل بطل ... لا يحسن الصنع الا عامل حرك

يمشي هنا وهنا في حذق صنعته ... لاالصدر يلهيه من جد ولاالورك

ويخاطب أولئك المترفين المتبطلين ، قائلا إن يد العامل هي أشرف من أيدي أولئك الذين لا يعملون ، لان العامل قوام الصناعة وقوام الاقتصاد في البلاد ، وشتان ما بين انسان يعمل وينتج ومتبطل يعيش كالطفيلي على كد العامل

ومجالدته فيقول :

وأشرف من أيديكم يد عامل　　بها ورم من طرقها ومجول (١)
صناعتنا فيها جهاز وقـوة　　نصـــول على باغ بها ونجول

وعد العمال المخلصين الحاذقين أنبياء العمل ان لم يكونوا أنبياء البشر .

وعلى الجهد المبذول في طبع الكتاب ، فقد تسربت اليه غلطات مطبعية كثيرة ولكنها لا تخفى على القاريء العارف ، أو الأديب المقتدر ، وفي الفصل الذي عرضته عليكم تكرار في بعض المقطعات مثل الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في صفحة ٣٢٩ تكررت في صفحة ٣٤٠ و ٣٤١ ، والمقطعات « الثالثة والرابعة والسادسة صفحة ٢٣٠ » تكررت في صفحة ٣٤٠ .

وكم كنت أتمنى أن لا يضم هذا الديوان كل ما نظمه الشاعر من المثاني ، فقد نشر فيه منها ما لا يساير شاعريته الأصلية ولا يصل اليها .

هذه اضمامة زهر من رياض المثاني ، أقدمها لأرباب الذوق السليم من الأدباء ليصيبوا منها ما شاؤا من عطر فواح ورأي سديد ، واسلوب رائق . وليت الوقت اتسع لي لأعطي هذا الشاعر الكبير حقه من الدراسة والنقد وعسى ان يكون هذا العرض حافزاً لغيري .

(١) « مجول » : أثر العمل في اليد وهو ان يكون ماء بين الجلد واللحم .

خيري الهنداوي

مقدمة(١)

يتفاوت الشعراء في الدرجات الفنية والفكرية فهم يتفاوتون في الانتاج ان كان غزيراً أو محدوداً وفي الجودة الفنية ان كان الشاعر قادراً على رسم الصورة الناجحة أو شبه الناجحة أو الباهتة . كما يتفاوتون في عمق الفكرة وسطحيتها فمنهم من يسبر غور الرأي ويمليه شعراً رائعاً ومنهم من يأتي المعاني فيلتقطها كما اتفق . ان التفاوت أميز في صدق المشاعر وكذبها فان كان الشاعر صادق الأحاسيس فهو أشعر من صاحب الصنعة المزيف ، وقوة السبك وجزالة الأسلوب غير البساطة في النسج والركة في التركيب .

ولا يقدر الشاعر على الخروج عما وهبته الطبيعة له ولا عن البيئة التي يعيش فيها فلابد أن يظهر أثرها في شعره مهما حاول الابتعاد أو التنصل من محيطه . فالشاعر الذي يولد في انكلترة في القرن العشرين غير شاعر العراق اليوم ولو انه عاش في بغداد وشاعر بغداد قبل خمسين سنة يختلف اختلافاً ظاهراً عن شاعرها اليوم . فان التباين الثقافي والفكري واضح بين شاعر وشاعر وعلى قدر هذا التباين يبدو عمق الأثر وسطحيته في كل العصور وكل البيئات . والأدب مجس دقيق للصدق والافتعال وميزان مضبوط للعقم والابتكار فاذا كان العصر عقيما متأخراً فلا يجوز لنا أن نطالب الشاعر باكثر مما عليه عصره وثقافته واحداثه فالأخرس من شعراء القرن التاسع عشر في العراق تفاوت فكرياً وثقافياً مع عبد الباقي العمري ولو انهما عاشا في عصر واحد وتأثرا باحداث هذا العصر ، والتميمي والحليان يختلفون اختلافاً

(١) احاديث اذيعت من بغداد .

ظاهراً ولو ان الثقافة واحدة والبيئة واحدة والأحداث واحدة .

فاذا أردنا ان نقارن اسلوب الاخرس او جعفر الحلي وما في اسلوبيهما من جزالة مع شعر البارودي لتفوق عليهما لانه كان واسع الثقافة ولان عصره كان اخصب من عصرهما فان اسلوبهما قوي الديباجة لكنه يدور في حلقة مفرغة وكل ما كان يقدر عليه الاخرس هو ان يجهد عقله ويكدح ذهنه لتوليد صور جديدة لا تخرج عن البيئة التي عاش فيها وان يتلاعب بالالفاظ لكي يبزّ معاصريه كعبد الباقي العمري ولكنه لم يستطيع ان يصل الى مستوى البارودي .

ولو سايرنا الحركات الذهنية لأي شاعر عاش في القرن التاسع عشر في العراق لما وجدناه الا محدود الافق بالبيئة التي اكتنفته وبالثقافة التي وصل اليها فهو لم يخرج عن البيئة التي اثرت فيه نتيجة للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في العراق اوانذاك .

على حين نرى البارودي الذي عاش في القرن التاسع عشر في مصر خرج من تلك الحبسة الفكرية التي عاشها قبله وعاد الى نفسه متمرداً على مجتمعه واحداثه وأخذ يتأثر باحداث العالم ويتفاعل معها لانه كان واسع الثقافة رحيب الافق وكان خير ممهد لشوقي ومن جاء مع شوقي وبعده .

وقد خلا العراق من شاعر يمهد للشعر العربي فيه لانـه ، لم يتأثر بالاحداث العالمية والتيارات الفكرية والثقافية التي كانت تضطرم وقد بقي القرن التاسع عشر يؤثر في شعراء القرن العشرين ووجدنا هذا الاثر واضحاً في شعر الرصافي والزهاوي والعبيدي والشبيبي وغيرهم من الشعراء لانهم كانوا في بدء القرن يريدون ان يكونوا مجودين بلاغياً او لفظياً اجادة تتفق ومثل القرن السابق وتقاليده .

ولم يصل اثر مصر وما تحمل من تيارات فكرية الا متأخراً ولم يتح للشاعر العربي فى العراق ما اتيح له من البيئة والثقافة الادبيـة في القاهرة الا عندما بدأ يقرأ فى المقتطف والهلال والمقتبس والمؤيد وأخذ ينفعل مع الأحداث الخارجيـة ويبتعد عن العزلة التي فرضت عليه ، وتجلت هذه الانطلاقة بتمييز المعايير والمفاهيم التي كان يعيش عليها الشاعر وتجلت بوادر الاختلاف بعد احداث تركيا في أوائل القرن العشرين واعلان الدستور العثماني اذ اخذ بعض الشعراء والمفكرين يذهبون الى تركيا والبلاد العربية فيرون ما لم يروه في بلادهم وأخذ الشاعر يشارك في الحيـاة العامة بمختلف تياراتها وأخذت مسارب التفكير الجديد تعمل في فكره ويجهد ان يراها في انتاجه فتوجه شعورياً وبلا شعور نحو الاختراع وتوليد المعاني والابتعاد عن التكلف العقلي والزخرفة البيانية ورصف الالفاظ وانطلق مع عاطفته وشعوره ووجدانه . لان الاحداث الجديدة لامسته وحياته وهزت كيانه وبدأ التفاعـل اواضح فى بيئـة مختلة التيارات ما بـين مسلم وعربي وانساني فعاش الاديب احداث العالم العربي ومشكلات المسلمين ومصائب العالم مما لم نجده الا في النادر في القرن التاسع عشر في العراق .

ولكن هل زالت كل رواسب الماضي وذهبت مسارب التفكير القديم بغتة من رؤوس الناس والمفكرين فى العالم العربي ؟ . والجواب استحالة حدوث هذا الامر لان الانسان لا يقدر بسهولة ويسر التخلص مـن كل ما يأتيه من القرون الماضية وخاصة ارباب الفكر لان المفكر لايقدر ان يعيش في فراغ فكري وروحي حتى يأتيه الجديد وعندما يأتي الجديد لابد ان يجد الفكر مشغولا قبله وعلى مقدار قوة الجديد واندفاعه ومقدرته على مزاحمة القديم تتوقف قابلية الشاعر الفكريـة

فالشاعر أراد أن يتخلص من قديمه وان يملأ روحه وفكره بالثقافات الجديدة والآراء الحديثة واشباع فكره بها وحاول التطور بانتاجه وادبه والتأثير فيه . فتباين الانتاج الجديد واختلف باختلاف الشاعر نفسه مع زملائه واختلافه مع شعراء القرن السابق .

وقد اثرت التيارات الفكرية في جميع الشعراء كما تغيرت الحياة عامة بعد ان اعلن الدستور العثماني وغدا العربي في العراق يشارك في الحياة السياسية والادارية وانضم الى جمعية الاتحاد والترقي وحزب الائتلاف واخذت الماحكات الفكرية تظهر بظهور الجرائد التي كانت مع الدولة وضد الدولة العثمانية ثم جاءت الحرب العظمى ودخل العراق في حوزة بريطانيا وتفتحت الاذهان على معايير جديدة واختلت المثل القديمة وتبلورت تلك الحياة القديمة مع الحياة الجديدة فكان نتاجاً غريباً متنافراً ثم جاءت مع الفتح آراء لم يكن يعرفها الشاعر من قبل وأصبحت له تجارب اختلفت عن تجاربه الماضية منها ما هزت كيانه وروحه ومنها ما ملأت قلبه بالحسرة والالم وبدأ نشاط فكري وسياسي ملحوظ في العراق اختلف باختلاف الناس فمنهم المؤيد للحياة الجديدة وما فيها ومنهم المعارض لها الساخط عليها . فقد شعر الشاعر بالاحتلال وأثرت جنوده في كرامته وداستها بلا رحمة أو حذر. فما مقدار هذه التفاعلات الفكرية وهذا النزاع بين التيارات في روح خيري الهنداوي ؟ للجواب على هذا السؤال لابد ان نبدأ من جديد مع الشاعر نفسه .

ولد خيري الهنداوي في القرن التاسع عشر وتشبع اراء هذا القرن وروحه وأفكاره وتياراته وشب عليها ونظم فى اغراض هذا القرن ومطالبه كغيره من شعراء عصره فى شعره المديح والرثاء والغزل وفيه اشادة في مواقف الحسين وآل

الحسين لانه عاش في بيئة اعتادت على اقامة مهرجانات لهذه الذكرى ولكن ما مقدار نجاحه في شعره في هذه الفترة وما مقدار التفاوت الفني بينه وبين جعفر الحلي وحيدر الحلي انا لا اشك في انه لم يقدر ان يصل الى ما وصلا اليه من الجودة والجزالة فان قدرتهما الفنية لم يصل اليها شاعر عاش في بيئة خيري الهنداوي ولأن ثقافته اللغوية والادبية اقل بكثير مما ينبغي للشاعر ولذلك لم يعش شعر الشاعر في حياته الأولى ولم يحتفظ به اذ لا بد ان اتلفه بعد ان رأى شعره اقل بكثير من شعر مادحي الحسين ولو كان من المرتبة الجيدة لاثبته في ديوان شعره المخطوط او نشره فيما بعد كما نشر شعره واذاعه ومع ذلك فقد استوى على سوقه شعرياً وغدا اديباً مبرزاً فاق كثيراً من شعراء عصره وقد كان له اسلوب ناجح في النثر فان مقالته المنشورة في مجلة المقتطف التي نشرها عام ١٩١٧ م تدل دلالة واضحة على قلم رصين واسلوب بارع وسبك متحرر يختلف تماماً عما كان مرسوماً للنثر في القرن التاسع عشر ومن عاصره فابتعد عن المحسنات اللفظية وتكلّف السجع ولو اتيحت له الثقافة الواسعة والعلم الكافي باللغة العربية وآدابها ولو انه استمر في دراسته وكتابته لكان له شأن مرموق بين كتاب النثر في البلاد العربية فاننا لو قارنا هذه المقالة مع ما كتب في جرائد العراق مثل جريدة صدى بابل ولواء الاسلام والرقيب والعرب فيما بعد لكانت هذه المقالة من المقالات الرائعة التي يندر ان نجد احسن منها .

وخيري الهنداوي شاعر موهوب له موهبة شعرية لكنه لم يرتفع الى درجة الفحول من الشعراء فانه لم يقدر على مسايرة شوقي وحافظ ولكنه سار شوطاً ليس بالبعيد مع شعر الرصافي وفاق في اكثر شعره شعر الزهاوي في اسلوبه وجزالته وفاقه الزهاوي بالمعاني والتوليد الفكري الجديد .

والسؤال الذي يتردد هو : لماذا لم يوفق خيري الهنداوي توفيـق الفحول من الشعراء ؟ وجوابي ان الشعـر معاناة ومران ولا تكفي الموهبة الشعرية على خلق الشاعر الفحل وانما يجب ان يصقلها طول المران وشدة المعاناة والدراسة المستمرة العميقة وسعة الافق الفكري . والموهبة الشعرية جزء من الانتاج الأدبي فمن الضروري التخرج على اساتذة اللغة والعلم واخضاع الموهبة للتجارب العلمية والفردية والدراسة قاعدة يسندها ويهذبها التلقي على شيوخ الادب أومدارسة الكتب ليكون الاديب ناجحاً في انتاجه وكثير من الناس يملكون الموهبة الشعرية ولكن القواعد الضرورية التي تسند هذه الموهبة اضعف من ان تقوم الشاعر وتسند هذه الموهبة . ولم يتح للهنداوي في حياته المدرسية الاولى ما يجب ان يسند هذه الموهبة الكبيرة فقد اتيح له التعليم الابتدائي ثم ان الشاعر كان شديد الكراهية والتبرم باهم أسس اللغـة العربية وهو النحو فقد قال عن نفسه (انني في كل هذه المدة التي درست فيها النحو والدروس العربية لم اكن أفقه شيئاً لاعتلاق نفسي بحب الشعر والادب لذلك لم تجد هذه القواعد لها محلا في دماغي وأظن ان السبب الجوهري في الامر طرق التدريس القديمة العقيمة) وأراد الشاعر ان يلقي اللوم فى عدم فهمه وكراهيته على طرق التدريس وهذه هي الطرق نفسها التي كان الرصافي قد حفظ بها النحو حتى انه سمي بالشواهد .

وواقع الأمر ان شاعرنا لم تكن له قابلية للفلسفة والمنطق وعلم الكلام الذي تقوم عليه علوم العربية وهذا الضعف دعاه الى التنقل من مدرس الى آخر بـل انه كان كثير الهرب من الدروس نفسها ومن جراء هذا الامر غدت ثقافة الشاعر اللغوية قليلة فقد قرأ شيئاً يسيراً من القرآن الكريم فى طفولته وقليلا من اللغـة

العربية ولم تتح له الفرص لاتمام دراسته التي تؤهله ليكون شاعراً من الطراز الاول لان والده الموظف كان ينتقل من مدينة الى اخرى فبعد ثلاثة اعوام قضاها مع والده في بغداد انتقل معه الى العمارة وبعد عام وبعض عام انتقل الى قلعة صالح ثم عاد الى العمارة وبعد شهور انتقل الى ابي صيدا في لواء ديالى ثم ذهب الى الديوانية وعفك وهكذا .

كل هذه التنقلات قد تكون حائلا دون الاستفادة والتزود بالعلوم والاستمرار على الدراسة فقد درس قليلا من النحو على مصطفى الواعظ والعربية على السيد حسين الملقب بالشرع ودرس على علاء الدين الآلوسي وقد كان الشاعر يريد ان يتم دراسته والاستفادة من وقته ليقوّم لغته ويهذب بيانه بعد ان احس بالحاجة الى ذلك فلما جاء الى الشنافية درس على الشيخ جعفر نصار شيئاً من النحو وقد قدر هذه الدراسة وعدها ذات اثر في نفسه وفي ادبه كما قدر دراسته على استاذه علي الطريحي اذ عد الفائدة منه كبيرة ثم تعرف على الشيخ محمد السماوي الذي شجعه على النظم وقد بذل في سبيل تقويمه كثيراً ونصحه في صقل شعره اذ لم تكن مبادىء شعره ترضي الشيخ السماوي واستمر حتى استقام عمود الشعر له والسماوي رجل فاضل وعالم من علماء عصره ولكنه لم يكن بقادر ان يجري مجرى فحول الشعراء .

وأرجح ان شعر الهنداوي ما ارتفع الا بعد ان تزود بالثقافة الجديدة التي تزود بها شعراء عصره وبعد ان اتصل بشعراء بغداد وبالجو الفكري فيها ولعل اتصاله بالرصافي والزهاوي اثر في ادبه فأثر الرصافي بجزالة شعره والزهاوي بآرائه وتجديده في المعاني وقد كان شديد الصحبة للرصافي ولم يكن ضعيف الصلة

بالزهاوي وبيئة بغداد وشعراء بغداد يؤثرون دائماً في كثير من الشعراء الوافدين اليها .

وقد كانت مجالس الادب حافلة بالشعراء وقادة الرأي وكانت هذه المجالس مدارس فكرية وأدبية تناقش فيها القضايا الأدبية والاجتماعية والسياسية وتتلى فيها القصائد وتنقد المقالات التي تصدر في الصحف والمجلات سواء في بغداد أو في البلاد العربية فقد كونت الصحافة العربية في مصر مدارس في العراق مثل مدرسة المقتطف والسياسة الاسبوعيه واخيراً الرسالة والثقافة التي كانت ميداناً لنشر شعر الشعراء ومقالات الأدباء من العراقين خاصة .

السياسة والقومية

كان العراق جزءاً من الامبراطورية العثمانية المسلمة وكان الدين الرابطة التي تربط بين العرب بالدولة . ولأجله كان العرب يتجاوزون عن الاساءة اليها اوالدعوة الى الانفصال عنها لانها كانت رمز الاسلام والمدافعة عنه وهي رمز الخلافة الاسلامية ووحدة المسلمين وبهذا الشعور كان العرب يؤازرون الدولة ويذودون عنها ويقاتلون في سبيلها فاذا ما حدث حادث لها يضج الشعراء العرب بالدفاع عنها والذود عن حياضها فعندما احتلت دول البلقان سلانيك قال خيري الهنداوي :

يا واطئ ذاك التراب ترفقا — فلقد شكا من وطئك الاسلام
رفقاً بوطئك انما تحت الثرى — قوم وان هانوا عليك عظام

ومن القصيدة :

نبأ تلعثمت الرواة بنقله وتعثرت بطروسها الاقلام

أمّ البلاد عليك من متوجع قطن العراق تحية وسلام

وقد بقي العرب مع الدولة العثمانية يذودون عنها ببسالة حتى شهد لهم جمال باشا نفسه وقال انهم (أدوا واجبهم بمنتهى الشجاعة والاخلاص) .

وحفظ لنا التراث الادبي شعر هؤلاء الشعراء فمنهم الرصافي وكاظم آل نوح وعبد الرحمن البناء ومحمد علي اليعقوبي ومحمد مهدي البصير ومحمد حسن ابو المحاسن وجميل صدقي الزهاوي كما وقف رجال الدين على مختلف نزعاتهم وقومياتهم يذودون عنها بالفتاوي والجهاد فقد جاء صالح الحلي الى بغداد ليحث الناس على مؤازرة الدولة وذهب الحبوبي مع المجاهدين ومات كمداً لخسارتهم ونجد اثر هذه النزعة واضحة في شعر محمد رضا الشبيبي وعبد المطلب الحلي وشكري الفضلي ومحمد حبيب العبيدي وعطاء الخطيب .

اما الهنداوي فلم نجد له ما نظمه في هذا العهد تلك الكثرة التي حدثنا عنها رفائيل بطي في كتابه الادب العصري ولقد اتلفها كما أتلف غيره من الشعراء شعرهم عندما دخل الانكليز بغداد او لعل العنصر الديني لم يكن عميق الاثر في نفسه بالقياس على غيره من الشعراء .

وقد كان العرب مع الدولة العثمانية وآزروا جمعية الاتحاد والترقي ثم أخذت تيارات القومية تتسرب الى نفوسهم عندما بدأت الدولة تفرق بين القوميات الاخرى واخذ الحزب الحاكم يقابل العرب بالاحتقار والتهديد بالقتل والموت فاتخذوا منه موقفاً غير الموقف السابق ولكنهم لم يفكروا بالانفصال عن الدولة رغم

من شنق منهم ومن أوذي من رجالهم وسجن من احرارهم وقد كان في الجمعية كثير من العرب من أمثال ناجي شوكـــة وياسين الهاشمي ورستم حيدر وفهمي المدرس ومحمد رضا الشبيبي . . . وباختلاف الجمعية أخذ العرب في التفرق فيما بينهم واختلفوا في اقطارهم كما اختلفوا في القطر الواحد عندما انقسموا الى احزاب وقد ساء الهنداوي هذا الأمر فقال :

غشى الظلم اقطار العراق بحزبه   على حين قد أفنى قواها التحزّب
وشق على ذاك الابي هوانهـــا   فقام يداوي جرحها ويطبب
وما زال يسعى مدنياً بخطابه   قلوباً لاخرى شط منها التقرب

ويبدو أثر الاعتزاز بالعرب وبالقومية فى اكثر شعره الذي حفظه ويتفوق الأثر العربي كثيراً على الاثر الاسلامي فهو ينتصر للدولة العثمانية ويذود عنها بشعره ولكنه يستند فى مهاجمة اعدائها الى التاريخ العربي والى المجد العربي والى العرب فهو يخاطب فتاة سلانيك الاسيرة بقوله :

ياهذه كفي الدعاء فقومنا   لو تعلمين عن الدعاء نيام
ماالقوم الاسحب صيف ارعدت   ثم انجلت بالريح وهي جهام
لاتستغيثي ليس (معتصم) بنا   كلا ولا فينا يعد همام

ولم اجد له شعراً تمسك فيه بالوحدة الاسلاميـــة وبالاستناد الى الدولة العثمانيـة لانها مسلمة انما استند الى قومـــه العرب وهو يذود عـن الدولة العثمانية بقوله :

لو ان قومي شاهدوا اليوم الذي   كثر الصراخ به وطار الهـــام
لأروا بني البلقان كيف ضرابهم   بل كيف يثبت فى الوغى المقدام

قومي اذا اشتد الضراب تخالهم نشوى وما غير الضراب مدام

وقد كان الهنداوي حريصاً اشد الحرص على التأكيد على كلمة العرب قومه وانهم اساس نهضة المجد فقال :

املي بقومي سوف تنهض نهضة للمجد يقصر دونها الصمصام
تبقى وان خلق الزمان جديدة لم ينتقض لجديدها ابرام

وقد كان هناك اتجاهان في الشعر العربي الاول الاتجاه الذى سار على طريقة القرن التاسع عشر والثاني الاتجاه الذى تبناه المجددون منهم والذين اثرت في شعرهم الحركات الفكرية والاراء الحديثة وساروا ومقتضى حياتهم الحديثة ومن هؤلاء الرصافي والزهاوي والشبيبي والازري فقد اطربهم العصر خاصة بعد اعلان الدستور العثماني واخذوا يندون بالحكم المطلق وقد عد رفائيل بطي السيدخيري من شعراء الشباب الذين تأثروا بالتيار الفكري الجديد وقال عنه (ولما تألفت جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العثمانية أوقف الاديب الشاب قلمه في نظم القصائد وكتابة الفصول في تحبيذ خطتها والدعوة لمبدئها حتى اذا ماانشقت على نفسها واسس حزب الحرية والائتلاف ظل هو ثابتاً على مبدئه مدافعاً عن جمعية الاتحاد منددا بخصومها الى ان تجلى له خطأه بانكشاف ضمائر الاتحاديين في اعمالهم وارادتهم بالعرب شراً ، فرجع عن فكره وانضم الى المجاهدين العرب في سبيل التحرر والخلاص) .

وقد كان اعلان الدستور بداية وعي جديد للعرب والعراقيين فقد انتشرت الصحف واخذت ترد اليهم الانباء التي لم يكونوا قد سمعوا بها فاثارت في نفوسهم انفعالات جديدة ودخلت المجتمع تيارات جديدة وتفتح الناس على حوادث جديدة كانت

بعيدة عنهم إذ أخذت هذه الجرائد تنشر انباء العالم واخباره وما يحدث على الكرة الارضية.

وقد كانت حفلات جمعية الاتحاد ثم انقسامها وفتح فروع لها في البلاد العربية وملاحقة الناس على الانضمام اليهـــا اموراً وجهت الناس توجيهاً جديداً ونبهتهم الى ما كان اكثرهم غافلين عنه .

بعد الحرب العظمى

تكلمت عن السياسة والقومية في شعر المرحوم السيد خيري الهنداوي وجئت على موقفه من الاتجاهات الاسلامية وجمعية الاتحاد والترقي التي وجدها بعد ذلك سارت في خط لم يرضه فازور عنها وابتعد ويبدو ان الشاعر لم يرض الدولة لاننا وجدناه في الحرب العظمى الاولى سجيناً في القلعة ولما تقدمت قوات الجيش البريطاني حاول المسؤولون التخلص منه بالقتل والقاء جثته في نهر دجلة بيـد ان الفوضى التي عمت بغداد من جراء تقدم الانكليز سهلت له الهرب قبل ان يدخلها الجيش الفاتح فاختفى في دار من دور قريب له في المهديـة ليقضي حياته في سجن اختياري كاد هذا السجن ان يودى بالبقية الباقية من صبره وجلده فقـد حاول مرات ان يتخلص من سجنه هذا وقد نظم في سجنه قصيدته زينب وخالد التي فيها يخاطب الدهر فيقول :

هو الدهر في اهليه ما شاء يلعب   فسيان عندي بشره والتقطب

يريني على عد الليـالي عجائبـاً   فلم ادر من اي العجائب اعجب

فلا خير الا وهو بالشر مقرن   ولا يسر الا وهو بالعسر مصحب

وقد وصف السجن الذى سجن فيه في القلعة وكيف اخذ اليه وما قاساه من سجانيه فقال :

ففاجأه من جند جنكيز ثـلة وجاءوا به قسراً الى الحبس يسحب
وزج بجب يكه العين ظلمـــة هو القبر ضيقاً أو من القبر يقرب
تعذبه الظُّلام جوعاً نهاره وفي الليل يقفوه الغرام يعذب

وقد علل سبب سجنه في هذا السجن الذي كان اقرب الى الجب المظـلم الكئيب بحبه لوطنه وللعراق ولانه لم يكن يسمح بالتهجم عليه وعلى ابنـــائه لأنه كان الدرع الواقي والمجن الذي يذود عن ابناء الوطن العزيز فقال :

لقد كان صباً بالعراق واهله يثوراذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن احسابهم وحقوقهم ويطعن في صدر العدو ويضرب
وهل ريبة ان ذب عن مجدقومه فتى عن بنيات العلا لا ينكب
اعدلاً يرى الاقوام حبس ابن حرّة يغار على مجد العراق ويغضب
اذا كان في حب الديار جريرة فكل فتى فوق البسيطة مذنب

ثم يدخل الانكليز العراق ويطلق سراحه ويأمن الخائـف ويهدأ المذعور ويصدق بالوعود التي سمعها من الدولة المحتلة على لسان الجنرال مود الذي قال جئنا العراق محررين لا فاتحين ويندفع بكل قواه ويكتب في تأييد الانكليز مقالا يطفح بالاعجاب والتقدير للجيش الانكليزي والقوات الفاتحة فيعين موظفاً في حكومـة الاحتلال غيران الامور بدأت تتكشف له يوماً بعد يوم وبدأ الالم يدمي قلبه وليس له من سبيل للتعبير عن هذا الالم حتى تأتيه الفرصة بين يديه عندما يعقد الاحرار الثائرون في الحلة مؤتمراً ينددون فيه بالاحتلال البريطاني ويطالبـــون بالحرية والاستقلال وفاء للعهود التي قطعها على نفسه الجيش المحتل وكانت مراجل الثورة تغلي في الجامع الكبير في الحلة وقد أراد الحاكم الانكليزي ان يتخلص مـن هذه

الورطة فاوعز للسيد الهنداوي بالذهاب الى الجامع لتهدئة الحال معتمداً على مكانته بين الناس . . دخل الهنداوي والألم مكبوت في قلبه واللاوعة تتردد في صدره فاثارت الحماسة العارمة كوامنه فارسل نفسه على سجيتها واذا باتونه الخامد بركاناً يلقي حممه على المحتلين المستعمرين كانت مفاجأة لم يكن يتوقعها الحاضرون إنهافرصته الذهبية فقد عاد الى روحه والى مشاعره والى أمانيه فازاح كابوساً كان يجثم على صدره وشعر بالرضا والاطمئنان عندما وجد نفسه مع الاحرار فى هنجام منفياً . اثار المنفى فى نفسه أحاسيس الحنين الى ايامه الحلوة العذبة الممتعة على ضفاف الفرات وبدأت الذكريات تنثال عليه وتذكر نسيمات دجلة البليلة وأيام لهوه ومرحه فيها فقال :

اين هنجام من مرابع انس رنق القوم صفوهـا ترنيقا
فوق شط الفرات حيث يرف الـ ـماء عذباً والظل رطباً صفيقـا

لكنه مع ذلك نجدا لحماسة ونجد الاباء ونجد الاندفاع فى سبيل وطنه من غير أن يخشى النفى والسجن بل يرحب كل الترحيب به وبكل الخطوب مادامت تودي الى حرية الاوطان فقال:

مرحباً بالخطوب ان هي كانت سبباً موصلا اليـنـا الحقوقا
واحب الخطوب عندي حبس فيه تسطيع بالكرام اللحوقا
ان فى الحبس للفتى في سبيل الـ ـحق مجداً ، يعلو به العيـوقا
لا أبالي اذا خدمت بلادى أأسيراً رأيتني ام طليقـا ؟

وهذه القصيدة من غر شعره ففيها العواطف الصادقة العميقة ، ولو طال سجن الهنداوي لجاء بالشعر الذى يخلد هذه العواطف السامية كما خلدها البارودي عندما نفي الى سيلان بعد خيبة ثورته وعرابي فى مصر .

وشعر المنفى دائماً يكون معبراً صادقاً عن اصدق المشاعر وأنبل الأحاسيس وخير مثال شعر شوقي في الاندلس وشعر البارودى في سيلان والهنداوى في هنجام

الحكم الوطني

سيداتي وسادتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حدثتكم في حديث ماض عن السياسة في شعر السيد خيري الهنداوي حتى اعلان الدستور العثماني اذ كان اوانذاك عضواً في جمعية الاتحاد والترقي ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب العظمى الاولى وتم انزال القوات البريطانية في جنوبي العراق بدأت بعدها تتقدم نحو بغداد ولما وصلتها كان شاعرنا سجيناً ثم هرب من السجن واختفى عند قريب له في المهدية وقد وظفته قوات الاحتلال ولكنه لم يرق له ما قامت به من أعمال فارسل منفياً الى هنجام خلال الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ولما عاد من المنفى وجد العراق قد انقسم الى فئات ثلاث الفئة الاولى تطالب بأن يكون العراق ملكياً تحت تاج الهواشم ورشح الأمير عبد الله للعراق والفئة الثانية ترشح الشيخ خزعل أمير المحمرة أو اغا خان أو غيرهما وفئة ثالثة كانت تدعو الى تأسيس جمهورية في العراق وقد كان من المرشحين لحكم العراق طالب النقيب فمال شاعرنا اليه وقد كان ايده من قبل وحث على نصرته ورجاه ان يفيد العرب وكتب عنه يقول بأنه (قطب رحى الآمال العربية بالنظر لما كان يتمتع به في البصرة من نفوذ عظيم) وخاطبه قائلاً :

الى المجد قدها فهي للمجد تنزع   فقد طال ما ترجو وما تتوقع
لقد سمعت صوت النهوض الى العلا   فقامت على اقدامها تتطلع
فظلت وصوت المجد يملأ سمعها   مسهدة أجفانها ليس تهجـــع

سيداتي وسادتي

هذه الحماسة التي رأيناها قبل نفي الشاعر أخذت تفتر بعد عودته من المنفى ولعل خيبة الثورة أثرت في الشاعر وفي شعره ولم يكن الشاعر وحده الذي وقف هذا الموقف بعد الثورة العراقية فقد سيطرت الخيبة على اكثر الناس ، قادة وشعباً على حد سواء ، وشعروا بقوة القوات المحتلة وضراوتها تجاه شعب أعزل لايملك غير الادوات البدائية في القتال والايمان في حقه في سبيل حريته واستقلاله فتحول الهنداوي الثائر الى الشاعر الهادىء الحكيم الذي يرسل الحكمة ويبصر قومه بالنتائج التي ستؤول اليها البلاد اذا ثار ثورة مسلحة مرة أخرى فقد قال :

اذا قلت فانصت ايها الشعب واسمع   فلست امرءاً يلقي الكلام ولا يعي
أراك جهلت الحزم فاختلت أعزلا   وأنت بواد ـ لو تعقلت ـ مسبع
اذا رجع الاقوام في الغرب خدعة   رقصت على الصوت البعيد المرجع
وان لحت عيناك اصغـــر حادث   تنكرت لي حتى كأن لم تكن معـي

وبعد ان حذر الشعب من الثورة وبصره بنتائج الحروب رجاه التمهل والتريث وعدم التسرع فقال :

يمر عليَّ الآن صوت سمعته   بأيامك الاولى فأودي بمسمعي :

تعقل ومر ان كنت تطلب غاية | ودع عنك تلفيق الكلام المصنع
تبصر هـــداك الله فيما تريده | من الأمر واحذر عثرة المتسرع
وقيت العمى ما كل بيضاء شحمة | ولا كل وادفي الغوير بممرع

وهذا التراجع وهذه النصيحة التي يسديها شاعرنا الى الشعب وهذه النغمة الحزينة نغمة اليأس والخيبة من انهيار الآمال الحلوة تجدها فى شعر البارودي بعدان خابت ثورة عرابي بالحراب الانكليزية واذ كان البارودي قدقضى وقتاً طويلا في سيلان فان أيام شاعرنا كانت قصيرة لم تتجاوز السنة وقد اعيد الى عمله تحيط به هالة التكريم ولكن يبدو ان الشاعر لم يرض عن عمله الجديد لاننا نراه يبكي على عزه السابق فيقول :

سئمت ببغداد المقام لأنني | أرى لي فيها موقعاً غير موقعي
بكيت على عزي وما انا والبكا | لدى الخطب لولم يعصر الذل ادمعي

ويبدو طابع اليأس ومرارة الالم في هذه القصيدة لان طموحه لم يرض بالعمل الجديد ولم تسعفه الاماني بما يطلب فقال :

وان انكرت دار السلام مواقفي | ستشهد أقلامي عليها وأدرعي

وقد سكت شاعرنا فلم نجده يساهم في الحركات السياسيـــة والأحداث العامة التي مرت بالعراق وكانت الفترة التي اعقبت الثـــورة تضطرم بكل جديد فقد أسست الاحزاب والمجلس التأسيسي ومجلس النواب ومجلس الاعيان وتوج الملك فيصـل وانتحر السعدون ومرت عدة معاهدات كان الشعـر يسجل كل حدث يمر بـــه وكان يهاجم الانكليز والنواب والملك نفسه ولكننا

لم نجد للشاعر مساهمة مجدية في هذا المجال غير أبيات قليلة لا تتفق مع شعره الرائع وحماسته التي وجدناها قبل الثورة العراقية وقد كان حريصاً على الابتعاد عن الجو السياسي والانصراف الى شعر الخمرة والغزل والمداعبات ولولا انه اوذي لما نظم في ثورة ١٩٤١ ولعل آخر ما نظمه الشاعر والذى قرأته بخطه قصيدته التي يشيد بها في ثورة مصر سنة ١٩٥٢ والتي كتب انها تذكره بالثورة العراقية سنة ١٩٢٠ والتي يقول منها :

هبوا يلبون البلادا　　　شيباً وشباناً شدادا
نفروا يلبون النداكأن　　　داعي الحشر نادى

ويلاحظ ان الفخر قد ملأ اعطافه بالعرب قومه الذين هزوا العالم بهذه الثورة فقال :

تأبى الدنية انفس　　　ما ملّ عاتقها النجادا
قومي الأُلى هزوا الدنى　　　فاستيقظت تعدو اشتدادا
ملكوا الربى ووهادها　　　واستنطقوا الصلد الجمادا

ومن القصيدة :

ما مثل قومي فى الورى　　　حام عن الحرمات ذادا
المجد يشهد انها　　　أعلى بني الدنيا عمادا

رحم الله المنداوي فقد ظلمه عصره وظلمه اصدقاؤه والسلام .

نفحات من شعر خيري الهنداوي

وهذه النفحات من شعر خيري الهنداوي وهي نفحات عذبة من لواعج هذا الشاعر واحاسيسه ومن شعره الذي قاله في صباه وقد خرج من بغداد الى الصويرة صباحا ووصلها عند الغروب وفى القصيدة تسري روح الشباب وغرامه ولحونه وقوته وآماله فقد قال :

بت من نار لوعتي في حريق　　　باسطاً كف فكرتي كالغريق
اخرجتنى الى الجزيرة كرهاً　　　من دياري ورفقتي وفريقي
فوق مخـــارة تشق عباب الم　　　ـاء شقــاً بزفرة وشهيق
ذات كفين يقذفان مياه النـ　　　ـهر قذف الصخور بالمنجنيـق
رحلت بي من الرصافة والليـ　　　ـل يناجي الصباح قبل الشروق
واكف الشمال تنسج فى الما　　　ء دروعاً من النسيج الرقيق
فتبدي للعين قرن من الشمـ　　　ـس بدا من تلألؤ وبريـق
وارتقى صاعداً كجذوة نار　　　تتلظى على يفـاع سحيق
وكان الشعاع بين خلال الد　　　وح بيض تسلّ فى يوم ضيق
واستمرت ترقى قليلاً قليلاً　　　مثل مشي المقيّد الموثوق
فانبرت والعيون ترتد عنها　　　حسراً عند شدة التحديق
شربت للصبوح خمر ندى الشر　　　ق ومالت للغرب عندالغبوق
وتوارت في افقها كتواري الـ　　　ـخود فى الخدر من رقيب طروق

فأنتهينا الى مدائن كسرى   وهي تشكو مضاضة التفريق
وكأن الايوان حين تبدى   من بعيد خرق بجانب نيق
مشمخرٌ يلوح من كل فج   حيث ماسرت فهو قصد الطريق
يتنفى من الكآبة فى العـ   ين بقلب المـوله الموموق
فكأني أرى الحقيقة والملـ   ك مطلاً من فوق تلك الطوق
وصنوف الكماة تعرض والاجنـاد حسرى تصف في تنسيق
بين قوس ومغفر فوق درع   وسنان في جنب سيف ذليق
فتأسيت بالملوك والقيـ   ت قيادي الى المليك الحقيقي

ويتطور الدهر بالشاعر وتصعب الحياة أمامه وتكثر التجارب وتثقل كاهله الايام فينظر الى الحياة نظرة عميقة والى الحياة نظرة متزنة ونحس فى قصيدته انها مشتركة في بحرها ورويها وقافيتها لتشكل موسيقى وئيدة الخطى هادئة المسرى رزينة وقورة فقد قال :

سواء أساء الدهر أو أحسن الدهر   فسيان امسى عندى الحلو والمـر
تخطيتها سبعاً وخمسين حجـة   فما شط بي خير ولا شذ بي شر
قطعت دياجير الحياة فلا صدى   باغوارها قد اعوزتني ولا خضر
وخضت ظلام الحادثات فلم أخف   عثاراً رفيقاي التبصر والحذر
خبرت بها الدنيا اختبار مجرب   فما زادني الا احتقاراً لها الخبر
اذا قل مال المرء قل صحابـه   وان كثرت أمواله فهم كثر

وكل هذا ولم يفت في عضده مالاقاه من ابناء الزمان والحاكمين وانما زاده ايماناً بقدرته وقابليته وقال :

قعدت ولم تقعد عن المجد همتي ولا زال في عليائه الجاه والقدر
اذا مر ذكري في البلاد تأرّجت جوانبها واهتزت البيض والسمر
وان اصبحت خلواً من المال راحتي فقد ملأتها عزة النفس والكبر
سيفنى رجال الحكم مهما تعاونوا عليّ وأبقى خالداً أنا والشعر
اذا فخروا يوماً بقصر وضيعة فلي والندى في كل مكرمة قصر
وان هم أضاعوني أضاعوا مهنداً صقيلاً له في كل ملحمة أثر
تناسوا مقامي والأكف التي بنت صروح المعالي وهي من فيئها صفر
ولم يذكروا في ساعة الروع من قضى غداة أدلهم الخطب واستبهم الأمر
صمدت كليث الغاب لم يثنني الردى ولا مال بي عن ساحة الملتقى الذعر
وأصبحت في هنجام بعد تطاحن يقاسمني فيها الأذى رفقة طهر
فلم تثننا الأغلال عن عزماتنا ولا نال من إيماننا السجن والأسر
أقمنا على الأشلاء عرشاً ودولة تفديهما الأرواح منا ولا فخر
فكان جزائي أن أقيم بـ «حلة» تساكنني فيها البطالة والفقر
تطالعني فيها وجوه أعزة صغار وأخرى من عجائزنا صفر
أنا الأمل المرجو فيهم لآمل فوا أسفي قد خيب الأمل الدهر

وبعد ثلاثين سنة من خدمة الوطن الغالي كان جزاؤه الجحود والاهمال ونكران كل ما قدمه لهذا الوطن من خدمات ولكنه لم ييأس ولم يتخاذل مع أنه جاوز سبعاً وخمسين حجة انما كان له أمل باسم بان امته العربية لا بد أن تتحرر وتتوحد ولا بد أن يعود لها استقلالها فيجازى الجزاء الاوفى . فقال :

خدمت بلادي صادقاً غير كاذب　　　فجوزيت شراً حينما امتد بي العمر
سيغضب لي سادات قومي وفتية　　　لهم كمصابيح الدجى أوجه غـر
تضيء لنا طرق الضلالة والعمى　　　كشمس الضحى يعلو أساريرها البشر
ولا بد من صبح به ينجلي الدجى　　　فيسقط مهتوكاً عن الآثم والوزر
فيسود وجه البغي والعدل آخذ　　　بأبّته والحـق جذلان يفـتر

ولم يسكت الشاعر عن كل ما كانت تسلطه الايام عليه والحاكمون من اهمال وانما كان من المسارعين الى المشاركة في نصرة قوه٥٠ في مصر فقد قرأت بخط يده في ديوانه المخطوط قوله « أعادت هذه الانتفاضة الى ذاكرتي ثورتنا العراقية عام عشرين وتسعمـائة وألف وجعلت عنوانها الكار » والقصيدة برمتها نشيد من أناشيد الكفاح العربي التي لم تنشر فهي أشبه بموسيقى الجيش العائد من النصر ففيها وحدات موسيقية رتيبة متناسقة وفي الوقت نفسه فيها عنف الحق الغلاب والامل المشرق والاماني التي تحققت وكأني بالشاعر بعد أن خسرنا في العراق معركة الحرية سنة ١٩٢٠ قد أحال عواطفه وآماله الى الكنانة لان نصرتها نصرة العرب وفوزها فوز العرب وهذا ما لا يرضاه الحاكمون أوانذاك فهي روح التحدي وروح الغبطة والفوز تمرح ساخرة راضية . فقد قال :

هبّوا يلبون البلادا　　　شيباً وشباناً شدادا
نفروا يلبون النداء　كأن　داعي الحشر نادى
ملأوا الفضاء برحبه　　　رجلاً وصافنة جيادا
متقلدين　عزائماً　　　تستلهم الخذم الحدادا
الفوا المواضي البيض في الهيجاء والسمر الصعادا

بذلوا الطريف وأرخصوا في ساحة الشرف التلادا

تأبى الدنية انفس   ما مل‍ّ عاتقها النجادا

قومي الألى هزوا الدنى   فاستيقظت تعدو استدادا

ملكوا الربى وهادها   واستنبتوا الصلد الجمادا

قدمهدت احسابها   وبجهدها اعتلت الوهادا

لم يخلعوا منها التمائم   قبل أن يثنوا الوسادا

مامثل قومي في الورى   حام عن الحرمات ذادا

المجد يشهد أنهـا   اعلا بني الدنيا عمادا

وأراهم في النائبـــات يكف مقتدح زنادا

لم أنس يوم الرستمية حيث جيش الظلم بادا

وقفت منيته به   فيها فما اسطاع ارتدادا

اخذت مسالكه عليه   فلا محيد ولا حيادا

هذا صريع في الصعيد   وذاك قد القى القيادا

اسرى وصرعى همد   حصدتهم الايدي حصادا

ارجو ان أكون قدمت فكرة سريعة عن شاعرنا وأن اكمل مالا يمكن ذكره في كتابي الذي اعده عسى ان انصف اديبا مظلوما عاش في حسرة وألم (١) ·

---

(١) صدر الكتاب بعنوان (خيري الهنداوي حياته في شعره) وطبع في القاهرة سنة ١٩٦٥

عبد المحسن الكاظمي

نظرة في ديوان الكاظمي الثاني (١) :

شاعر العرب الاكبر المرحوم عبدالمحسن الكاظمي لم يكن كاظمياً أو عراقياً حسب انما كان عربياً شرقياً وقف شعره على أمته وشرقه وتغنى فيها بأجمل الأغاريد وأعذب الألحان . وتأريخ حياته معروف فقد وصل مصر هارباً من الجور ليغرد اغاني المجد على أفنان الحرية وينشد أناشيد الاستقلال التي زخر شعره بألوانها .

وديوانه الأول والثاني خير دليل وانصع برهان . وبالرغم من ان مصر الكريمة كانت وطنه الثاني إلا ان الحنين كان يعاوده الى العراق فنحس حنينه الذي يعتري كل غريب فتنتابه الذكريات الى أهله وعشيرته بقوله :

ألا خبر من ثنايا العرا ... ق يطلع أو زورة تطرق

هل الدار بعدي كعهدي بها ... يباكرها العارض المغدق

أم البين أسلمها للبلى ... وعاث بها الذئب والخرنق (٢)

وبعد أن يحرقه الوجد والحنين ينطوي على نفسه ويحز فؤاده الفراق ويدع الحشا تتلظى وجداً وحسرة وتتحرق جفناه من الوقوف على الديار ويسأل الدار

---

(١) نشرت في مجلة العالم العربي التي تصدر في القاهرة سنة طبع الديوان الثاني

(٢) الديوان الثاني طبعة دمشق ص ١٧ .

ولكن هل تتكلم الديار عندما يريد أن يستاف أخبار العراق .

أمعاهد الأحباب هل خبر — تسري به الأرواح ما تسرى(١)

وكيف من فارق بلاده على جوى ويحرقه الحنين ان يسلو أوطانه :

كلف : يحنّ وليس يألو — صبراً عن اللائين ولوا
قالوا سلا أوطانه — وأخو الصبابة ليس يسلو
ولقد حسبت أحبتي — فوجدتهم كثروا وقلّوا
وذكرتكم في حين قد — نسي الوداد أخ وخل
وجواك يا وطني له — ببواطن الأحشاء شعل
ذكراك يا وطن الصبا — ذكراي ارحل وأحل(٢)

أجل ان ذكرى الصبا عزيزة فاذا ناشدها واستنشدها وقال :

ناشد الدار جهرة وسرارا — ان اردتم عن الحمى استفسارا
يا أحباي والمزار بعيد — قربوا للمحب ذلك المزارا (٣)

وذكر الوطن الأول له في القلب منزلة سامية اذ أن حب الوطن يأتي من ذكرياته العذبة وأهمها أيام الشباب، والشباب حلوة ذكرياته وهذا ما نراه ونلمسه من حنين آبائنا الى ايامهم الماضية (٤) .

والكاظمي يذكر شرخ الشباب وعنفوان قوته فيه لهذا يطرق برأسه عندما تدور به هذه الذكريات العذبة وعهدها النضر ولكنها الطارقة الهموم المحزون

(١) الديوان ص ١٩ .

(٢) الديوان ص ٢١ .

(٣) الديوان ص ١١٦ .

(٤) وحنيني اليوم الى أيام كتابة هذا المقال .

القلق المبدد الفكر الدامي العينين المتصاعد الزفرات بعد أن ذهب المرح القوي ، مرح الشباب الجميل تخلف ذكرياته العذبة بين لوعة وحسرة .

أطرقت مهما دار في خلدي ذكر الشباب وعهده النضر
إطراقة المأموم وهو شج فلق الضمير مبدد الفكر
والعين دامية فادمعها تنهل من بيض ومن حمر
ولواعج الزفرات من صعد تمتد بين الصدر والنحر
قل للعذول اليك عن عذلي ذهب الغرام وانت لا تدري
رحل الشباب ورب مرتحل ولى وخلف اطيب الذكر(١)

وماذا في الشباب وأيامه ؟ الهوى والشباب هو الأمل المطلوب فيهما تغنى الجاهلي فى شعره وبهما افتتح قصائده . وشاعرنا الكبير هذا ديدنه في غزله الجزل الرصين مع رقة المعجب المتيم فهو يذكر الحمى وجيرانه وقد سار الأحباب في جنح الدجى لأن أحشاءه تسير في آثارهم وقلبه جارٍ من الفراق وعيناه تتبع أثرهم لأن السعادة ارتحلت وغدت ربوعه حزينة ثكلى . ويناشد الربع عن القطان الذين ارتحلوا فما ترد الاطلال جواباً وجوابها في خلوها ويعلل نفسه باللقاء فيقول:

بقربك كان سلوّي وقد فقدتُ ببعدك سلوانيه
ولولا التداوي بذكر اللقاء قضيتُ من الوجد في دائيه
ليرعاك خالص إخلاصنا وعين التفاتك لي راعيه(٢)

واسلوب الكاظمي اسلوب البدوي في مبنى القصيدة وفي معالجة المعنى فني

(١) الديوان ص ١٩ .
(٢) الديوان ص ٢٦ .

قصائده في المديح تجدهـــا قدمت بمقدمات غزلية ذات معان بدوية وتطول بك هذه المقدمة حتى تبلغ نصفها فهذه قصيدة عراقية قديمة يقول في مطلعها :

لك فى الحشاشة يا اميم مقيل   ربع أغر ومنزل مأهول (١)

نجده يذكر ارام النقا ويتطرق الى عزة وكثير وفي غيرها يحن الى نجـد ، شأن الشعراء الذين عاشوا فى العصر الجاهلي ولم أجـد الشيء الجديد في اكثر قصائده التي قرأتها فالخيال لا يحلق كثيراً ولـكنه لا يهبط أبداً فاكثر المعاني جاهلية مطروقة وتظهر المسحة البدوية فى شـعره العراقي اكثر (٢) ففي مدحه يذكر الغيث وغير ذلك من المعاني البدوية القديمة وهذه دلالة واضحة على سـعة اطلاعه على الأدب العربي القديم وعلوق معانيه بذهنه حتى رددهـــا بشعره . وكذلك تظهر بعض المبالغات فيه فقوله :

شهدت لك الدنيا ولما يستطع   انكار فضلك جاحد وكفور

في كل جيل من صنيعك منة   وبكل دار حامد وشكور(٣)

ورغم اننا نجد الذي قيلت القصيدة فيه هو الشيخ علي يوسف (٤) فانـه مهما اوتي من فضل ان تشهد الدنيا له ولا يستطيع انكار فضله أحد . انها مبالغة ظاهرة محببة الى النفس لأن فيها مظهر من مظاهر الخلق الرفيع انه مظهر الوفاء .

وقد تأثر كثيراً بالقدامى وظهر في حكمته التي كان يرسلها فى شعره فهو يقول:

من لم يكن بالجد يدرك قصده   لا الرأي ينفعه ولا التدبير

---

(١) الديوان ص ٤٣ .

(٢) طبع بعض العـــراقيات عبد الرحيم محمد علي . وطبع الدكتور حسين علي محفوظ (عراقيات الكاظمي) .

(٣) الديوان ص ٤٦ .

(٤) صاحب جريدة المؤيد في القاهرة .

لولا اختلافات المدارك ما اعتلى   منا عظيم واستكان حقير (١)

أخذه من قول المتنبي :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان

والطابع الخاص لقصائده لم يفارقه وهو طابع القوة وسلامة التفكير وتسلسل القول . وبالرغم مما يعانيه من دهره وصروفه من منغصات الحياة فقد جالد جلاد الابطال ولم يتوان في مسعاه فقد ابتلى بامراض عدة منها انه يتنفس برئة واحدة قضى التهابها عليه وهو الذي يقول :

هيهات يا دهر ان تخادعني   تغضي ولكن من غير اغضاء
تلين لا عن هوى لتنهشنا   كحية من الرمال رقطاء
أثقل ظهري عبء الهموم وما   احمل ظهري لثقل أعبائي
يا مالكي من جميع أنحائي   غدرت بي من جميع انحائي
حتام يا دهرنا تطالعني   بغارة من عداك شعواء (٢)

ويتطرق الى عمل الدهر من تفريق للاشقاء وفعلة شنعاء وسلب العزيز عزته والباس الذليل بردة العزيز . وحق للكاظمي أن يقول ذلك فقد وقف المرحوم شوقي في طريقه وسد عليه سبل العيش وأوغر عليه صدر الخديوي عندما أراد ان يعين له مرتباً فقد قال له «انسيت انه من انصار محمد عبده» فكتب اليه الكاظمي

---

(١) الديوان ص ٤٦ وله في الديوان الاول .

انما الخيل كالرجال فهذا   للمغاني وذاك للهيجاء

أخذه من المتنبي :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة   وان كثرت في عين من لا يجرب

(٢) الديوان ص ٣٥ .

ألست الشاعر الفـذ وقد أصبحت لا تشعر
ألا أيهـا المغـرور بالأوشاب لا تغـتر
لئن لم تنتـه اليوم وتخشاني كما تـؤمر
تجـد في قـلمي الأدهم ما في الذابل الأسمر
اطعني تحسـه حـلواً او اعصِ تشربنه مر
وراقب صولة الليث إذا همهم أو زمجـر
فوا عجبـاً من المعروف للفحشـاء والمنكر
فتب واسـتغفر الله فان الله قد يغفر (١)

أجل وقف فى طريقه حجر عثرة حتى ان المرحوم حافظ ابراهيم عندما ذكر موقفه بكى واختنق فى عبرته فلا تعجب ان ترى روح التشاؤم تشوب شعره من الاصدقاء فيقول :

فأحسنُ الاخوان ذو إخاء يمحضك الود بـلا رياء
لا يـبرح الأيام في وفاء يرضيك في السراء والضراء (٢)
إن كان هـذا فهو كالعنقاء

أجل قاسى شاعرنا ما قاساه من عبث الأيام وهو الشاعر العربي الكريم الذي يدفع الشر ويلبي دعوة السائل ويفرخ روع الخائف ويكرم المحتاج .

كم سـائل لبيت دعوته ودفعت عنه الشر بالشر
ومروّع سكّنت روعته وغمرتـه بالنائل الغمر
كم شدت للراجين من أمل وجبرت للعافين من كسر

(١) الديوان ص ١٢٤ .
(٢) الديوان ص ٣٢ .

حتى إذا افترس الزمان يدي ... ووقعت بين الناب والظفر
لم ألق ممن كنت أكلؤه ... لي كالئاً يأوى الى وكري
لم يبق لي في الدهر من جلد ... يسطيع حمل نوائب الدهر
ذهبت بصبري الحادثات فلا ... أ ـ فّ ـ أردده على صبري
لا تطلبن علالتي أبـداً ... إن النوائب احرجت صدري (١)

والحق يا شاعرنا العظيم ان القلب كما قلت :

وائن خـلا قلب فمن ... هم الليالي ليس يخلو

وقد بقي الطابع البدوي الأخاذ سمـة واضحة على شعره وسهلت الفاظه في اواخر ايامه فلو قارنا شعره العراقي بالمصري نجـده واضحاً لا يحتاج الى معجم لشرح الكلمات الصعبة ومع ذلك فانه لم يفقد صدق العاطفة فانت تحس بزفرات عواطفه تتأجج في صدرك كأجيجها في صدره مع بساطة ودون تنميق او اختيار عبارات انما كالفيض الدافق مع تسلسل عقلي ولـكن العاطفـة هي الغالبة عليه . وهذا هو سحر الشعر وحلاوته فهو لم يمدح إلا عن عاطفة أو سبق احسان فنجد مدائحه في سعد زغلول ومحمد عبده والملك عبدالله ، رغم المسحة البدوية حين ذكر للعيس والاطلال والحاوي وحدائه ، فيها رقة وعذوبة .

هذه لمحة عاجلة واتمنى أن تسمح لي الظروف لأتمم دراسة مفصلة في المستقبل عن الشاعر .

---

(١) الديوان ص ١٩ و ٢٠ .

الوحدة العربية والكاظمي :

أحن اذا قيل العراق وانحني ... وأشهق إن قيل الشآم وازفر
واطرق ان قيل الحجاز على جوى ... واعجب إما قيل مصر وابهر
منى النفس أن يلقى العراق وغيره ... من الخير ما يهوى وما يتخير
جميع بلاد العرب في القدر واحد ... اذا وازنوا البلدان وما قدروا(١)

هذه هي عواطف شاعرنا الكاظمي الذي نحتفي اليوم بذكراه انها حنين عميق وجوى في النفس مضطرم ، حنين الى وطنه الاول ودعاء صادق له بأن يلقى ما يريد وما يتخير ولكنه لم يقف عند هذا الحنين وهذا الدعاء للعراق حسب انما شمل جميع البلاد العربية على حد سواء وبهذه الروح الكريمة وهذه العواطف الزاخرة الجياشة وبهذا الشعر الجزل الرصين كان شاعرنا يدعو الى الوحدة العربية والى الالفة ونبذ الخصومات بين العرب طراً .

وقد كان الكاظمي أول شاعر حمل لواء الوحدة العربية والدعوة اليها والتغني بها يوم كانت الاوطان نور العين وفداء النفس وليست مكاناً للهو وقضاء الحياة بدون رسالة أو هدف معين فقد قال شاعرنا :

لا تحسبوا أوطاننا ... هنداً نحنُ لها ودعدا
هي نور أعيننا التي ... أبداً نُراح بها ونُغدى
أوطاننا أرواحنا ... بل انها بالروح تُفدى (٢)

الكاظمي شاعر عربي ولد أبان النهضة الفكرية العربية ، ولد وكانت البلاد

---

(١) المجموعة الأولى ط مطبعة ابن زيدون ص ٢٥١ حدبث التي من التلفزيون.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

العربية تضطرم وتتطلع نحو آمالها وأمانيها فكان قائدها، كان يطفح بالأمل والرجاء والتفاؤل شأن كل قائد فكري مؤمن برسالته واثق من انتصار امته لكنه رأى الأمة مقسمة بين الدول الغربية الاستعمارية فقال بعزم صادق وايمان عميق :

انما الشام والعراق ومصر — أخوات وإن تفرقن حينا
سينال الجميع بعد قليل — ما رجاه لخيره الراجونا
فتعود البشرى لنا تلو بشرى — نتغنى بذكرها طربينا (١)

اتخذ الكاظمي مصر سكنا له في شبابه وكانت مصر تحت الاستعمار وكان يرسل ببصره الى بغداد فيراها أسوأ حالا من مصر ويرتد طرفه الى القدس والشام فلا يسمع الا خطى المحتلين ويرى العرب يرسفون فى قيودهم فيمتلىء قلبه بالأسى ويطفح شعره بالألم والحسرة ويصرخ قائلا :

وما بك يا مصر ببغداد نازل — وفي جلق أدهى وفي القدس أجسم
هنالك أحشاء تذوب وههنا — قلوب متى حركتها تتضرم
إذا ما توالى جرحنا وتعذرت — مراهمه فالجرح للجرح مرهم (٢)

والشواهد على دعوته للوحدة كثيرة وغزيرة فلا نكاد نجد قصيدة من شعره الا وفيها هذه الروح الرفافة الطافحة بالأمل والرجاء بأن الوحدة العربية لابد أن تتحقق ويجب أن تدعم بالجهاد والصبر والقتال لأن الوحدة العربية لا تأتي بالاماني والأحلام العراض فقط، انما بالجهاد ومواصلة القتال لدرء الضيم ورفع الظلم حتى تصبح الشام عراقا ويصبح العراق مصر فقال :

---

(١) الديوان الثاني ص ١٤٧ .

(٢) الديوان الاول ص ٢٨٠ .

سنوالي الجهـاد دون بلاد أرهق الظـلم أهلها إرهاقا
أو يعود العراق منها شآما ويعود الشام منهـا عراقا
وأمام الشرق المعذب مصر مشرق نور عزها اشراقا (١)

ويخاطب النيل الذي احتضنه وضم ثراه الطيب بعدئذ فيقول :

يا نيـل انت أب لنا وابو الأعزة لا يـذلُّ
من كنت أنت أباً له فبنوه قـــد نهلوا وعلوا
ان طاب فرع منك في مصر ففي السودان أصل
لك في العراق وفي الشآ م ونجـد والحرمين أهل
ولك الأبرّ من الجـز برة ما يـبرّ أخ وخل (٢)

لست اريد أن اتحدث لكم في هذه الذكرى العاطرة عن الكاظمي نفسه الشاعر المظلوم الذي لم ينل من الرعاية والتكريم حقه شـأنه شأن كل الأدباء في البلاد العربية وانما حاولت ان اقدم لكم نماذج من شعره فهي التي تتحدث لكم عن فكرته العربية القومية ، فهو من السابقين الأولين للدعوة لها التي لم يكن يفرق فيها بين عربي وآخر أو مسلم ومسلم فهم كلهم أخوان في الدعوة العربية والدعوة لها فالوحدة العربية لا يعود خيرها على العربي وحـده أو على المسلم وحده وانما على جميع من سكن هذه البقاع فهي الدرع أو المجن الذي يذود عن الجميع لأنهم كلهم جيشها وحماتها وهذا هو رأي شاعرنا الذي يقول :

واذا الحوادث خص مصر لهيبها عم العراق شرارها والشاما

(١) الديوان الثاني ص ١٥٥ .
(٢) الديوان الثاني ص ١٨٤ .

لا فرق ما بين الذين تألفوا | جيشاً يذود عن البلاد لهاما
سيان كان الدين نصرانية | في نصرة الأوطان أم إسلاما
إنا اتخذنا ديننا استقلالنا | ولقد عبدنا الله الا أصناما (١)

أرجو أن اكون قد أعطيت فكرة عامة وسريعة عن الاتجاه القومي لدى شاعرنا الكاظمي بما تلوته عليكم من مختارات من شعره الجزل الرصين ونحن نحتفي بذكراه التي ارجو أن تكون باعثة لاحتفالات اخرى .

رحم الله الكاظمي فقد ترك تراثاً ضخماً من الأدب العربي واتجاهات فكرية خالدة . وعسى أن تكون هذه الفرصة مذكرة قادة الفكر والأدباء لدراسته الدراسة اللائقة به ، واحياء ذكراه بطبع شعره وتخليده بما يستحق من تكريم والحرص على مثواه في القاهرة وتسمية شارع من شوارع بغداد باسمه ، والسلام عليكم .

ارتجال الكاظمي وهجرته :

من يدرس حياة الكاظمي يلاحظ انه وُصف بصفتين الاولى بانه شاعر مرتجل والثانية انه هاجر من بغداد خوفاً من الاضطهاد لأنه كان ضد السلطة الحاكمة وكان من المعارضين . وهما نقطتان جديرتان بالاهتمام والدراسة . وانا من المعجبين بالكاظمي واترنم بشعره واوصي بدراسته لانه شاعر امتاز بروعة الاسلوب ، وجمال الديباجة ، وسمو المعاني ، وخدمة قضايانا العربية والقومية والكاظمي كان حاديا جهير الصوت تغنى بقضايا الوطن العربي أجمل الغناء وأعذبه

(١) الديوان الثاني ص ٢١٥ و ٢١٧ .

ورسم فى حدائه الجميل امانيه واحلامه قبل غيره وقبل الساسة ورسم في شعره خطوطاً واضحة المعالم لهذه الاماني ، وقد كان صدى هذه الانغام يتردد في جنبات العالم العربي فيهز النفوس ويوقظ الهمم ويحفز الامال .. فكان سبيلا ليقظة فكرية ووعي عربي غير انني لا اريد ان احمل الكاظمي فوق طاقتـه انسانا فقد تميز بالشعر وعاش فى مصاف قادة الشعر والفكر وقد خلده شعره وكفى بالشعر مخلدا .

كان الكاظمي من اوائل حداة الوحدة العربية ومن اوائل دعاتها المخلصين ولعله أول من نادى بها على نحو يتألق صدقاً ووضوحاً . . ولعل من أهم جهاده بالوحدة العربية ما رسب في عقله الباطن من جراء ما كان يجـده لدى كثير من المصريين من الدعوة الى الفرعونيـة والدعوة الى المصرية والشرقية إبّان عيشه في القاهرة .

والكاظمي يشعر ان مصر بلد عربي ومن الضروري ان تكون مصالحها مرتبطة بالعرب كافة وليس هناك ما يربط مصر بالعرب غير الدعوة الى القومية والوحدة العربية لأن الدعاة قبله ما كانوا يدخلون مصر في الوحدة العربية إضافة الى ان الحرية في هذه الدعوة مباحة لان سلطات الاحتلال البريطاني في مصر كانت تسرها هذه الدعوة لانها كانت تخاف كل الخوف من الدعوة الاسلامية لانها تربط مصر بالدوله العثمانية .

وقد كان للكاظمي فضل كبير بتعميقه مفاهيم الدعوة في نفوس العرب بعد ثورة الملك حسين في التاسع من شعبان الذي كانت ثورته سبباً من اسباب اخراج العثمانيين من البلاد العربية ولما اشتهر الكاظمي شاعراً وحدويا اثيرت حوله الاساطير ونسجت حول اسمه الروايات وقيل ما قيل عنه وعن شبابه فقد

جاء في مقدمة الديوان « ولكن سلطان الظلام كان مخيماً على بلاد السواد من خطط الخلافة العثمانية فلم تحتمل السلطة صاحب العقل اللماح فاخرج الافغاني من العراق ولاحقت النقمة على تحرره وجرأته من كان يلوذ به من شباب الجيل فتحرج موقف الكاظمي ولا سيما ان فكرته اقتدح زنادها بتعاليم الزعيم فصار ينتقد الحكومة ويعدد نقائصها فتناولته العيون وضايقته السعاية والكيد» ففكر في النجاة واعتزم الهجرة وسافر الى ايران والهند ... (١) .

والانسان يفر من الاذى او خوف الأذى اذ كانت هناك سلطات قوية لها نفوذ واسع وسيطرة قوية على بلدها على حين كان الحكم العثماني في أواخر عصره وفي درك ضعفه وسمي بالرجل المريض ثم ان والي بغداد اوانذاك كان عطاء الله باشا سنة ١٨٩٧ وكان الوالي جديداً في بغداد وكان شيخاً جاوز المئة سنة وعزل سنة ١٨٩٩ . وكان الكاظمي شاباً لا يتجاوز العقد الثاني من عمره ولم يكن ذا شخصية مرموقة لها اتباعها من العشائر والاسر التي كانت تهابها الدولة وتخشى بأسها ولم تكن اوانذاك ادوات النشر متيسرة للكاظمي لنشر آرائه وافكاره ـ إن وجدت ـ حتى يعرف الوالي والدولة بأن الكاظمي كان يدعو الى ما تخاف الدولة منه ثم إننا وجدنا في شعر القرن التاسع دعوة الى الحرية والاستقلال والتبرم بالحكم العثماني بل التركي بعبارات صريحة وألفاظ مقذعة كما في شعر عبدالغني الجميل وشعر القزويني وشعر الآلوسي ولم يطارد واحد من هؤلاء الشعراء أو غيرهم من الكتاب .. وما كان الشعر يستدعي مطاردة الشعراء لان اثره كان محدوداً فلم اعرف شاعراً طاردته السلطة العثمانية لانه نظم قصيدة

---

(١) مقدمة الديوان الثاني ص ٤ .

أو ان شاعراً هجر وطنه لانه كتب كلمة لم تدع ولم تنشر .

والواقع ان الرجل كان من اسرة تاجرة تحب الاسفار أو يدفعها عملها الى السفر فحبب اليه الامل السفر بعد أن أخفق في عمله تاجراً . وقد كانت تجارتهم في ايران وطالما سافر أخوه اليها ونسي أهله وما بعث لهم باخباره وحن اليه الشاعر ونظم في هذه القطيعة ما خلدها (١) .

فاحب الشاعر السفر الى جهة سمع عنها كثيراً وقد كانت مهبط الفكر والاشعاع وبلد النهضة الفكرية فسافر الى القاهرة تدفعه عدة دوافع منها المخاطرة والمجازفة تعويضاً عن الاخفاق الذي لحقه في حرفة اسرته تاجراً وقد جرب أن يكون مزارعاً فاخفق كما جرب اموراً اخرى . فلا يمكن أن يكون الكاظمي قد سافر بهذه الدعوة وانما أحاطه بهذه الهالة حزب الاتحاد السوري الذي كان بحاجة الى شاعر يكون لسان الفكرة العربية الجديدة فاسبغ عليه البطولات ليجسم للناس هذا الشاعر والناس مفطورون على التعلق بالهالات التي توضع حول قادة الرأي والفكر . ولا سيما في الشرق وفي القرن التاسع عشر حيث الخيال الجامح وحيث البطولات والاساطير .

أما ارتجال الكاظمي فلي فيه رأي خاص يساير الطبيعة البشرية ومنطق تاريخ الأدب العربي فاول هذا انني تتبعت تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحاضر فلم أجد شاعراً عربياً يملك قوة ارتجال الكاظمي فينظم مرة واحدة بالقدر الذي نسب اليه من الشعر ولو جاز لي ان اعتبر الشعر الجاهلي مرتجلا فالظروف التي كانت عليها الحياة الجاهلية تختلف عن ظروف

---

(١) الديوان الأول ص ٢٤ .

القرن العشرين فليس من المعقول ان الله لم يخلق إلا الكاظمي وإلا لما أغفل تاريخ الأدب ذكر أمثاله من الشعراء وكانت هناك مناسبات تقتضي الشاعر أن يرتجل وفى مثل هذه الاحوال لم يزد الشاعر على الطاقة البشرية وقد جمع كتاب البدائة أسماء المرتجلين وقصائدهم فلم تزد على ثلاثين بيتاً فكيف خرج الكاظمي عن الطاقة البشرية .

كتب العقاد مقدمة ديوان الكاظمي وأشار بطريقة مؤدبة ورقيقه الى ان الكاظمي لم يرتجل فقد جاء في المقدمة قال « يقصد الكاظمي » : معي قصيدة فاكتب ! فاستكبرت الامر وابتسمت ، وانا أدق الجرس لادعو بمن يكتب واقول له في غير شدة : انا اكتب ما املي ولا اكتب ما يملى علي ، ولم يغضب ولا غضبت ، ولكنه سلم يومئذ ، قبل أن يملي القصيدة على من دعوت .

أراد الكاظمي أن يشعر العقاد بانه شاعر مرتجل ولما رفض العقاد أن يكون كاتباً يملى عليه إنصرف الكاظمي . ولست اريد أن ألوم الكاظمي فهو رجل ذهب الى مصر وكان فيها شاعران عظيمان حافظ وشوقي وأراد أن تكون له مكانة والانسان يحب ان يثبت مكانته الاجتماعية وأراد أن يبرز وان يظهر وخاصة بين ارباب الفكر وإلا فما دعا الكاظمي لزيارة العقاد ـ لو لم يكن حب الظهور دافعه ـ بزي امراء البادية متلثماً حتى انكره العقاد ولم يعرفه بزيه ..!؟

وقد كان شوقي شاعراً عظيما وله منزلة مرموقة في الأدب والمجتمع والمال والبلاط ولكنه ما كان يقدر على إلقاء الشعر وكان يختار من يلقي له شعره ولم يكن الكاظمي قادراً على أن يبز شوقي في الشعر أو المجتمع او المال او البلاط فوجد فكرة الارتجال شيئاً جديداً يلفت بها نظر الأدباء والمجتمع ويجتاز بها منزلة

مرموقة . ونجح الكاظمي في فكرته هذه ولا عجب في الامر ، فالكاظمي شاعر ذكي كان يحفظ عشرات الآلاف من الشعر وكان راوية من رواة الشعر والرواة يكونون من أشد الناس حفظاً واسرعهم إلتقاطاً والكاظمي من هؤلاء الحفظة الرواة الاذكياء فهل نستبعد انه كان ينظم شعره ويحفظه ثم يرتجله ؟

لم نجد العقاد يقول بأن الكاظمي قد ارتجل الشعر صراحة وانما نسب الامر الى غيره فقد سمع ان الكاظمي يرتجل وأراد ان يكتب مقدمة الديوان ولكنه لم يذكر شيئاً او يبرهن على هذا الارتجال.. وقد ذكر لنا التأريخ كثيراً من هؤلاء الحفظة وقد رأيت مثل هذا النوع فى مصر فقد كنت ارى الخطباء يحفظون خطبهم والشعراء شعرهم ثم يلقونه على اسماع الناس في الحفلات وفى كل بلد من هؤلاء كثير وقد اشتهر في فرنسة محام قامت شهرته على ارتجال المرافعات القانونية وبلاغته فى المرافعة وجمال اسلوبه فيها مع رأي قانوني صائب ولما اصبح ولده محامياً سأل والده عن سر نجاحـــه في الارتجال فقال له احفظ السر يا بني : سر النجاح فى الارتجال هو عدم الارتجال .

والكاظمي لم يكن يرتجل وانما كان يحفظ قصائده بعد أن يكون قد أعدها من قبل ويذهب وهو شاعر مرموق فيسأل أن يرتجل ويعتذر ثم يلقي . فلو تتبعنا قسماً من القصائد التي ارتجلها الكاظمي لوجدناها مقرونة بمناسبات مشهورة معروفة مثل تكريم مولود مخلص ، وذكرى استقلال سورية ، وتكريم جعفر العسكري ، وقصيدة القاها عندما كان فى عمان واخرى في زيارة القدس وفي تكريم طالب النقيب وحفلة تمثيلية اقيمت فى القاهرة لاعانة منكوبي سورية وشفاء سعد زغلول وغير ذلك من الحوادث العامة .

وليس من المعقول ان يصل مولود مخلص او جعفر العسكري او طالب النقيب ولا يعرف الكاظمي بوصولهم الى القاهرة ولا يحاط علماً بالاحتفال بهم، وليس من المعقول ان تقام حفلة لمساعدة منكوبي سورية والكاظمي المعروف باخلاصه للقضايا العربية لا ترسل له الدعوة وليس من المصدق ان اخبار سعد زغلول تخفى عن الكاظمي الذي كان يعرف المناسبة سلفاً ويحضر لها شعره .

وهناك حادثتان جدير بنا أن نقف عندها وهما حادث زي سليم سركيس وهي كما رويت في مقدمة المجموعة الثانية من قبل عبد القادر المغربي ملخصها ان سليماً تضايق من اللبوس الافرنجي وخاصة الياقة المنشأة لأنها تمنعه من الحركة والتلفت فى الحر وفي العمل فهجر زيه واصطنع لنفسه الزي البلدي الفضفاض واعلن خبر هذا في الصحف المحلية مشفوعاً بزيه الجديد واخذ المحررون يصفونه في صحفهم والشعراء يذكرونه بقصائدهم فلما دخل الكاظمي عليه عاتبه سليم على عدم وصف الزي الجديد فجعل الكاظمي يرتجل شعراً في مدح سليم ووصف زيه الجديد يمليه ، عليه وهو يكتب حتى إذا طال نفس القول اعترضته انا قائلا : أرى ان يكون لهذه القصيدة نبأ عظيم بين ادباء القاهرة فلم لا يكون لي فيها ذكر وانا ثالثكما وشاهد حادثتكما فتحول الكاظمي عن سليم واقبل على المغربي ونظم فيه عشرة أبيات ثم ختمها بابيات خاطب فيها سركيس .

من هذا نجد ان الكاظمي نظم عشرة أبيات فقط ولو حذفناها لما أثرت فى مسيرة القصيدة وكأنها لم تكن ، وأنا لا استبعد على الشاعر أن يرتجل عشرة أبيات وفي هذا الروي وهذه القافية ولكني لا اعتقد بان الكاظمي لم يقرأ أو لم يسمع بزي سركيس قبل أن يملي عليه القصيدة إن لم يكن قد رآه قبل هذه المرة

لذلك فقـــد نظم الكاظمي القصيدة وحضرها ثم القاها على سركيس ولـكنه ارتجل عشرة أبيات لا غيرها وهذا ممكن لانهم كانوا جلوساً وكانت طريقته فى الاملاء التمهل والتفـكير وهى غير قصائد الارتجال فى إلاحتفالات الكبيرة وما في جوها من وقار ورهبة .

أما الحادثة الثانية فهي حادثة القصيدة التي القاها بعد أن القى الدكتور شدودي قصيدته والتي مطلعها :

نفر الحبيب ولا سبب — اتراه يسلب ماوهب

لا جاه ودعـني ولا — بعث الرسول ولا كتب

فارتجل الكـاظمي قصيدته :

لعب الطبيب ولا عجب — ولرب جـد في اللعب

ذكر الحبيب وبعـده — ودلاله اما قـــرب

وهو وزن سهل بسيط وهو أقرب الى النثر والى السجع فلا يحتاج الى كبير عناية ، وقـــد تملى الشاعر القصيدة وقد استمد لها روحياً وذهنياً والقافية من القوافي السهلة التي يمتطيها الشعراء وليس فى القصيدة امتياز وهى ليست من عيون شـعره ولا تقتضي مثل هذه القصيدة ، لو صدقنا الرواية ، هـــذه الضجة وينظم في مستواها الكثيرون في مجالس السمر ولا يسمون هذا شعراً مع انني اميل الى أن الكـاظمي نقحها وصلح فيها بعد القائها .

هاتان نقطتان جديرتان بالاهتمام ولست اريد أن انقص من قيمـة الشاعر ولـكنه رأي أراه ويمكن ان يناقشه المفكرون والـكتاب والنقاد .

مقدمة في القصة العراقية

القصة من الفنون الأدبية الجميلة المحببة الى النفوس فالقاص البارع يسيطر على القاريء ويوجهه الوجهة التي يريدها (١) وقد توطدت دعائم القصة في العصر الحديث واصبحت اهم عناصر المطابع الحديثة لرواج سوقها وكثرة قرائها وطالبيها وعلى وفرة ما ترجم منها عن الآداب الاجنبية فلا يزال الانتاج العربي متأخراً بالنسبة للاداب الاجنبية الحديثة وتكاد لا تعثر على انتاج عربي أصيل واضح المعالم جلي السمات كما نلاحظ في القصص الاجنبي اذ لم نجد للقصص العربية في العراق طابعاً يميزها عن غيرها من القصص كما نجد ذلك واضحاً في الآداب الانكليزية والفرنسية والروسية فاذا أخذنا قصة عراقية وحذفنا اسماءها فلا نتمكن ان نقول عنها انها عربية كتبت في العراق الا في القليل إذ ليس هناك شخصيات عربية متميزة يرسمها القصاص العرب في انتاجهم في العراق تقف امام الشخصيات التي يرسمها القصاص الاجانب في انتاجهم القصصي ، لأن الكاتب الاوربي أراد لقصصه الخلود فوضع فيها فلسفته وبذل جاهداً طاقته في ان تستوعب قصصه أو رواياته ، فكرته الفلسفية الخاصة ، لأن الاوربي اعتبر الرواية

---

(١) كتبت هذه المقدمة سنة ١٩٥٤ لقصة طريق الشوك تأليف الكاتب عبدالواحد خماس وقد استفاد من هذه المقدمة قسم من الباحثين دون الاشارة اليها شأن اكثر ما نكتب .

او القصة وعاء الفكر الحديث وانها أرقى انواع النثر وخير وسيلة للتعبير الأدبي الحديث . أما اكثر الكتاب في البلاد العربية فقد دأب على كتابة القصة للقصة نفسها او كتب تجربة فردية محدودة الاثر الانساني .

وهناك عوامل كثيرة وتيارات مختلفة تؤثر في توجيه القصة العربيـــة فى العراق ولعل اهم هذه العناصر عدم العناية الكافية بالقصة من دور النشر في العراق وضعف الأديب العراقي الثقافي حال دون نشر انتاجه في دور عربيـــة بالقدر الذي يضاهي به الكتاب العرب ، والثقافـة العالية ضرورية لكل كاتب قاص يريد أن ينجح فى قصصه ويرسم صوراً لابطاله ويوضح نفسياتهم على الورق ويسمع تنهـدات ألمهم بين الحروف وصرخات رغباتهم بين الكلمات ، ليصور احداث الشعب ويبرز مشكلاته في صمت الحـــرف وهدوء الكلمة فيستهوي القارىء بصور كاملة المعالم واضحة الملامح لطيفة الاسلوب غنية بالرغبات العميقة الصادقة . وعدم استكمال ثقافة القاص العالية وسطحية ارائـه يبعده عن القيادة الفكرية والصدق الفني وعمق الفكرة ووضوح الصورة . فالذي درس ناحية من نواحي المعرفة كالحقوق والآداب والطب لا يمكنه أن يكون قاصاً ناجحاً بل ينبغي أن يتزود علوماً ودراسات منظمة عالية اخرى تعينه على توسيع افقه الفكري ولقسم من الكتاب عذر في عدم الدراسة المستمرة العميقة لأن اكثرهم مرهق بالعمل في سبيل كسب الرزق، فتعثرت جهودهم الفنية وتدنى عملهم الادبي. ولو قدر لهم الاستمرار في الدراسة والتتبع لبلغوا الكمال الفني او قاربوه اضافة الى ان الاضطراب الاجتماعي العام الذي ساد حياتنا اليومية ادى الى بلبلة الافكار وقلق

النفوس فاصبحت موهبة القاص العربي فى العراق قلقـة مضطربة لا تقف امام الموهبة المتزنة في البلاد المستقرة اجتماعياً وسياسياً .

والقصة العربية في العراق قصيرة العمر وقد سبق العراق في هذا الميدان كل من مصر والشام لأن ميدان العراق الساذج المتأخر بعدت عنه عناصر القوة الفنية وكلما تقدمت الامم في الحضارة كلما وجدت القصة ميداناً رحباً وافقـاً واسعاً ، وما زال كثير من كتاب العراق في القصة عالة على ما كتبه المصريون فهم يترسمون خطى طه حسين ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم ... والتقليـــد الدائم لا يعطي صورة حقيقية للانتاج الفكري ويحتاج المقلدون من ابناء العراق الى الابتكار البعيد عن الجمود والى السير في ركب حياة الشعب الذي يئن من مشكلات متنوعة كالاقطاع والاستعمار والتعصب الديني ومكانة المرأة الاجتماعية ولم يفكر اكثر هؤلاء في اسعاد ابناء الشعب وتقويم حياته انما انصرفوا الى انفسهم والى قصصهم لا يحاولون رفع مستوى الشعب فكرياً وادبياً .

واهتمام الغرب في القصة العربية دعاهم الى الاهتمام بهـا في العصر الحديث ومن اوائل المهتمين بها من المستشرقين الاستاذ هملتون (رگب) فقد القى محاضرة عن أدب المنفلوطي ودرس بعض آثار المصريين (١) وقد تتبعت آثار القصص في العراق فوجدت من اقدم القصص قصة (سجع القمرية في ربع المدرسة القمرية) وقد كتبها محمود ابو الثناء الآلوسي وهي قصة غرامية على شكل المقامات وكما قال منها : اغرب قصة في العشق (٢) ويعوزها الطابع الفني الاصيل وسجعها

---

(١) مجلة الحديث الحلبية عام ١٩٢٩ .

(٢) ما زالت مخطوطة في مكتبة الاوقاف نسخة منها تحت رقم ١٢٧٠ .

يبعد القاريء عن تتبع اجزائها ومواصلة قراءتها .

وعندما انتشرت الجرائد في العراق وجدناها تعني عناية كبيرة في ترجمة القصص المتسلسلة والقصص اليومية وقد نشر بعضها بتواقيع مستعارة واغفل توقيع قسم منها فوجدنا جريدة المبدأ ترجمت (الابناء والبنون) وقصصاً اخرى عن الفرنسية والانكليزية والالمانية ووقعها الياس الكاتب ويعقوب شاؤول (١) ورفائيل بطي (٢) كما ترجمت بعض الروايات التأريخية (٣) وظهرت اسماء كتاب اختفت من عالم القصة أمثال يوسف رجيب ويوسف متي ومعمر الشابندر وحسن الجواهري وخلف شوقي الداودي (٤) وحسين الظريفي وعبدالقادر رشيد الگيلاني (٥) وسعيد الشهابي (٦) وقد مرت بي قصص مترجمة لابي صميم (٧) وسليم بطي (٨) ومحمود توفيق (٩) ولكن اشهر هؤلاء الكتاب في هذه الفترة بل رائد القصة الأول هو محمود أحمد السيد فقد كتب قصصاً وأدلى برأيه في الفن القصصي واتصل بكتاب العالم العربي وقد تأثر الكاتب بادباء أتراك امثال عبدالحق حامد وترجم عن اللغات الاجنبية وقد عنى المستشرق كرجوفسكي

---

(١) جريدة المبدأ لجعفر ابي التمن عام ١٩٣٥ .

(٢) جريدة العراق .

(٣) مجلة الأخلاق للبناء العدد ٢ ــ ١ ــ ٩٢٧ .

(٤) ترجم قصصاً مختارة من الأدب التركي جريدة الزمان الصادرة بدل البلاد ٢٦٦ ــ ٩٣٠

(٥) ترجمة دون كيشوت .

(٦) له زهور البنفسج .

(٧) جريدة الزمان الصادرة بدل البلاد سنة ٩٣٠ .

(٨) جريدة نداء الشعب ٢٦٦ ــ ٩٣٠ .

(٩) جريدة نداء الشعب ١٩٣٠ .

الاستاذ بجامعة لينڠراد به وكتب عنه فصلا ضافياً فى مجلة الدراسات الشرقية نوه بجهوده وفضله (١) كما عنيت بـه السيدة الكاتبة وداد سكاكيني فكتبت عنه فصلا عندما ظهر أحد كتبه (٢) وقد كان السيد متأثراً أشد التأثير بما حاق بالبلاد من اخطار فقد كان المستعمر يجثم على صدر بلاده والاحداث الظالمة تفتك بوطنه فعبر عنها تعبيراً واضحاً وان لم يبلغ المرحلة الفنية الكاملة كـكل عمل بدائي ولـكنه واضع الحجر الأساس للقصة العربية فى العراق (٣) .

ثم يأتي كاتبان اشتهرا بوفرة الانتاج القصصي وغزارتـه هما جعفر الخليلي وذنون أيوب ، والاستاذ الخليلي متأثر بالأدب العربي القديم وأغلبية أقاصيصه القديمة مغرقة في الخيال ثم انساب جانب من واقع الحياة فى أدبه فتغير مجرى قصصه نحو الانسانية والخلود وكنت أتمنى ان يجانب الفروع البعيدة ليكون القارىء معه دائمـاً ، وجودة قلمه مكنته من السيطرة على القصص وان أبعدته أحياناً عن وضع الحلول المناسبة للمشكلات التي تمـر بين يديه ، وعنايته بجمال العبارة واشراق الاسلوب ترضي القارىء العربي وتسره وله فضل واضح على القصة في العراق وتركيز دعائمها فهو من الرواد الـكبار ولابد للرائد أن يقع في اخطاء .

أما الاستاذ أيوب فقـد ملأ عالم القصة بقصصه الطويلة والقصيرة وانتاجه من واقع المجتمع فقد تمرس بمشكلات الحياة فانتقدها ووصف حالة الشعب ورسم صوراً للاقطاع وبؤس الفلاحين حين وصف مشاعر الشـعب وهاجم الفوضى

---

(١) جريدة البلاد ١٠٥٧ ـ ٩ ـ ٣٠ ك ١ عام ١٩٣٧ مقال لمحمد أمين حسونه

(٢) مجلة الحديث الحلبية العددان ٣ و ٤ آذار ونيسان ـ ٩٣٦ .

(٣) له عدة قصص منها « في ساع من الزمن » و « جلال وخالد » و « النكبات » و « مجاهدون » .

والفساد في البلاد وسبر أغوار مشكلاته واخـــذ يساير ركب القصة الحديثة ولا يزال متأثراً بالعوامل القديمة والرواسب القصصية المثالية التي تعتمد على الحبـكة القصصية وجمال المطلع وحسن المنتهى رغم معرفته بلغة اجنبية . وقد امتاز بروح التهـكم والفكاهة في بعض القصص ترفيهاً للقارىء .

أما عبدالمجيد لطفي (١) وانور شاؤول فهما من مراحل القصة الأولى والاستاذ لطفي على كثرة ما كتبه يكتب سريعاً ويمر بمشكلات الشعب دون أن يتعرف على أسبابها ولا اظنه يترك في نفس القارىء أثراً عميقاً لابتعاده عن واقع الشعب ولو توفر على دراسة المشكلة ودرسها بعمق لـكان في مقدمة كتاب القصة ولـكنه انشغل مرة بالشعر واخرى بالمقالة وطوراً بالتعليق والعمل الصحفي ففرق جهده بين الشعر والمقالة والقصة فما وسعه الوقت للدراسة والتتبع مع انـه يملك ملكة فذة ونزعة انسانية شاملة . ولو تزود ثقافة عالية وسمح له وقته بالدراسة لـكان قائد مدرسة لأن الملـكة وحدها لا توصل الى الابداع الفني ولا تضعه في مصاف كتاب القصة في العالم .

وأنور شاؤول (٢) كتب بعض القصص التي تلائم الجـو العراقي ولـكنه كتبها بروح الحذر الخائف وقد مارس الصحافة والشعر ولو ركز على واحـــدة منها لـكان له مكان ادبي مرموق ، ثم ركن الى التجارة واستراح ، ولأنور فضل السبق وان كان مهتماً بمواضيع تافهـة كما اهتم مثله شالوم درويش (٣) ويعقوب

(١) له عفيفة قصة صغيرة أشبه بالحديث الخاص .

(٢) له الحصاد الأول والحصاد الثاني .

(٣) له احرار وعبيد وبعض الناس .

بلبول (١) فنجحا نجاحاً يسيراً ثم اختفيا . ومن الذين لم يقـدر لهم النجاح في فن القصص المحدث البارع صلاح الدين الناهي (٢) فهو محاضر في قصصه ومحدث بارع لذلك تضيع منه صفة القاص لان القارىء لا يريد دائماً المحدثين الذين يأخذون كل الحديث بل يريد الجدة والتغيير . ولو استمر فى الانتاج وابتعد عن كرسي المحاضرة لكان له شأن في الأدب العربي الحديث .

والشعب العراقي أشد الشعوب اهتماماً بامور المجتمع لأنه أرهف حساً وأدق فهماً من غيره يفيض شعوراً صادقاً وهو احوج الى ادب يمثل له حياته الاجتماعية بشقائها وسعادتها ويرسم له صورها واضحة جلية ليفهمها ويعيها . فقد وجدت ان كثيراً من كتاب القصة لا يتحدثون الا عن طبقـة واحدة عليا استمراراً للمثل القديمة التي تعنى بالفرد دون العنايـة بالمجموع غير ان الشباب الطامح اتجـه نحو مشكلات الشعب العامة لمقاومة الفساد الاجتماعي بعد أن أحس بما وصلت اليـه البلاد من تأخر فانتقد المجتمع المضطرب الفاسد مقوماً اعوجاجه ومنهم من نجح ومنهم من تخلف ومنهم من لم تواته الفرص ولـكنهم احسوا جميعاً بانهم اصحاب رسالة فكرية ويجب ان يؤدوا دورهم في حل مشكلات الشعب .

وكتاب القصة في العراق كثيرون منهم شاكر خصباك وفؤاد التكرلي ، وصفاء خلوصي ، وعبدالوهاب الامين ، وعبدالحق فاضل ، ونزار سليم ، ونهاد التكرلي ، وحمدى علي ، وعبدالرزاق الشيخ علي (٣) وخليل رشيد ، وعبدالله نيازى

---

(١) له الجمرة الأولى .

(٢) له اقاصيص شتى وتتمة الاقاصيص .

(٣) له « حصاد الشوك » و « رباب » و « على الحديد » .

وعبدالصمد خانقاه ، ومحمود الحبيب ، وشـــاكر خصباك الذي درس في مصر واخرج هناك مجموعة من قصصه (١) وقد كان في بدء حياته سطحي الدراســة ولـكنه التزم اتجاهاً اجتماعياً وهيمن على اسلوبه وما يزال يحتاج الى دراسة للادب العربي القديم واساليبه ، ليتأثر بالاسلوب العربي الاصيل ككتب الجاحظ لتشرق ديباجته فيؤثر في النفوس ويصفو اســلوبه من الشوائب وتظهر قابليته القصصية الممتازة .

أما نزار سليم فهو فياض العاطفة لـكنه مضطرب الأداء فجاءت أحكامه قلقة وسيطر عليها الاضطراب والفيض العاطفي مشوشة المعالم ، وامتاز ببراعة في وصف المشاعر الانسانية .

وعبدالملك نوري واقعي مرهف في كل ما قرأته له من قصص وقـد برع في رسم المشكلات الاجتماعية غير أن رواسب الماضي السحيق في الاتجاه الفكري وعدم قدرته التامة على التعبير العربي الأصيل تظهر بعض قصصه مفككة ومعقدة معاً وهو يحيطك بجو غامض وبحاجة الى الاسلوب السهل والوضوح في الوصف واليسر في القول لتنمو فى ذهنه الأساليب العربية الى جانب ثقافته الغربيــة وليفهمه اكبر عدد ممكن من أبناء الشعب المثقف .

ولعبدالحق فاضل قابلية جميلة للابتكار وقد نجح فى وصف ابطال قصصه الشباب ، وقابليته فى المسرحية أظهر منه فى القصة .

والدكـتور صفاء خلوصي قصاص متأثر بالدراسات العقليـة والنقد الأدبي وقد أثرت هذه الدراسات فى كـتبه القصصية ومثله العليا الأدبية بعيدة عن

---

(١) له صراع وعهد جديد ودراسة وافية ناجحة عن « انطوان تشيخوف » .

واقع المجتمع العراقي (١) .

هذه لمحة سريعة عن القصة في العراق أقدمها للقارىء اما كاتب القصة الأخ عبدالواحد خماس فقد تمرس في حياة الشعب وآلمته حياته وآلمتـه أوجاعه وما

(١ وقد رجوت الاخ السيد عامر رشيد السامرائي ان يزودني بقائمة باسماء ما ظهر بعد هذه المقالة فكتب مشكوراً :

وبعد هذا ظهر في عالم القصة شباب جدد تعكس قصصهم القلق العنيف الذي يعاني منه هذا العصر ، كما تعكس التأثر الواضح بالقصص الغربي فصرنا نجد تأثرات واضحة بافكار سارتر وكولن ولسن مثلا .

١ ـ السيف والسفينة	ـ مجموعة قصص	ـ	عبدالرحمن اربيعي ١٩٦٦ بغداد	
٢ ـ الزقاق المسدود	ـ روايـــة	ـ	ياسين حسين	
٣ ـ أعياد	ـ	قصص	ـ	عبدالله نيازي ١٩٦٣
٤ ـ مولود آخر	ـ	قصص	ـ	غائب طعمة فرمان ١٩٥٩
٥ ـ المدينة تحتضن الرجال	روايـــة	ـ	موفق خضر ١٩٦٠	
٦ ـ الوجه الآخر	ـ	قصص	ـ	فؤاد التكرلي ١٩٦٠
٧ ـ نشيد الأرض	ـ	قصص	ـ	عبدالملك نوري ١٩٥٤
٨ ـ الظامئون	ـ	رواية	ـ	عبدالرزاق المطلبي ١٩٦٧
٩ ـ دموع الوداع	ـ	رواية	ـ	عبدالوهاب النعيمي
١٠ ـ الحب اقوى	ـ	رواية	ـ	حازم مراد ١٦٦٧
١١ ـ عباس افندي	ـ	قصص	ـ	عبدالرزاق الشيخ علي ١٩٥٩
١٢ ـ في زحام المدينة	ـ	قصص	ـ	أنور شاؤول ١٩٥٥
١٣ ـ في شارع النهر	ـ	قصص	ـ	خيرالدين سلطان ١٩٦٧
١٤ ـ خطوات الى الافق البعيد	قصص	ـ	برهان الخطيب ١٩٦٧	
١٥ ـ امرأة سيئة السمعة		قصص	ـ	بسيم الذويب ١٩٦٠
١٦ ـ ليل بلا عيون		قصص	ـ	عبداللطيف الراوي ١٩٦٧
١٧ ـ رماد الليل		قصص	ـ	عامر رشيد السامرائي ١٩٦٧

يعانيه وجهد في رسم صور الألم والكد والشقاء . باسلوب رقيق جميل ورسم صورة صادقة لحياة الطبقة الفقيرة فى اثناء سفرهم بالقطار بالدرجة الثالثة وصور الصخب الذي ينتاب هذه الدرجة وحياة بغداد الاجتماعية باسلوب سلس واضح وقد سجل انطباعاته عندما وصل العاصمة لأول مرة متربا لا يملك ما يقيم بـه أوده فنام على الأرصفة مع المئات من ابناء الشعب الكادحين الذين لم تبق منهم غير الهياكل البشرية تتمطى في الأجسام وقد اختار أحد مقاعد حديقة غازي(١) التي وصفها بالمريحة لأنها بالمجان . وينتقل الكاتب الى وصف المنطقة الشمالية من العراق . ثم نراه مقارناً بين الغناء المبطر والفقر المدقع والحياة الحقيرة التي دفعه اليها رئيسه. وصور لنا حياة الملايين من ابناء الشعب الكادحة المعذبة التي تعيش فى الاهوار وقد عاش الكاتب فترة من عمره في تلك المجاهل المخيفة التي يعيش كثير من ابناء الشعب العراقى فيها وخرج لنا بسجل صادق وانفعال عميق واحساس كبير لوقائع حياة الشعب المريرة التي جاءت نتيجة للاقطاع فى تلك المجاهل .

ويحتاج الأخ عبدالواحد الى دراسه أصول الفن القصصي وقراءة الانتاج العالمي فيه وتنمية مواهبه القصصية وهو دائب نشط اخرج اكثر من كتاب ولاشك انه سيصل الى ما يصبو اليه من الخلود الادبي وارجو أن يسد فى قصته مكاناً من فراغ المجتمع العراقى . لأن القصة الطويلة قليل كتابها والمحاولة ناجحة مستمدة من عواطف الكاتب ومن روحه العالية وقلبه العامر بالاحاسيس الفياضة وفقه ووفقنا الله الى ما فيه خير الأمة .

---

(١) تحولت الى حديقة الامة في الباب الشرقي (بغداد) .

نشأة الشعر الحر في العراق

في العراق اليوم (١) نقاش فكري حول الشعر الحر او المرسل او الطلق، وكثير ممن نظم فيه يدعي أنه كان البادىء فيه، ويدلي بالبراهين ويأتي بالامثلة. ويعوز هؤلاء في دعواهم التحقيق العلمي والتتبع العميق. وكان أكثر ما كتبوه في هذا الشأن، مدفوعاً بدافع الفخر والمباهاة. ومن أراد أن يطلع على جلية الامر وجب عليه أن يقرأ جرائد العراق من سنة ١٩١١ حتى ١٩٤٥، ليتضح له أن الحركة قديمة، ولها جذورها التاريخية التي تصل الى أوائل القرن العشرين، لأن كل فكرة جديدة لا بد لها من جذور، وينبغي أن تقوم على أسس وقواعد قديمة، تستمد حياتها منها. ولم تصل الحركة الى ما وصلت اليه إلا بعد اكثر من ثلاثين سنة، إذ لا يمكن للفكر أن يتطور دفعة واحدة، ولا بد له من دوافع حضارية واجتماعية.

ولعل الفوضى والاضطراب النفسي أهم باعث للشعر الحر نتيجة للتحول السياسي او الاقتصادي او الحربي الذي رجّ المثل الاجتماعية، وهزّ التقاليد العالمية العامة. لعدم قدرة الناس على احتمال وطأتها او الصبر على مواجهتها، لضعف النفوس واضطرابها وقلقها. وتتجلى هذه الحقيقة في هذه الحركة، حركة الشعر الحر، فان أكثر الناظمين فى هذا اللون من الشعر كانوا

---

(١) نشرت فكرة المقال في جريدة لواء الاستقلال في العدد الصادر فى ٢٤ ٨ ٩٥٤ وحددت فيه الفترة من ١٩١١ ـ ١٩٤٥ وقت بدء الحوار حول الشعر الحر.

من ضعاف التعبير ، والثقافة . والضعيف لا يقدر على مجاراة القوي ، فيتخذ ، له سبيلا آخر يثبت به وجوده ، سداً لثلمة نقصه ، وتخديراً لهوان نفسه ، وإلا فاين الشاعر الضعيف المهلهل النسج ، من القوي ، الفخم العبارة ، الناصع الديباجة؟

إن الشاعر الضعيف ، اذا استشعر قصوره عن مجاراة ركب الادب الاصيل وآثر النكوص على عقبيه ، وألحت عليه عقدة حب الظهور ، فمن المحتمل أن يعبر عنها باللجوء إلى « الشعر الحر » . وإن الانتقال الى « الشعر الحر » هو نوع من الثورة الادبية . والشعراء الذين يخوضون غمار هذه الثورة ، اذا اطلعوا على الآفاق الادبية والفكرية الجديدة ، وعمّقوا من افكارهم ، استطاعوا أن يقدموا ادباً طيباً في اطار « الشعر الحر » ، أما اذا ظلوا على ضعفهم وبأدواتهم القاصرة ، وأفكارهم المحدودة ، فلا فائدة من وراء منتوجهم ، ولا خلود له .

والثورة على الشعر العربي قديمة ، ففي العصر العباسي نادى الموالي بنبذ أصول الشعر العربي القديم ، ومثل ذلك فعل الموالي بالاندلس ، فكان ما رأيناه من تجديد عباسي ، وموشح اندلسي ، لم يعش منهما إلا القليل لأنهما لم يصلا به الى النسج العربي القديم وإن سارا فى ركب الحضارة الجديدة .

ولو بحثنا في مبعث هذه الثورة لوجدناه في ضعف الموالي وقصورهم عن إدراك جمال اللغة العربية ومتانة اسـلوبها وإشراقة بيانها . ثم إن العرب فى الاندلس اختلطوا بالقوط والفندال والصقالبة والبربر ، فنتج من هذا الاختلاط جيل صعب عليه فهم تراكيب العربية وتذوقها وهضمها . ثم أصيبت العربية في العصور المظلمة بالركود والخمول والضعف ، فأنتج « البند » الذي أكثر من نظمه ضعاف الشعراء ، مع أن البند فيه موسيقى جميلة وسار على التفعيلات العربية

ويقبله الذوق العربي ، رغم خروج بعض البنود على الوزن ، ولو رتب البند على نسق الشعر الحر لـكان خيراً منه في كثير من انتاج عصرنا (١) .

وتبدت هذه الظاهرة ثانية عندما هاجر كثير من العرب الى امريكا، وأكثرهم ممن لم تمكنه الفرصة من اتمام تعليمه العالي ومنهم من لم تسعفه الحال لاتقان العربية لسيطرة اللغة الاجنبية على تربيته وثقافته ، فهجرة الشاعر العربي الى امريكا وبعده عن وطنه وذكرياته القديمة قـد بعثت فيه الحنين الى وطنه ، والاشتياق الى اهله وأسرته ، أراد أن يفرغ هـذه المشاعر في قوالبها الشعرية العربية المألوفة فأحس بضعف في الاداة وقصور في التعبير ، فالتجأ قسم الى الشعر الكثير القوافي والاوزان ، فكانت هذه بداية الشعر المرسل او المنثور . ونترك للباحثين البحث والتدقيق عن اول من نظم فيه وكيف بدأ اسمه . ولا بد من الاشارة الى أن ظهور الشعر الحر أدى الى حركة فكرية ونشاط ادبي في العراق ، وتحدث عنه الشعراء وأدلوا برأيهم فيه .

وقد وجدت، من المصادر المتوفرة بين يدي، أن الزهاوي اول من دعا في العراق الى هذا الشعر ، ولكنه اشترط ، شروطاً ولم يترك الشعور يجري على حسب اهواء الشعراء فقد رأى الشعر المنظوم أشد تأثيراً من المنثور، لما فيه من اللحن والموسيقى ولأنه سهل الحفظ والانشاد ، ورأى أن الشعر هو من فعل المحيط ومن أثر دوافعه ومؤثراته ووقف أمام الذين يقلدون الادب العربي موقفاً واضحاً فقال : عبثاً يسعى بعضهم الى جعل الشعر العربي على نمط الشعر الافرنجي بحجة أن الافرنج سباقون في

---

(١) أصدر الاستاذ عبد الـكريم الدجيلي (البند في الادب العربي) وطبع سنة ١٩٥٩ وفيه يجد القارىء تاريخ البند وقد جمع كل البنود التي وقعت بين يديه .

كل علم وفن، محاولاً تقليدهم، فان شعور الغربيين تراث آبائهم وأجدادهم في عصور اوغلت في القدم . . . وشعور العرب اليوم هو إرث متنقل اليهم من آبائهم الاولين، ولم يتولد هذا الشعور إلا من العادات المتأصلة في الاقوام بتعاقب الدهور متى كانت عادات المتنبي موافقة لعادات شكسبير؟ حتى تكون ارواحهما متفقة وشعرهما متشابهاً؟ وبحوره فيها متماثلة اللجج؟، قد لعمري فات هؤلاء المتشبهين أن الشعر فى كل امة هو احساسها فلا يقاس على العلوم والصنائع المادية، ولكل امة ذوق فيه نرجع معرفته الى علم النفس، وقد انتقل فيها هذا الذوق تراثاً فى آبائها فهل يمكن أن ينتقل من قوم الى آخر بعيد عنهم في العادات والمشارب؟ وليس من يسعى الى تحويل الشعر العربي، الى شعر افرنجي إلا كمن يحاول جاهداً ان يجعل العندليب ديكا، والعقاب حدأة، والاقحوان بنفسجاً. وهل يطرب العندليب العنادل اذا صاح صياح الديكة؟ او يستفز الديك الديكة اذا غرد تغريد العنادل؟

زينوا الباطل حتى ظنه الناظر حقا
إن شعباً جهل البا طل والحق ليشقى

ولا اريد بما اقول ان نبقى، نحن العرب، جامدين على الطراز الاول الذي استحسنه اجدادنا فى الشعر، كلا ثم كلا، فأنا اكثر الناس ميلا الى التجدد والتقدم بالشعر تقدماً يناسب ارتقاء العلوم والحضارة، لكني مشترط أن يكون مشينا في الطريق الامثل الذي نحن سائرون عليه كما سار اجدادنا غير جانحين الى طريق جديد . . .) .

وقد وصف الزهاوي الداعين الى تقليد الغرب بضعاف النزعة العربية،

وقال: إن بيئة الغرب تأثرت بالآلة ولم يتأثر بها العرب، وعدّ شعر الغرب نسيج الآلات، وشعر العرب شعر الارواح، ومن قتل الشعر العربي فقد قتل العرب، فقال: الغالب على القائلين بهذا التحويل هم نفر مارسوا الآداب الغربية في بلادها فألفوها، وضعفت فيهم النزعة العربية فأخذوا يشعرون شعور الافرنج وأرادوا أن يعبروا عنه بالعربية شعراً، فما سمحت لغتهم بذلك لأنها متولدة للتعبير عن شعور خاص، هو شعور العربي وقد خلقت كل لغة للتعبير عن شعور أهلها، فلا تسطيع أن تعبر تعبيراً صادقاً عن شعور غير أهلها...).

ووصف هؤلاء الذين نظموا الشعر العربي بعيداً عن البيئة العربية، بالمتشبهين بالغرب وان أكثر شعرهم (بارد غث وتكاد لا تصادف بيتاً مبرزاً يجوز أن تستشهد به في كتاباتك او خطبك لحسن أدائه وكبر معناه.. بالرغم عما هنالك من الالفاظ المزوقة التي يأتون بها طلاء لوجه شعرهم...) وطالبهم بعدم انشاد هذا الشعر، والابتعاد عن نظم الشعر واعتبرهم من الضالين الذين يجّدون في تقويض صرح الشعر العربي وقال (وهذا الذي يأتون به من الشعر المتفرنج لا يعيش في ارض لا تلائم، بيئته وستجده بعد قليل قد يبس بأشعة الشمس التي تطلع من سمائها حارة فيعود حطاماً ..) وقد أراد للشعر الحديث المرسل، أن يأتي بقالب عربي مع مراعاة للذوق العربي، والمحافظة على أسلوبه حتى يكون للشعر العربي ر. نق فوق رونقه وثراء فوق ثرائه، ولكن خاف من الشباب الذين تعلموا في الغرب وما رسخت اقدامهم فى اللغة العربية.

والزهاوي من المجددين الى أبعد حدود التجديد، مع ذلك فلم يرض بالتجديد الكلي الذي رآه فى الشعر آنذاك ورأى أن التخلص من القافية

غير صحيح ، وخير وسيلة للاصلاح (أن يحافظ الشاعر في قصيدته على البحر ، سواء أكان من بحور الشعر القديمة ام الجديدة ، وأن ينتقل بعد كل بضعة ابيات الى روي جديد ، فان القصيدة لا تخلو من مطالب مختلفة مع مناسبة بعضها) وقال (ومن العجب أن فئة من المتشبهين ينحون باللائمة على اهل القوافي ، وحجتهم انها قيود يتقيد بها الشاعر ، فلا يكون حراً في نظم المعاني ، مع انهم يلتزمونها حتى في الاشطر الاولى ، فهم يضيفون على القيود التي في ارجل الشعر ، اغلالا في ايديه . . .) . (١)

ودعا الزهاوي في تجديده الى ترك القافية والاكتفاء بالوزن . وسمى الشعر الذي يدعو اليه الشعر المرسل ونشر قصيدة أيد فيها رأيه منها :

لموت الفتى خير له من معيشة ... يكون بها عبئاً ثقيلا على الناس
يعيش رخي العيش عشر من الورى ... وتسعة أعشار الأنام مناكيد
أما في بني الارض العريضة قادر ... يخفف ويلات الحياة قليلا
أفي الحق أن البعض يشبع بطنه ... وان بطون الاكثرين تجوع
أسائلتي عن غاية الخالق اسكتي ... فما لي على هذا السؤال جواب (٢)

وشرح بمقالات وجهة نظره وخالفها من خالفها ورد عليه رفائيل بطي فقال (إن ما يدعو اليه هو الشعر المنثور بعينه ، واذا اطلق الشعر العربي من القافية فأحر به ان يطلقه من الوزن ، ليكون ارساله صحيحاً ، فيصبح حينئذ الشعر المنثور الذي

---

(١) محاضرة ألقاها الزهاوي سنة ١٩٢٢ ونشرت في جريدة العراق شباط ١٩٢٢ .

( ) ديوان الزهاوي ص ٣١ ، القاهرة ١٩٢٤ وبلغت القصيدة ٢٦ بيتاً وكانت بالمنظوم ٦٠ بيتاً ونظمها سنة ١٣٢٣ ﻫ .

هو شعر بمعانيه والفاظه ، ولكنه ليس منظوماً . ونخال ان الانفس العصرية اصبحت تمج التقليد ، وتكره القيود ، لذلك هي ترحب بالطرائق الجديدة السهلة ، نظير الشعر المنثور ، إننا مع مناصرتنا للشعر المنثور لا نجحد قيمة الشعر المنظوم ، ولا نود أن يقاوم ، فانه ركن مهم في عالمنا الادبي ، بل ليبق الشعر المنظوم وبجانبه الشعر المنثور ، لتظل القصائد الغر المنظومة آثاراً خالدة لكبار الشعراء الناظمين ، ولتظهر بدائع الشعر المنثور في مقالات وكتب يكون لها تأثيرها في جمهور القارئين) (١) .

رأي الرصافي :

وقد أبدى الرصافي رأيه فيه فقال : (الغناء والرقص غريزتان من غرائز الانسان ، كما ان المنطق غريزة فيه ، وما الشعر إلا وليد هاتين الغريزتين ، فان المنطق هو أسنى مظهر من مظاهر الشعور لما اقترن بالغناء وتولد الشعر ، فالشعر لا يقال إلا لينشد وبعبارة أخرى ليتغنى به فلا بد فيه من الوزن والقافية ، لأن الغناء نغم وإيقاع ، وهما لا يكونان إلا على تقاطيع متوازنة من الكلام ولم نعهد أمة من الامم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه ، وغاية ما نراه من شعراء اوربة اليوم ، هو إنهم يبعدون في القوافي ويتجوزون فيها ، لأنهم يهملونها بتاتاً ، وكما هم يتجوزون في القوافي يتجوزون في الوزن ايضاً ، فلا يلتزمون في القصيدة الواحدة وزناً واحداً . وقصارى القول في طريقتهم هذه أنها تشبه طريقة الموشحات عند العرب ، وأنا وإن كنت لم اطلع على الشعر

(١) مجلة الحرية ، ١ تموز ١٩٢٥ رئيس تحريرها رفائيل بطي ، صاحبها ومديرها المسؤول عبد الجليل رزق الله ادفي .

الافرنجي لعدم معرفتي لغة اجنبية ، فقد اطلعت على المتفرنجين من شعراء الأتراك الذين قلدوا شعراء الافرنج تقليداً مطلقاً ، ومشوا في اشعارهم على آثارهم ، واتبعوهم فيها حذو القذة بالقذة ، فلم أر شعرهم خالياً من الوزن ولا من القافية ، وإنما هم كما قلت آنفاً يبعدون فيها ويتجوزون . وجل ما يتجلى لي من هذا الشعر الذي يسميه صاحبه بالمرسل إنما هو اقتران الرعونة بالشعور ، وخلط السخافة بالظرافة ، وإدغام التفاهة بالنباهة ، وطلب السمعة من وراء البدعة) . (١)

(ومن الغريب أن بعض الناس عابوا على الشعر قوافيه بأنها تكرار ممل ، وذلك وهم منهم فان القافية لا تتكرر في الشعر ، بل تكررها عيب عند العرب يسمى بالايطاء ، وإنما يتكرر منها حرف واحد وهو الحرف المسمى بالروي ، فالمعنى في كل قافية غير المعنى في سواها من أخواتها ، فمن أين جاء هذا التكرار الممل ؟ على أن تكرار بعض النغمات في الموسيقي امر لا محيد عنه ، وهو مسموع ومألوف وما تكرار حرف الروي في الشعر إلا بمنزلة تكرار بعض النغمات في الموسيقى) .

(هـذا . وما الشعر المنثور العاري من الوزن والقافية ، فهو شعر بالمعنى الاعم أي هو شعر بمعانيه التي تفعل في النفس ما يفعله الانشاد المقترن بالنغم والايقاع ، إلا أنه لا يتغنى به فعلا ، فهو إذن تقليد للشعر المنظوم من جهة الغاية المقصودة به ، وحبذا لو سمي الشعر المنثور بالشعر الصامت ، لعدم اقترانه بالغناء والرقص ، وسمي المنظوم بالناطق لاقترانه بذاك) .

(أما أنا فاستحسن الشعر المنثور ، وأقول به ، من حيث أنه خير واسطة لانباط القرائح ، وإثارة العواطف لا غير ، إلا أني لا أفضله على الشعر المنظوم ،

---

(١) عرض الرصافي بفكرة الزهاوي .

لأن هذا شعر منثور وزيادة ، إذ هو لاقترانه بالغناء يبلغ غاية الشعر المنثور من طريق أقصر ويتناولها بيد اطول) .

(ولا يجوز أن يفضل المنثور بكون مجاله افسح ، وأوسع من مجال الشعر المنظوم ، بسبب تقيد هذا بالوزن والقافية ، واطلاق ذاك منها ، لأن الشعر لا يكون مسرحاً للعقل والفكر حتى بعد اتساع مجاله . مزية مستحسنة وإنما الشعر مسرح للنفس ، ومثار للشعور والعاطفة ، وإذا كان الوزن والقافية هما الغناء نفسه ، فتقييده بهما إطلاق له في مسرح العواطف والشعور . وهل ينكر منكر أن الغناء قنطرة النفس الى العواطف ومعبرها الى الشعور والحس) (١) .

رأى شكري الفضلي :

ومن المؤيدين للشعر المرسل شكري الفضلي فانه نشر مقالة فى جريدة العراق واخرى في مجلة الحرية ، آزر فيها الزهاوي في فكرة ترك القافية ما دام الوزن متوفراً فقال « الوزن نوع من الغناء وهو كما يكمل بالقافية يكمل بغيرها من الالفاظ وعلى هذا فوجود القافية وعدمها سواء بالنظر الى استقامة الوزن » (٢) وعد اقتراح الزهاوي إنقاذاً للشعراء من مصيبة القافية وهاجم في مجلة الحرية الشعراء الذين سماهم شعراء القافية بقوله : (إن اكثر شعرائنا اليوم يستحقون أن يسموا بشعراء القافية) فقد رأى القافية تتحكم فيهم وتصدهم عن مشاعرهم الخاصة وتحثهم على التقليد ، واتهم الشعراء بأنهم يجمعون القوافي من المعاجم قبل نظم القصيدة واتهمهم بالسرقة عندما تحددت طاقتهم بالقافية ، واتهم اكثر

---

(١) مجلة الحرية العدد السابق وهو جواب لسؤال سألته المجلة هو : ما تقول في الشعر المنثور الذي ابتدعه الريحاني والشعر الذي سماه صاحبه بالشعر المرسل ؟

(٢) جريدة العراق العدد الصادر في ٤ حزيران سنة ١٩٢٥ .

الشعراء في البلاد العربية بالتقليد وعدم الابتكار فقال : إن شعرهم (. . . نافر من الشعر الطبيعي والابتكار ، ومتعثر بين تقليد القدماء والكذب المسمى بالمبالغة) وفيه تكرار وسرقة استعارات القدماء وتشبيهاتهم وأن الذين جددوا في أغراض الشعر في العراق إنما يقلدون شعراء البلاد العربية وما جاءوا بجديد واتبعوا غيرهم في الاحاسيس ولم يبتكروا وجعلوا (الشعر في قيد أدهى وأمر من شرك تبعية معنى الكلمه المتضمنة حرف القافية) (١) .

ثم عرض الكاتب على القراء قطعة من شعره « المرسل » كما سماه هو ، وعنوانها « حمامة وهرة » وهي

كانت تنوح حمامة	والصبح مرآة ادكار
فتريك حاجتها الى	ألم التآلف والمعاش
حنت الى الف لها	ثم ابتغت أكلا وشربا
سر الطبيعة كامن	في قلبها الحر الصغير
لكنها لم تدر ما الا	جل المتاح وما الفناء
فهوت اليها هرة	في سرعة السهم المصيب
فتخبطتها بين أنياب	وأظفار حداد
وكأنما قتل الحمامة	لم يبشرها بموت
هذي الحياة وسيلة	للموت ليتك لم تكنها (٢)

وقد شرح رأيه بأن ترك القافية يمهد الطريق للشعور والاحساس وقد ترك الشعراء النظم على طرق العروض وعكفوا على الالحان الموسيقية المناسبة ،

---

(١) مجلة الحرية ٥ شباط ١٩٢٤ .

(٢) جريدة العراق للاستاذ رزوق غنام العدد الصادر في ٤ حزيران ١٩٢٥ .

واعتبر الوزن نوعاً من الغناء ولما كان الوزن كاملا دون قافية فلم يجد ضرورة للقافية لأن القافية مصيبة الادب العربي (١).

ولجأ للشعر الحر في العراق حينئذ ضعاف الشعراء الذين لم تكن لهم ثقافة عربية اصلية ، ولا اطلاع عميق على آدابها ، والاغلب هم ممن لم يتعلم في المساجد وأنظمتها . ومن يقرأ جرائد تلك الفترة يجد مثل هذه الاسماء التي تواصل السير فى نظم هذا الشعر .

وقد حاولت تتبع هـــذا اللون من الشعر فى العراق ما بين ١٩١١ حتى ١٩٤٥ في الصحف التي بين يدي فوجدت حركته ضعيفة الاثر مع ، أن الجرائد والمجلات نشرت لشعراء من البلاد العربية الاخرى . وقد اهتمت (صدى بابل) بنشر نماذج من هذا الشعر لأن صاحبها داود صليوة كان ذا ثقافة عربية ضعيفة محدودة ، وكان ركيك الاسلوب فوجد في الشعر المرسل شيئاً جديداً يوافق ثقافتـه الفقيرة ، التي لا تعرف قوة النسج ورصانة الاســـلوب . ومن القصائد التي نشرت قصيدة (وليم دياب نعمة) من دير القمر ختمها بمـا يلي :

ليس ما نجهله يجعلنـا جهلاء
بل ما ندعيه
ليس ما نرائي به يجعلنا ودعاء
بل ما نقصده
ليس ما ننشره يجعلنا أدباء

---

(١) المصدر السابق .

بل ما نفعله

ليس ما نعمله يجعلنا اتقياء

بل ما نرتاضه (١)

وبعد ذلك أجد في العشرينات حركة اقوى من الاولى، وإن ظهرت هذه الحركة خجلى، فقد نشرت جريدة العراق سنة ١٩٢١ قصيدة للاستاذ محمد الهاشمي واخرى بتوقيع (ب ن) واخرى بتوقيع (احدهم) فمن قطعة الاستاذ الهاشمي:

هو هكذا متألم في حياته الحزينة
لا تلوح على فمه إلا ابتسامات خفيفة
لا أثر لها في اعماق فؤاده المضطرب
لم تضحك له الايام ولم يضحك لها

ومنها:

هـو هكذا مجلس العرس والغناء؟!
وفي مجامـع الحزن ونوادي الرثاء
صامت كأن الملائك توحي اليـه
تهمس في قلبه معاني لا يعرفها لسانه

ومنها قوله:

يذهب الى المقبرة لأنه يحب الموتى
وبين الموتى يجلس لأنه من الموتى
ومن الموتى يسمع لأنه يخاطب الموتى

---

١) جريدة صدى بابل العدد ٨٨ الصادر في ٨ أيار ١٩١١

وعنهم يفهم لأن الاحيـــاء أغبياء (١)

ونشرت مقطوعة (ب ن) ومنها ما يلي :

اتركوا نعشي ملاك الهجر يحملني الى

حفرتي

هو يحملني اليها

ويواريني فيهـــا

إنـــه

حمـــل الهم الي

طول عمـــري

سيسقيني المنيـــه

أنـــا أدري

فاتركوه ، ليتمم فعـــله نحوي ولا

تزجروه

بعـــد موتي (٢)

ومن قطعة « احدهم » وقد سميت بالشعر الحر :

الى مهـــد العـــلوم وبنت القرون

الى مرضـــع الفلسفة ام الفنـــون

الى جنـــة الآداب في العهد المصون

يســـير الساعة موكب الامير العظيم

---

(١) جريدة العراق العدد ٣٢٧ ٢/٢٥ حزيران ١٩٢١ .

(٢) ملحق جريدة العراق العدد العدد ٣٥٠ /٢/ ٢١ تموز ١٩٢١ .

أمعهد العلم إلا اسجد بتهليل

فزائراك هو ابن الحسين الاثيل

عليم بقدرك وفضل تاريخك الجليل

وفي صدره ذكرى عز وشمم عظيم (١)

وقد نشرت مجلة الزنبقة عدة قصائد منها قصيدة لأمين الريحاني الذي عُدّ رائد هذا الشعر (٢) وسمي شعره منثوراً نختار منه جزءاً :

ولم تنبح الكلاب

من ذا الذي في الباب؟

إن في الباب مليكا دوخه الزمان

. . . . . .

تصرخ فيه معدة ظالمة فتذل فيه صورة الصمد المتعال

تصفر فى رأسه الرياح فتصرعه

فيرد صداها شبح الوساوس والايام

يهذي فيتساقط اللعاب من فيه ،

أسير أسقام وأوهام .

يدق صدره مستعطفاً فيرتجف هيكله الهشيم ارتجاف قصبة في الرياح

إن في الباب شحاذاً يستنبح الكلاب

---

(١) جريدة العراق العدد ٣٠٥ /٢/ ١٦ تموز ١٩٢١ .

(٢) قالت مجلة الحرية عنه انه احتذى طريقة والت ويتمان في اطلاق الشعر من قيود الوزن والقافية فابتدع طريقة الشعر المنثور فى اللغة العربية وتبعه كثيرون ولا سيما أدباء العرب في المهجر .

إن في الباب مليكا دوخه الزمان

. . . . .

ولمَ تنبح الكلاب ؟

إنما نحيب الكلاب هذا لانباحم .

نحيبهم على من في الباب

على مليك صرعه الزمان

على شحاذ عضه الوهم في الكبد والويل في الجنان

حتى الكلاب ينبحون ويتساءلون ! ؟

. . . .

إن فى الباب شحاذاً من بؤساء الكلدان

ممن أرهقهم سيف بني عثمان

طواف يطوف البلاد متسولا

كفارة عن ذنوبه وآثامه ؟

كفارة عن جرائر حكامه

هو ضحيـة الزمان

على طغـاة الزمان

هو دمل من دماميل مجتمع الانسان (١)

وزيارة الريحاني للعراق سنة ١٩٢٢ اثرت في تيار جماعة من الشعراء أرادوا أن يجاروه لأنهم حسبوا أن امين الريحاني قد جاء بشيء جديد . وقد استقبل

---

(١) مجلة الزنبقة العدد الصادر في أول تشرين الاول ١٩٢٢ .

الريحاني استقبالا حافلا ، وأقيمت له الحفلات ، وكرم تكريماً كبيراً ، لأنها كانت فترة الحماسة الادبية والفكرية والوطنية ، ولعلها من أهم فترات العصر الحديث في العراق . ومن الذين عثرت على نظمهم فى الشعر الحر رفائيل بطي وقد ألقاه فى تكريم امين الريحاني محاكياً فيه شعره ، قال :

انا رفيق الطبيعة
انا طريد الزمان
انا حبيب الانسانية
انا عدوها اللدود
مكاني معروف وإن عشت بغير مكان
وذكراي لا تبرح الاذهان
وإن تجاهل بوجودي كثير من ابناء الانسان

وأكثر القصيدة من النثر الخالي من الوزن وإن جاء ببعض القوافي فهو نثر مرتب على شكل الشعر لا غير ، وختمها بقوله :

مكاني معروف وإن عشت بغير مكان
وذكراي لا تبرح الاذهان
وإن تجاهل بوجودي كثير من بني الانسان
وسوف يعرفني رفاقي
متى رفعوا الغشاوة عن أعينهم يعلمون
إنني وإياهم في الجوهر متفقون
وإن اختلفنا في الاعراض
في ذلك اليوم لا اعشق الطبيعة وحدي

بل اعشقها واخواني سوية ونسير فى سبيلها معا
فنفوز بالحياة الحقة الحياة الخالدة
حياة الحب والسلام
حياة الحقيقة والوئام (١)

وقد نشرت الزنبقة قصيدة وقعت بتوقيع (فتاة مكلومة الفؤاد) اول مقطع منها:

قد كان لي حبيب ، أجد قربه النعيم .
كان خليلي الودود الحميم ،
وأنيسي الوحيد الوسيم
اغتالته يد المنون في شرخ الشباب ،
وتركني أقاسي انواع العذاب ،
لفراقه الأليم
وياليتها قصفت حياتي معه ،
كي أكون مقترنة به في الرميم
ففي إحدى الليالي المقمرة ذهبت لزيارة ضريحه
كي اناجيه في الخلوة وأنا في سكون الليل البهيم .
اخذت له معي زهوراً كي افرشها على لحده ـ
فتذكرني بزهرة شبابه وأريج عرفه الكريم

وتناجى كاتبة هذا القول وتختمه قولها او ـ نثرها المرسل بقولها :

ما أقساك ايها الموت الظالم

---

(١) المصدر السابق نفسه .

إذ فرقت بيني وبين حبيبي وهو في القبر نائم
ألا تقول لي ما كان ذنبي اليك؟
إذ صرعته ولم تخش لومة لائم!
ما الذي اقترفته يا لئيم
حتى جعلتني في عذاب دائم؟
ورثت لعنات الخلائق طرا،
وفعلك بالإثم قائم
تخالف في كل لحظة وصايا الذي حرم القتل،
وفي المنكرات انت عالم
تنقض على الحبيب فتصرعه وتنزع قلب الحبيبة،
وانت فوقها كالصقر جاثم
فاذا كنت ذا نخوة،
فاجمعني بذاك الذي قلبي بـه هائم (١)

ويتبارى الشعراء الضعاف في التحرر من الأوزان والقوافي، حتى ينتقل الشعر الى نثر مسطور على شكل الشعر، وقلما وجدنا فيه بعض القوافي والموسيقى والوزن، وفتح رفائيل بطي صدر مجلة الحرية التي يشرف على إصدارها ويكتب قائلا فى احدى مقالاته بعنوان الشعر المرسل: (أخذ الاستاذ الزهاوي في بغداد، يدعو في الايام الاخيرة الى ترك القافية فى الشعر العربي، والاكتفاء بالوزن، وقد سمى طريقته هذه بالشعر المرسل، ونشر مقالات في جريدة السياسة البغدادية

(١) الزنبقة العدد ٤ الصادر في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ .

وظهرت مقالات تؤيده وتخالفه ... وكتبت كلمة فى «السياسة» اقول له: إن هذا هو الشعر المنثور واذا خلا الشعر من القافية فاحر به إطلاق الوزن ليكون ارساله صحيحاً (فيصبح حينئذ الشعر المنثور الذي هـو شعر بمعانيه وألفاظه ولكنه ليس منظوماً. نخال أن النفس العصرية أصبحت تمج التقليد، وتكره القيود لذلك ترحب بالطرائق الجديدة السهلة نظير الشعر المنثور . . . » . (١)

وعزز رأيه في المجلة نفسها فقال :

احتذى الاستاذ أمين الريحاني طريقة (وايت ويتمان) الامريكي فى اطلاق الشعر من قيود الوزن والقافية ، فابتدع طريقة الشعر المنثور فى العربية وتبعه كثيرون لا سيما أدباء العرب فى المهجر ، وقام في الايام الدكتور نقولا فياض ، من أدباء سورية المقيمين في مصر ، بحركة فكرية حديثة فأوجد أسلوباً جديداً للشعر العربي ، الطلق من قيود القافية والوزن ، كذلك مع الاحتفاظ بالرقة الموسيقية في اختلاط الأوزان بعضها :

إن أكن أحببت حباً خالصاً
فلقـد أحببت فاك
إن أكن أحببت حباً مؤلماً ـ فهما
مقلتـاك
إن أكن أحببت حباً لا يطاق
فهو ذاك الخصر مشدود النطاق
وهو ذاك الجيد والقـد الرشيق

(١) مجلة الحرية العدد الصادر في أول تموز سنة ١٩٢٥ .

إن أكن أحببت حباً لا أفيق
منــه ، فهو الجسدُ
ناعم يتقـــد . (١)

وينشر قصيدة لمراد ميخائيل بعنوان (صلاة الشيطان) نقتطف منها ما يلي :

مثلما ينتفض الطير لابتسام النور،
مثلما تسبح النجوم فوق صدر المياه ،
مثلما تتلمع رمال الشواطىء وقت الهجير
مثلما تحن الازهار للمنحة العنبرية ،
مثلما تهدأ دمدمة السواقي لقدوم الظلام
مثلما تهرب العصافير من وجه العاصفة .
هكذا حالات ذاتك الصغيرة صنعة يديك !
ـ فباركها لتتفادى في حبك
وقدّسها لتتفانى للقياك حتى ترجع اليك
طاهرة نقية من أدران الحيـاة .

معروف الرصافي :

ثم نشر لمعروف الرصافي فى نقده وتقريظه مقالاً جعله على شكل شعره في باب مجالي النقد والمناظرة بعنوان (الشيطان أمثاله وأشعاره (٢)) : وقـد ســار الشاعر في تيار العصر ونظم في الطريقة ، وإن لم يقدر أن يتابع مثل

(١) مجلة الحرية العدد الصادر في ١٥ تموز سنة ١٩٢٤ .

(٢) كتب الرصافي في هذا النقد لـكتاب (الشيطان) لمراد ميخائيل .

هذا الشعر فقد خلط بين النثر وبين الشعر المرسل وكان في الذي نظم كثير من الوزن والقافية، والمقال او القصيدة ترتبها حسب الشطر الواحد :

كتاب كريم
من شيطان غير رجيم ،
من رحيم غير شيطان ،
من إنسان في صورة رحمان
من رحمان في مسلاح انسان
من انسان هو شيطان ،
من شيطان أنس ليس من الجان .
ينقش صورة اليقين في ألواح الشك
ويزج في مهاوي الشك
بألواح اليقين ،
تراه ساخطاً على الدين وهو به راض ،
ومحتقراً للعقل وهو به قاض .
يريد أن يجمع سلسلة النور الممتدة بين ظلمتي الازل
والابد ليجعلها قلادة في عنق الانسانية
بل يروم أن يصقل بمصقلة الهدى مرآة الحيرة
ليقدمها هدية
الى عروس الهوية الناسوتية
لترى في صورتها الأولى بجانبها من المحاسن المصنوعة

والمعايب المطبوعة
رقيم خطــير
لشــاعر حقير ،
نظيم وهو نثير ،
صغير وهـو كبير ،
فيــه خطاب مستطاب
ولكن لا يستطاب
ولا ريب فيـه ولـكن فيـه بستراب .

* * * *

شعر لشاعر يقول بما يشعر ويشعر بما يقول ،
يريد أن يصوغ من شعوره الحي
تاجا لجمجمة الحق الباليه
وأن ينسج من نيران ذكائه المتوقد
أزاراً يستر بـه سوأة الأباطيل البادية
وهيهات ثم هيهات لما يريد .

* * * *

لقـد آمنت بك أيها الشيطان
إذ لم أر قبلك انسانا قال بأنه شيطان
ولكن كم في الناس من شيطان يزعم
إنـه من ملائكة الرحمان
أما أنت فجازع
أما غيرك فخادع

أما انا فأقول :

لو كان للشيطان معنى غير ما الانسان
ما آمنت بالشيطان يا مراد ميخائيل !
أنا اول انسان
يؤمن بأنك شيطان ،
وآخر شيطان يكفر بأنك انسان (١)

وينشر في المجلة قصيدة للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ويسميها الشعر الطلق بعنوان « محاورة قصيرة » (مع ابن لي بعد وفاة امه) :

لم أكلمه ولكن نظرتي
سألته أين أمك ؟
أين أمك ؟
وهو يهذي لي على عادته
منذ تولت - كل يوم !
كل يوم !
فانثنى يبسط من وجهي الغضون
ولعمرك كيف ذاك ؟
كيف ذاك ؟
قلت لما مسكت وجهي يداه

(١) مجلة الحرية العدد الصادر في ١٥ شباط سنة ١٩٢٤ .

أترى تملك حيلة ؟

أي حيــلة

قال: ما تعني بـذا يا ابتاه ؟

قلت : لا شيء أردته

ولثمتـــه . (١)

وتنبري مجلة اليقين(٢) لصاحبها محمد الهاشمي وتنشر قطعة من الشعر الجديد لم يذكر اسم كاتبها وأعتقد انها لمحمد الهاشمي نفسه، لأنه اخبرني من قبل أن ماكان قد نشر في مجلته بلا توقيع فهو له إلا ما ندر . وقـد بدأت المجلة بنشر نماذج من البند العراقي في عددها الأول وروت عن الجوهري : إن البند حلقة بين النظم والنثر ولعل ابن دريد هو اول من أراد أن يفلت من هـذا القيد فما تمكن وتحدثت عن أصول البند وانه عراقي وان من أولع بـه هم الاخرس والعشاري ومحمد سعيد الحلي وأبن الخلفة ؟. ونشرت فى أعدادها بنوداً منها بند ابن الخلفة الذي يقول فيه :

أيهـــا اللائم في الحب

دع اللـــوم عن الصب

فلو كنت ترى الحاجبي الزج (٣)

فويق الاعـــين الدعج

او الخـــد الشـــقيق

(١) ابراهيم عبد القادر المازني ـ مجلة الحرية العدد الصادر فى ١٥ ايلول ١٣٤٢ هـ

(٢) مجلة اليقين العدد ٣ السنة الثانية ١٩٤٢ ونشرت في جريدة العراق .

(٣) كذا .

او الرقيـــق الرحيق

او القـــد الرشيق

الذي قد شابه الغصن اعتدلا وانعطافاً (١)

ويستمر فى نشر جملة من البنود فى اعدادها .

وتنشر الجرائد العراقية انواعاً غريبة وأنماطاً عجيبة من هـــذا الشعر الجديد الغريب الانماط متأثرة بالريحاني المتأثر بالشعر الامريكي ، الذي اعتبره رفائيل بطي زعيم مدرسة الشعر الجديد في العالم العربي ، فنجد في مجلة الصحيفة (٢) قطعة بعنوان (ايّتها الفتاة) :

ارفعيـــه !

مزقيـــه !

واطرحيـــه !

بين احجار القبور

وانهضي سافرة الوجه وغني :

هكذا كان الســفور

* * * *

ليس عاراً

او شـــناراً

أن يجارى

سير تيـار الدهور

---

(١) اليقين العدد الاول ١٦ نيسان ١٩٢٢ .

(٢) مديرها حسين الرحال والمحرر مصطفى علي لاحظ العدد الثالث السنة الاولى ٦ شباط ١٩٢٥ والقصيدة للشاعر بسيم الذويب .

فارفعي البرقع عنك واطرحيه
تحت نيران القدور
* * *
بل دعيــه !
غســليه !
وادفنيــه
بين طيات التراب
ثم لا تبكي وقومي بارتياح
هكذا مات الحجاب
* * *
إن ســئلت
من دفنت ؟
فأجبت
إنــه نعش النقاب
سيقولون عليه رحمة الله فصلي
واقرأى ام الكتاب
* * *
ظـــلموك
ســـجنوك
زوجوك
شــر زوج في الوجود
قائلا زوجي لا تخرج إلا

يوم تدعوها اللحود

* * *

قـد كفانا

يا نسـانا

ما لقينـا

من خمول وجمـود

فلندع كل قديم ! لا تقلد !

إننـا لسنـا قرود !

ونشرت مجلة الصحيفة قصيدة اخرى بعنوان (اشتكي) وبتوقيع سمير الكواكب وهي قصيدة جيدة المعنى والأسـلوب ، وفي أكثرها تفاصيل تكسبها موسيقى ، وكأن ناظمها نظر الي قصيدة تسيب عريضة :

كفنوه .

واسكنوه

هوّة اللحد العميق .

فهو شعب ميت ليس يفيق

التي منها :

أشتكي : اشتكي لكن الى من اشتكى ؟

أخبري: أخبريني انت يا نفس أخبري !

وأجبري : واجبري قلبي الكسير المشتكي

* * *

اشتكي للريح هبت فى السحر ؟

لرعود السحب ، ام قطر المطر ؟

لخرير المـاء وأغصان الشجر ؟

* * *

أم لامواج البحار الهـائجه

فاتركي : اتركيني بين أحزاني اتركي

أشتكي : أشتكي لكن الى من أشتكي

* * *

كلها تشكو : فتغريد الطيور ،

وخرير المـاء ما بين الصخور ،

وحفيف السرو او موج البحور ؟

كلها أصوات حزن شاكيه .

فاملـكي ، أملكي روعك يا نفس املكي !

اشتكى : اشتكي لكن الى من اشتكي

* * *

اشتكي من سـوء اخلاق البشر ؟

أشتكي من جور أحكام القـدر ؟

اشتكي نفسي ! فهل منهـا مفر ؟ (١)

وتنشر جريدة الاستقلال قصيدة بتوقيع أبي سلمى وقد وضعت فى باب « الشعر المرسل » فيها :

نسـمة الصبح اذا زرت الشـآم

---

(١) مجلة الصحيفة ٢١/٤ شباط سنة ١٩٢٥ .

سـحرا

فاخشعي واهدي الى ربعي السلام

عطـرا

والثمي تربتهـا فهي نديه

قـد غدت من دم أبناها رويه

هي ارض المجـد مثوى الشمم

يا أخلاي قفوا وابكوا الربوع علنا (١)

وقصيدة لخضر صالح بعنوان « جهادي في بلادي » وقد وضعت تحت باب « الشعر المرسل » وهي :

قبلتي شـعبي ودنيي وطني

وبنـو قومي عمادي وبلادي معبـدي

رايتي انت شعاري جددي الماضي وعيدي

وروّي أيام الرشيد

أيا بغـداد لا تشكي همومـاً

ففي الايات ، صبراً ، قال ربٌّ

دعي الاقـدار ترميك بسـهم

لعـل الدهر يأتي بانقلاب (٢)

وقصيدة (لمدحة) بعنوان « الى فتاة الشرق » وقـد وضعت تحت باب

---

(١) جريدة الاستقلال ٨٢٠ السنة السابعة ١٠ اغسطس ١٩٢٦ .

(٢) جريدة الاستقلال ١٤٧٤ ، ١٠/٧ أيار ١٩٣٠ .

« الشعر المرسل » وهي :

كفكفي الدمع تعالي
في الليالي
تحت اشجار النخيل
واصفحي عني قليلا
ودعيني
أتناسى ما مضى
من سويعات اللقاء
عهداً اقسمت به لا عهدي الآن سواه
أواه
ارحميني
وسقامي لأقاسمك الهموم
فاليك الآن اصبو ولك الحب يدوم (١)

وينشر بسيم الذويب قصيدة في المزمار سنة ١٩٢٩ منها :

صرعتني
قتلتني
إذ رمتني
بسهام من عيون
ناعسات ساحرات فاتنات

---

(١) جريدة الاستقلال ١٤٧٣/١٠/١٦ أيار سنة ١٩٣٠ .

جالبات المنون
هي ضيغم
ليس ترحم
قلب مغرم
فهي للظلم تجيز
لقد احتلت وأيم الله قلبي
كاحتلال الانكليز
ضاع قلبي
تاه لبي
أي وربي
بين هاتيك النهود
فتلمستها عليّ أرى ثم ـ
لما ضاع وجود
وبختني
إذ رأتني
كدت أجني
ثم قالت يا عنود
لا تمد اليد للنهد فقد
جاوزت والله الحدود
فندمت

إذ لمست

ثم قلت

انت فقت العالمين

بجمال ما حوته غير حور

قاصرات الطرف عين

فارحميني

لأنني

وامنحيني

قبلة من ذي الشفاه

علها تغدو شفيعي عن ذنوبي

يوم يلقاني الاله

فالتفاني

يا حياتي

في صلاتي

لك يا ذات الدلال

إنما الله كما قالوا - جميل

ومحب للجمال

ويصدر رفائيل بطي مجموعة الربيعات فيها من الشعر المرسل يقتطف منها

امين الريحاني في كتابه « ملوك العرب »(١) جزءاً منها وقال عنه : إنه شاعر، وعامل في السبيل الذي فيه التحريم والتكفير وسيكفرونه بلا شك تكفيراً مضاعفاً لأنه يسيء الى اصحاب العقائد والآداب العتيقة إساءتين في الفكر وفي الطريقة ، أجل هو من اعضاء الشعر المنثور وقد قال في قصيدة له عنوانها (النابغة) :

وجدتني في مجاهل أرض كل ما فيها يثير الدهش والذهول
ورأيت نفسي مكبلا بسلاسل التقليد ، سجيناً في قفص
الأوهام ، أسير عادات ، ورهين أوصاب
حطمت السلاسل ، وكسرت القيود ، وقوضت جدران الوهم
وانعتقت مما درج عليه اجدادي
فصاح اخواني وضجوا
وأعولوا وبكوا
رأوني خارجاً عن سجنهم ، أتمتع بحرية هم منها محرومون
شاهدوني أرفل بصحة وسلامة ، وهم في آلامهم يتعذبون
أولئك الذين يتخذون من جهل الشعب علمهم ، ومن ضعفه قوتهم .

ونشر أنور شاؤول سنة ١٩٢٩ في جريدة العراق تحت باب « الشعر المرسل » هذه القصيدة :

اسمعيني
أنصفيني
أسعفيني بالوداد

---

(١) ملوك العرب ص ٣٩٨ ج ٢ طبع سنة ١٩٢٥ - بيروت .

قبلما يصحو فؤاد

أسكبي في القلب حبا

سائغاً مثل العسل

سكراً مثل الأمل

ثم اختتم القطعة بقوله :

ولتكوني مثلما قد كنت او سوف أكون

مثلا للعاشقين

وإذا ما غبت يوماً فليكن طيفي بجنبك

باسماً أحلى ابتسام

ناثراً زهر السلام

عازفاً لحن الفراق

منشداً : يا حبذا لو تخلد الروح بقربك (١)

ولم يقف تيار هذا الشعر الحر ، او « النثر المشعور » كما يسميه الدكتور مصطفى جواد ، بل مضى في طريقه ، وظهرت منه قصائد ومقطعات في مختلف المطبوعات كالكلام وبغداد والاستقلال والعراق ، ومن هؤلاء مراد ميخائيل ، وهو أسوأ من رأيته ينشر في هذه الفترة ، من ناحية الاسلوب والمعاني والموسيق ، كقوله من قطعة له عنوانها « دفتر الحب » :

ارفعي عينيك نحو السماء إنها « أنت »

هي غامضة كابتساماتك ، شاردة بنجومها كنظراتك ،

---

(١) جريدة العراق العدد ٢٨٨٥/٤ ت الأول سنة ١٩٢٩ .

رائعة كسماء عينيك ، عميقة كخيالتك ، شاهقة كأحلامك (١)
هادئة كنفسك .

ونجد قصيدة لمير بصري في جريدة العراق وهي خير من (دفتر الحب) فنجد فيها وزناً وموسيقى ، وهي :

نبئوني ، خبروني أين تحظى بالرقاد
نفس حر قد أقامت في سهاد أبداً
ذكر عهد قد تولى في صفاء ووداد
حين كانت حلف جهل ليس تدري كمدا
ليس للماضي معاد . . والتمني لا يفيد
إن من يلقى سلواً في الكرى فهو السعيد (٢)

ونجد للموشح أثراً واضحاً في تلك الفترة ينظم وكأنه رد فعل على هذا المنشور في الجرائد فنشر الاستاذ عبد الستار القرغولي قصيدة في ذكر شعبان :

الكفاح ، سيجعل الآمال بيضاً ، صفاح
والجراح ، اذا همت فوق الربى ، والبطاح
فالصفاح ، سوف تواسيها ولدن ، الرماح
فاغربي ، يا فئـة الشعر ولا ، تقربي
واسكبي ، دمعك من فتك بني ، يعرب (٣)

---

(١) جريدة البلاد العدد ١١/١٢٩ نيسان ٣٠ ١ .
(٢) جريدة العراق ٣٤١٣ / ٢٠ نيسان ١٩٣٤ .
(٣) جريدة البلاد ٨/٧٠٦ ٢٦ ت١ سنة ١٩٣٦ .

وقد نشرت جريدة بغداد عدة مقطوعات فيها محاولة لضبط القافية منها قطعة لعبد اللطيف السامرائي :

لنفترق يا صديقي

قبل أن تسوء العاقبة وتفسد النهايه

كنا قبلا ... قلوبنا متآلفة متآخيه

فثارت بين أجنحتنا عاصفة الشقاق

فحصل ما سبق

وسنتفرق ، ونبتعد كل يجد هدفه

لا وفاق بيننا ولن تجمعنا جامعه (١)

ونجـــد في الجريدة نفسها قطعتين لطارق عبد الحافظ نور الدين فيها من الوزن والموسيقى ما يضاهي احسن الشعر الجيد الحر ولكن يظهر ان الناظم لم ينشر غيرها وهما :

سحر الجمال

كاعب في وجنتيها

فجر أحلام

ينام

رب تقبيل يزيد

في احمراره

---

(١) جريدة بغداد ١٩٣٧ .

دمعة من مقلتيها
لهب آمال
يضـــام
بجمال لا يسير
في أواره
كاعب جسمها زبد البحار
ففيها الضياء وفيها دماه
ثغرها الحلو الجميل كدنيا
من السحر خصيبه
والقصيدة الثانية بعنوان (قبلة) منها :
شفتاك كأس خمر الجمال
ففيها خيـال
لموت الحياة
وعيش الممات
وقلبك فى دمعة كالشفق
ففيـه انهرق
ضلال الهوى
وطيف الجوى
ولـكن قلبك فى ثغرك
يلوح كسحرك
عنـد ابتسامه

ولم تكن الصحف العراقية مقصورة على نشر الشعر العراقي فقد وجدناها تنشر لالياس أبي شبكة قطعة بعنوان اسطورة :

كان ما كان ، في ربى لبنان
شاحب كالطيف أهيف اسمر
ضامر كالسيف او أضمر
حذر الرؤيا على عينيه
وارتعاش الحب في فمه
عرق الوحي على صدغيه
فاض من دمه
قلبه ، ما أبعد الآثام
عن هواه ، عن لياليه
والهوى إن راح يخفيه
حدثت عن سره الاحلام وأغانيه
والحور سهران موهن الخصر
والقمر سكران في النهر (١)

وقد نشر الأستاذ كمال ابراهيم بمناسبة ذكر ياسين الهاشمي قطعة سماها الشعر المرسل هي :

في خشوع العابد ، ورهبة ، الموت والتأمل الحزين

---

(١) الكلام العدد الأول سنة ١٩٣٨ .

وقفت بين قبر البطلين ياسين وصلاح الدين
فيا للبطولة مجتمعة فى مكان واحد
وقفت فى صمت وذهول
لا أجد ما أقول
سكت اللسان ، ونطق القلب وفاضت على النفوس شؤون الشجون
معان وصور تبدو للعين وتزول
كأنها رقوق الخيالة ثم يحجبها الغيب عن العيون
أشباح تموت ، وأشباح تحيا من جديد
يرسلها الماضي القريب والبعيد (١)

ونشر حسين تيمور قطعتين فى جريدة العراق من الشعر المنثور الأولى بعنوان (ابن الراعي) هي :

عندما يلفظ الليل أنفاسه الأخيرة
تتنفس نسمات الفجر
تتعانق الأغصان
تتجاوب قبلات الصباح
ومن بين جذوع عمالقة النخيل
من وراء التلول
تنفلت الغزالة
تبعث النور والحياة

---

(١) جريدة الاستقلال ، عدد خاص عن ياسين الهاشمي رقم ٣١٠٥/٢١/١٨ ك٢ ٣٨ .

ليوم جديد وكفاح جديد (١)

ونشر قطعة اخرى في الجريدة نفسها عنوانها (حفار القبور) منها :

وجوه جامدة
تعمل بنشاط
بالنور والظـلام
دون أن يعتريها الـكلل
او يستوي على نفوسها الملل (٢)

ونشرت الجريدة قطعة بعنوان (ضحكة القدر) بتوقيع (أنيس) هي :

لأشـد ما أمقت ضحكة القدر
واحتقر سلاحه ، سلاحه الذي يفتك لكنه لا ينتصر
ولا يســود
أنا لا أخاف القدر
ولا أهاب غدره
ولا أخشى فتـكه
لأنه ليس قوة تنتصر ، او هيبة تخيف إنما غدر
يفتك وحيلة تـطو (٣)

وإحصاء ما نشر في خلال ربع القرن الماضي ليس أمراً يسيراً وأنا هنا أذكر مسيرة تاريخية للشعر تقيد الباحثين وأراني فتحت الطريق أمام غيري ممن يتسع له الوقت والقابلية ومهدت الســبيل له ليسير على طريقي

---

(١) جريدة العراق ٥٣٧٠/١٨/ ٥ تموز ١٩٣٨ .

(٢) جريدة العراق ٥٦٥٣/٢١/٣١ ت١/٤٠ .

(٣) جريدة العراق العدد ٥٤٧٥/١٩/ ٤ت ٢/٩٣٨ .

وقد حاولت أن أورد أكبر قدر ممكن من النصوص مما لم يألفه القارىء في دراساتي .

خلاصة وخاتمة :

من الاستقراء لما مرّ من النصوص نجد أن أول محاولة للتجدد هي التي قام بها الزهاوي في ديوانه « الكلم المنظوم » عندما نشر قصيدة حوت ستين بيتاً ، ثم عاد فنشر منها ستة وعشرين بيتاً في ديوانه سنة ١٩٢٤ ، لكنه لم يستمر . لأنه ما كان يعاني من الحيرة او القلق ولم يصطدم فى أمنيات نفسه ليثور ، فالمحاولة كانت في قصيدة واحدة بدل قوافيها فقط مع المضمون القديم وقلده فى المحاولة شكري الفضلي وبزّه بقصيدته فهي فى موسيقاها اقرب الى الذوق العربي وفي معانيها اتجاه في التجديد . . .

وبقيت حركة التجديد محدودة مع أن الجرائد كانت تنشر لنقولا فياض والمازني وغيرهم من شعراء البلاد العربية فى المهجر وكنا نجد في شعر قسم منهم مضامين ناجحة وأطر تجديد واضحة .

ومن المحاولات الناجحة فى الشعر في العراق شعر طارق الحافظ وبسيم الذويب فقد كان كل منهما يحتذي حذو الشعر المهجري ويحافظ على المعاني والموسيقى والذوق العربي .

فما سبب ظهور هذا الشعر في العراق ؟ او لماذا طرأت هذه الحركة على الشعر العربي في العراق ؟ ولفهم أسس الأدب لا بد أن ندرس العوامل النفسية التي تؤدي الى النظم او النثر لأن الثورة لا تأتي إلا بعد رجة خارجية تهز النفس الانسانية ، وتأتي مثل هذه الرجات من الاخفاق الروحي ، نتيجة

خسران الأمة الحرب او ضياع المثل والأماني ، خاصة عند الشباب وقد كان من إخفاق نابليون في حروبه ظهور الشعر الرومانتيكي في فرنسة لأن الشعراء الشباب أرادوا أن يعبروا عن احزانهم وآلامهم لما ضاعت احلامهم فى الانبراطورية .

والعراق قبل دخول الانكليز كان بلداً خامداً مستقراً هادئاً والحضارة محدودة ودبيب الحياة يكاد لا يحس به ، ومظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية سائرة على وتيرة واحدة من قرون ؛ لأن العراق كان بعيداً عن التفاعلات الخارجية ومعالم الحضارة الجديدة في أوربا .

وشعراء القرن التاسع عشر لا شغل لهم إلا النظم في امور محدودة ومضامين تمثل حياتهم الهادئة التي يقضونها في المقهى لاستماع حكايات الف ليلة وليلة وعنترة بن شداد ليلاً واللعب بالنرد والمنقلة وتدخين (الناركيلة) تزجية للوقت . او الذهاب الى ديوان من دواوين الأغنياء او الوجهاء وقضاء الوقت في الحديث المحدود الأفق والاشاعات الخاصة . ومنهم من كان يذهب الى المسجد للصلاة . فالحياة محدودة بحدود مرسومة لم يخرج عنها كل الجيل وما كان الحكام خيراً من الرعية . فما أثروا في حياة العراق الاجتماعية والفكرية تأثيراً يدعو الى التجديد والثورة على القديم .

ودخل الانكليز العراق بعد حرب ضروس طاحنة ابتلى بها أبناء العراق ومات منهم من مات ولم يعد منهم من ذهب الى جبهات القتال ، وخسرت الدولة المسلمة حربها ضد الكافرين فاهتزت المثل ، وضاعت القيم ، وفقدت الثقة بالحاضر الذي كان يعيش فيه الشعب . لأن الانكليز يختلفون كل الاختلاف

عن العثمانيين الذين كانوا قريباً من العرب . أما الاستعمار الانكليزي فقد ظهرت معالمه المادية واضحة للعيان فى القوانين وفي طراز اللباس وفي حياتهم الاجتماعية ، ومعاملتهم لأبناء الشعب .

ظهرت السيدة الأوربية سافرة تسير مع الرجل ، وتصحب كلبها معها وكان لها سلطان ونفوذ ، والعراقي يمنع ظهور النساء ويستقذر الكلاب ، ورآها ترتدي الملابس البعيدة عن الحشمة وهو المحتشم المحافظ ، رأى اختلافاً كبيراً في طراز حياته عن حياة المحتل . فهل يحافظ على طراز حياته وتقاليده ويتمسك بها ؟ هل يجاري المستعمر في أعماله التي لا يقرها ضميره الاجتماعي ؟ . إن الاستعمار قوي وهو ضعيف فهل ان مظاهر حياة المستعمر صيرته أقوى منه ومن الدولة العثمانية المترامية الأطراف ؟

أخذ العراقي يعيد التفكير ويعمق في الرأي أكثر من مرة عندما رأى المظاهر المادية الجديدة من اسلحة مختلفة ومخترعات حديثة ، كالبنادق والطيارات والسيارات والقطارات التي جاءت مع المستعمر أخذت تكثر وتنتشر . . . ولم يتركه المستعمر فقد فرض عليه قيوداً جديدة وراقبه في حياته اليومية وعاقبه على المخالفة بالجلد والحبس والاهانة . . .

وبدأ مظهر آخر في الحكم مظهر الدولة الجديدة ، فقد برز وزراء ونواب وكونت مجالس نيابية . . . إنها امور اخذت تجري سريعاً أمام عينيه ومعالم حياته التي ألفها تتغير سريعاً . . .

ثم ثار العراق سنة ١٩٢٠ وأبلى في ثورته وقدم التضحيات لكن هذه الثورة أخفقت واخفق امل العراق بالاستقلال وأمله بالوحدة العربية والحرية

كما ضاعت آمال اولئك الذين حسبوا ان الدولة العثمانية ستعود ، فران اليأس على الجميع وتلاشى الأمل الحبيب واختفى أفق الاماني المشرق .

كان هناك جيلان ، الجيل الذي نضج عقله واستوى جسمه وقويت شخصيته فتقبل الأحداث بقوة وصمود وعاد الى الماضي الاسلامي والعربي يستمد منه العون والقوة والثبات فينظم في تخليده وإعادة مجده ، ويدخل في شعره المخترعات الحديثة والنظريات الجديدة والحضارة الوافدة الى بلده محافظاً على الاطار ، وحاول أن يحشر الجديد في المضامين الشعرية .

والجيل الشاب الطالع يتوقد حماسة ، وينمو سريعاً لم تستكمل بعد أدواته ، ولم ينضج عقله ، وتتوضح أفكاره . أراد أن يكون شيئاً ، اراد أن يعبر عن رغباته .

وظهرت جماعة ما كان لها مجال في ممارسة الادب ونظم الشعر ، لأن المجتمع لم يكن ينظر اليها نظرة الارتياح والتقدير ، وكانت تهيم في كلمة الشاعر وما تسبغ من نعوت وأوصاف . . . وفي هذا العصر الجديد الذي ضاعت فيه المعايير ، وتاهت في دروبه المثل ، ظهر شعر جديد ومحاولة لأساليب جديدة وأنماط حديثة لم يألفها الشعر العربي .

فهل كانت هذه الحركة رد فعل للشعور اللاوعي لهؤلاء لقبول الحضارة الجديدة والاعجاب بالمستعمر والأخذ منه والاقتداء به ؟ لكي يحصل للامة ما حصل المستعمر من نصر ونجاح بعد أن اصابها الخذلان وجرعها مرارة الاخفاق وذل الاستعمار ؟

هل كانت دعوة التجديد قبول الواقع والرضا بالمستعمر ؟ لأن العصر عصر

تمدن وتطور وتقدم !! فما عادت للتقاليد قيمة ، وللدين أهمية ، وللقومية كبير طائل ؟ لأنه عصر ثورة على التقاليد والدين والقومية فجاءت دعوة السفور والأخذ بالمدنية الجديدة وتغيير التاريخ الهجري والساعة الغروبية ، وتطبيق الشريعة الاسلامية . وحل محلها التاريخ الميلادي والساعة الزوالية ، وقانون العقوبات الهندي . . . أليس من اختلال موازين المجتمع أن يكون من الحكام اولئك الذين احتقرهم المجتمع ؟ ونبذتهم الأكثرية ؟ إنها أسئلة تحتاج الى كثير من الاجوبة ولكنها كانت عميقة الاثر في النفوس . . .

وما الشعر الجديد إلا وافد مع هذا الوافد الجديد الكثير . . .

كانت حركة الشعر بين مد وجزر ، ودخلت الى قاموس الادب اسماء كثيرة ، وكثر نظمه عندما جاء الريحاني في زورته الاولى ، وبدأ أثر جماعة ابولو يظهر بين الشباب الجديد ، وانتشرت الترجمات للشعر الغربي الذي كتب على شكل الشعر ، وهو بعيد عنه في الروح والوزن والموسيقى ، وطفحت جرائد هذا العصر بأمثلة منه .

الحرب الثانية :

وتقوم الحرب العالمية الثانية بعد أن مر العراق بأحداث في حياته السياسية ، وبعد أن ضاعت فلسطين ، وبعد أن قامت عدة ثورات في العراق لم يكتب لها النجاح ، ويدخل الانكليز العراق مرة اخرى بوجه سافر ، بعد أن أخفق الجيش العراقي سنة ١٩٤١ ، وتظهر الجيوش الانكليزية وتوابعها في شوارع بغداد ، ويطلع جيل جديد يسوؤه هذا الامر وتصطدم أمانيه وأحلامه بوجود المستعمر ، وخسران شعبه وإخفاق ثوراته في دنيا العرب ، فأراد هذا الجيل

أن يعبر عن مشاعره ، ويثبت وجوده خلال الادب والانتاج الفكري عامة ، ولـكن في إطار جديد ومضمون جديد ، إذ لم يعد يرى المضمون القديم صالحاً ، ولم ير الشكل الذي ألفه قديراً على حمل أفكاره وبث نوازعه ، أراد أن يقارع التيارات الجديد التي غيرت المفاهيم العربية والقيم الروحية ، والمثل الاسلامية . فقد اهتزت مثله فارتج وجدانه وضميره فأنتج أدباً قلقاً روحياً . اراد أن يتخلص من كابوس القديم والمثل الادبية العتيقة ، لأنه لم يجدها قادرة على التعبير العميق عن مشاعره ، لأنها لا تستجيب اليـه ، وتؤمن رغباته العارمة ، لمواجهة واقعه الجديد ، وانفعالات نفسه القلقة ؛ فقـد اتسعت آفاق الادب العربي ، وتفتح على عوالم رحبة من الفكر العالمي والآداب الانسانية . . . بالترجمة او بالدراسة بعد أن كثر الذين يعرفون اللغات الاجنبية وغمرت دور النشر السوق بالترجمة . . . جاءتنا آداب الغرب وقـد لفها الضباب وشملها القلق والضياع ، فقد اهتزت المثل في اوربا فى الحرب العالمية الثانية ، كاهزت الحرب مثلنا فكانت كوارث اوربة تجد صدىً في نفوسنا ، ونحزننا لدول رأيناها تحارب عدونا . . . فأعجبنا الادب الاوربي وسرنا بتياراته الحديثة . .

جاءت هذه المثل الغربية فتقبلها قسم من الشباب واعتنقها لأنه وجـد في اعتناقها سلوى عن الحزن ، وتخلصاً من القلق الروحي في وطنه ، والضياع القاتل في الحياة الجديدة التي يحياها ، أراد أن يعيش دنيا لا تسير على التقاليد التي جرت عليه الدمار والكوارث . .

أليس في هذه الآراء تجديد لواقعه المر ؟ أليس هذه الآراء جاءت من شعب اقوى من شعبنا ، فلابد أن تكون قوية الاركان ، رائعة المضامين ، ولا بد إذن

من التجديد . ولم يكترث الجيل إن كان التجدد للاحسن او للاسوأ ، المهم التخلص من قيود مجتمعه، ومثل شعبه، بحثاً عن العزاء والسلوى والابتعاد عن الموروث المألوف .

وما كان في الحرب العظمى الاولى جاء في الثانية ، غير ان الثقافة الواسعة وانتشار الكتب خلقت جيلا اكثر عدداً من الجيل الماضي ، الذي اعتمد على اوربة شرقاً وغرباً في الأخذ بالمضمون . فكانت بداية عهد جديد للشعر الحر . . وهذا الجيل اكثره لم يتسلح بعمق الثقافة العربيـة مثل الجيل الماضي ليتقى من الزلل ، ويحافظ على الاصالة العربية ، والجرس الموسيقى العربي .

الجيل الجديد أراد ان يثور فنظر الى القافية فوجدها عبئاً ثقيلا ، لأن محفوظه من الشعر العربي محدود ، فلم يحفظ دواوين الشعراء كما حفظها الجيل السابق ، فرأى ضرورة التخلص من القوافي . . ثم جاء فوجـد أوزان الخليل ، ومنهم الكثير من لا يعرف حتى هـذه الاوزان وموسيقاها ، فهداه فكره الى التخلص من هذه الاوزان ومن الموسيقى . .

أراد ان يغير الاطار ويبدل المضمون ، ولم تكن له مادة قوية يضعها للبناء الجديد ، فقلد ما وجده في كتب بيروت المترجمة بأسلوبها الركيك وذوقها الممجوج واتجاهها التجاري .

ونحن لا ننكر على الشعراء التجديد وقد سبق ان جـدد الاندلسيون في الموشح حتى اسفوا في هذا التجديد ، وخرجوا عن عمود الشعر واختلفت التفعيلات وخرجت عن الاسلوب العربي أما المضمون ، فمن الضروري أن يبدل باد خال عناصر جديدة تحافظ على إشراقة الاسلوب او يستحدث شيئاً جديداً رائعاً خالداً ، فهل وفق اصحاب هذه الحركة في العمل والتطبيق ؟

وفي القرون التي سميت مظلمة حاول الشعراء ابتداع نوع جديد من الشعر سموه البند وخرجوا به عن المألوف ، لكن المحاولة بقيت في الاطار القديم ولم تتطور ولو تطورت لفاق شعرها الشعر الحر ، لأن البند فيه موسيقى ولا ترفضه الأذن العربية .

الثورة الجديدة أرادت ان تتخلص من الشكل والمضمون العربيين القديمين ، لأن الحياة في الوقع العربي الجديد اختلف عن قديمه ، فاتخذ الشاعر التفعيلة الواحدة بدل الشطر الواحد ، ولكن أكثر هؤلاء لم يعرفوا للتفعيلة وزناً لأنهم لا يملكون أذناً موسيقية . . وفي المضامين أراد الشاعر ادخال كلمات وفلسفات جديدة واصطلاحات اوربية جديدة فهبط لأنه لم يقدر أن يرسم فى انتاجه عاطفته الجامحة وتجربته الجديدة . . إذ ليس من السهولة واليسر إبراز العقل والعاطفة معاً إلا لمن كانت أدواته قوية متماسكة . . ولما أراد اخضاع العقل والعاطفة لفلسفة فهمها سطحياً ضاعت منه الموسيقى وفقد الوزن . والموسيقى ضرورة من ضرورات الفن ولها اعمق الصلة في الفكر وربطه في الوجدان الحساس المرهف ، ولن يكون الابداع والخلق إلا خلال وحدة متسقة بين الوجدان الحي والفكر الوقاد .

بدأ الحركة جماعة من الشعراء محاولين، بعد الحرب العظمى الاولى، ايجاد شيء جديد. ثم جاء بعد الحرب الثانية بدر شاكر السياب و نازك الملائكة واعاد المحاولة، وهما احسن من نظم فى هذا الشعر . حاول الشاعران التجديد في مضمون الشعر العربي ، وسارا في الشكل العام للقصيدة على طريق الادب المهجري والأدب الامريكي على الخصوص، فقد كان بدر شديد الاعجاب بالادب الانكليزي والامريكي و كان يعجب

بالشاعر الامريكي ت . س . اليوت وكان يقرأ باللغة الانكليزية ما ترجم من اللغات الاوربية ، ولو تتبع دارس الأدب هذا الأثر لوجده واضحاً ، ويمكن للنقاد أن يبحثوا عن الكتب التي قرأها ليجدوا أثرها واضحاً في شعره ، وقد كان في قسم اللغة العربية لكنه انتقل الى اللغة الانكليزية وأكمل دراسته فيه .

أما نازك فهي أصيلة فى ثقافتها العربية وفي فهمها للادب العربي ، وزادت ثقافتها بالثقافة الامريكية ، فجمعت بين الثقافتين او بين التيارين ، في اسلوبها جزالة ورصانة ، وفي شعرها وعي عربي ناضج ، أرادت أن تجدد فرسمت لنفسها طريقاً واضحاً ، وسارت فى درب واضح المعالم . أما بدر فلم يختط لنفسه هذه الخطة ، ولم يسر في طريق مرسوم ، وحافظت نازك في شعرها على أساليب العربية فهي قريبة من عمود الشعر وتعي ما تريد .

أما بدر فقد جدد معتمداً على اذنه الموسيقية التي كانت تخونه ، فخرج كثيراً عن المفهوم العربي للشعر ، وسار دون وعي في طريقه لذلك فالذين يقلدون بدر شاكر السياب أكثر من مقلدي نازك ، لأن مجال الحرية واسع الابواب في طريقته وأدبه .

فهل كانت دوافع هذا التجديد اخفاق الآمال العربية ؟ ورد فعل لبروز القومية العربية ؟ أم انها مرحلة من مراحل التطور الحتمي للشعر العربي ؟

كل هذا الدوافع عملت عملها في نشر فكرة الشعر الحر . وقد أساء الى حركة هذا الشعر ضعاف الثقافة والتفكير . . فأضاعوا معايير الشعر نفسه ولم نعد نرى غير سطور ضبابية الفكرة ترص ، مهلهلة النسج ضعيفة التراكيب . . فاستحال الشعر الى نثر وسموا النثر شعراً ، لأنهم لم يكونوا بقادرين على فهم

الموسيقى وتذوقها، ولم يطلعوا على النصوص العربية الاصيلة اطلاعاً كافياً، ولم يكن الكثير منهم يملك الموهبة الشعرية فكان شعرهم خلطاً غريباً عجيباً كثرت فيه الفواصل والنقط وعلامات التعجب وكأنما الشعر بكثرة هذه الفواصل؟ وكان حرياً بهم جعل القوافي فواصلهم في الكتابة لأن الاصلاح يجب أن يأتي من داخل الشيء ومن روحه وحاجته، لا من الخارج.

وأول ديوان صدر لبدر شاكر السياب في القاهرة سنة ١٩٤٧ « ازهار ذابلة » الذي وجدنا فيه قصيدة قال عنها (هذه القصيدة محاولة جديدة في الشعر المختلف الاوزان والقوافي وهي كأغلب الشعر الغربي ـ وخاصة الانكليزي ـ تجمع بين بحر من البحور ومجزوآته اي ان التفاعيل ذات النوع الواحد يختلف عددها من بيت الى آخر) ومن القصيدة:

هل يكون الحب اني
بت عبداً للتمني
أم هو الحب اطراح الأمنيات؟
والتقاء الثغر بالثغر ونسيان الحياة؟
واختفاء العين في العين انتشاء
كانثيال عاد يفنى هدير
او كظل في غدير (١)

وقدم الديوان رفائيل بطي وتحدث عن القصيدة وقال عن الشاعر انه (يحاول جديداً في قصيدته ـ هل كان حباً؟ ـ فيأتي بالوزن المختلف وينوع في القافية

(١) أزهار ذابلة ـ القاهرة ١٩٤٧ ص ٦٧ وقد أرخ القصيدة في ٢٩.١١.١٩٤٦ .

محاكياً الشعر الفرنجي ، فعسى أن يمعن في جرأته في هذا المسلك المجدد . . .)

فهل كانت صدفة أن يقـدم رفائيل بطي لبدر شاكر السياب ام أن السياب عرف بالحركة الشعرية التي قامت زمن رفائيل بطي وقرأ الشعر الذي نشره رفائيل ؟

وتصدر نازك الملائكة ديوانها وفيه مجموعة من القصائد الحرة مع مقدمة للديوان ذكرت هـذا التجديد وتحدثت عن القديم والجديد ورسمت الطريق لما تريد بوضوح فقالت عن الشعر العربي (لقـد سارت الحياة وتقلبت عليهـا الصور والالوان والاحاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صورة لقفا نبك ، وبانت سعاد ، الاوزان هي هي والقوافي هي هي وتكاد المعاني تكون هي هي ،) ورأت ان يكون التطور على يـد الشاعر والاديب لأنه سـنة في كل اللغـات العالمية فقالت : (الشاعر او الاديب إذن هـو الذي تتطور على يديه اللغة ، أما النحوي او اللغوي فلا شأن لهما بهـا . .) .

وقد وضعت شروطاً للاديب المرهف ولا أدري لماذا اسمته المرهف ، وهي شروط ضرورية لـكل اديب ، ومن لا يملك الحس المرهف فليس بأديب ، وهي ثقافة عميقـة في لغته ولغـة اجنبية واطلاع على أدبها ، ووضعت اسساً واضحة عندما أحست بحاجة الشعر الى اسلوب جديد لتطويره ، ولم تعتبر عملها خروجاً على طريقة الخليل إنما هو تعديل لها يطلق جناح الشاعر من الفـقيد ، دعاها اليه تطور المعاني والاساليب خلال العصور ، التي مضت على أوزان الخليل ، وتحررت من الشطرين واعتمدت على التفعيلة دون الاخلال بالوزن او الموسيقى ، والتزمت في ديوانها (١)

(١) شظايا رماد طبع مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٩ .

بطريقتها ونظمت عدة قصائد وأول قصائد الديوان :

لا تسلني عن سـر أدمعى الحرى
فبعض الاسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الحس لغزا
وإن يكن مجروحا

وفيها تصف معاناة النفس التي تضطرم فيها أسرارها وتغلي نوازعها بقولها :

ومئات الاسرار تكمن
فى دمعة حزن تلوح في مقلتين
ومئات الالغاز في سكتة
تهتز خلف انطباقة الشفتين

وأجمل وصف لـكبرياء الانثى والاعتزاز بكرامتها قولها :

وشفاه تموت ظمأى ولا تسأل
أين الرحيق ؟ أين الكاس
ونفوس تحس أعمق إحساس
وتبدو كأنها لا تحس

والذي لا أشك فيه أن الشاعرين لا بد أن اطلعا على حركة الشعر فى المهجر وفي مصر وسورية وأميل الى أنها عرفا بالحركة التي ظهرت في العراق ولا أشك في اطلاعها على شعر المازني ونقولا فياض وأمين الريحاني وجماعة ابولو كما انهما عرفا شعر محمد بسيم الذويب وطارق الحافظ نور الدين وتأثرا بحركات التجديد التي ظهرت قبلها. ولها فضل مواصلة النظم ولنازك فضل وضع الحدود والقواعد ..

وجاء جيل جديد لم يفهم حركة التجديد وشط حتى جاءت نازك مرة اخرى فوضعت كتابها العروضي (قضايا الشعر المعاصر) .

بعد بدر شاكر ونازك طبعت مجاميع منها ما طبعته انا في الاسكندرية (في ضمير الزمن) (١) و (ملائكة وشيطان) لعبد الوهاب البياتي و (المساء الأخير) لشاذل طاقة و (ظلام الغيوم) لصالح جواد الطعمة ، وظهر أثر السياب في شعر الطعمة وفي شعر شاذل ولكن الذي لا أشك فيه انهم تأثروا بالشعر المهجري تأثراً عميقاً .

وجميع هؤلاء من جيل واحد تأثروا بتيارات واحدة ودراساتهم تكاد تكون واحدة وليس من السهل أن يقول الدارس أيهم البادىء في هذا الشعر وليست الأهمية فيمن بدأ وانما العبرة فيمن سار على الطريق وقد سار بدر في طريقه حراً وسارت نازك واعية .

وشاذل يعطينا فكرة واضحة في مقدمة ديوانه (المساء الاخير) عندما نظم في الشعر ورآه شيئاً غريباً بعيداً عن عمود الشعر وأنه شعر على نسق منطلق لا يتقيد بقافية موحدة ولا يلتزم عدداً معيناً من تفعيلات البحور ولا يعرف ما هذا

---

(١) لما أصدرت مجموعة شعري (في ضمير الزمن) سنة ١٩٥٠ كان فيها شعر جديد نظمته اعتماداً على ذوقي وحسي وكنت اعرف أن هناك شيئاً جديداً فيه ولم أطلع على حركة هذا الشعر في العراق ولما ظهرت الضجة لم اتدخل فيها لأني كنت أواصل دراستي وليس هذا الشعر هو مما اكترث به وليس هو كل ما عندي من انتاج .

الشعر فهو ليس شعراً مرسلا ولا مطلقاً من جميع القيود وأحس أن هناك شيئاً يلتزم به وأعترف بوضوح أن هذا الضرب ليس مبتكراً وله جذور من الاندلس والمهجر.

القصيدة :

والملاحظ أن أهم ما جدد في الشعر وقامت من اجله المحاولات النصب على الاطار دون العناية الكبيرة بالمحتوى او المضمون الفني للقصيدة حتى أسف قسم من الشعر فجاء شعرهم أشبه بالنثر القديم .

وكنت أرجو ان يكون الاختلاف على المحتوى الفني للقصيدة وعناصرها المكونة لهـا وطريقة مزج عناصرها ، في ابراز الحقائق ، ورسم التجارب ، وصياغتها بطريقة فنية جديدة تختلف عما ألفـه الشعر العربي حتى يكون الشعر الحديث مختلفاً ومتميزاً عن النثر ، وينبغي أن تختلف لغة الشعر عن لغـة النثر او أن القاموس الشعري يجب ان ينفرد بأجزاء جديدة حتى يتسنى للقارىء الحديث أن يفرق بين الشعر وبين النثر ، أما اذا خلطوا هذا الخلط بين لغة الشعر ومضامينه ولغة النثر فلن يجد القارىء أية لذة فكرية او نشوة روحية من جراء انشاد الشعر . لا شك ان قاموس اللغات واحد غير أن هناك حدوداً لا بد منها ، اساسها الذوق والاحساس المرهف وطلاوة الالفاظ وموسيقى الكلمات وإلا انقسم الكلام الى قسمين علم وشعر كما قسمه وردزورث ، الذي أدخل النثر مع الشعر فكانت اضعف نقطـة في نظريتـه وحسب ان الشاعر يمكنه ان يضيف الوزن من الخارج (١) ويعجب المرء كيف يكون

(١) خير من ترجم نظرية الشعر عند الشاعرين ودزورث وكولرج أستاذنا في كتابه القيم من الوجهة النفسية المطبوع سنة ١٩٤٧ .

النثر شعراً بمجرد إضافة الوزن والقافية وكثير من النثر فيه وزن وقافية ولا يشعر بروعة الشعر ، مثل ألفية ابن مالك ومعظم المتون المنظومة .

وقد أوجب الشاعر الانكليزي كولرج الموسيقى والقافية او الوزن والقافية في الشعر ولم يعترف بالمضمون وحده. عندما ناقش فكرة الشعر مع زميله وردزورث .

وقد سار بعض الشعراء الذين نظموا في الشعر الحر على التخلص من القافية والوزن كما أراد وردزورث ، والقليل منهم من جعل للقصيدة موسيقى تلائم الاذن العربية .

والشعر كل الشعر يجب أن يسهم في بناء المجتمع وان يكون مضمونه نابعاً من الانسانية ويلائم تطور المجتمع لأن الشعر هو النبضات النفسية القائمة على اسس من العقل والعاطفة ويجب ان تتطور عناصره ومقوماته كما تتطور الحضارة.. وبالرغم من اختلافي مع شاعر في مضامين الشعر فاجد فيه عناصر الشعر ومقوماته الفنية التي ترضي ذوقي الفني . . .

وبعد ١٩٥٠ إزداد الناظمون في هذا الضرب واصبحت فوضى أموره واشتط بعضهم فيه دون أن يفكروا في الطريق الذي يسيرون فيه فكان الشاعر يكتب السطور ويتوهم انه الشعر ، حتى جاءت الزميلة نازك الملائكة فوضعت كتابها (قضايا الشعر المعاصر) ووضحت الطريق لهؤلاء ، وكان موقفها أشبه بموقف الشاعر الانكليزي كولرج محافظة على اصالة الشعر وتجديده وأرجو أن تكون قدوة في شعرها وما رسمته لهذا الجيل من خطوط هذا السبيل .

وقد وجدت من هؤلاء الناظمين في هذا اللون من الشعر : الدكتور داود سلوم والدكتور عبد الجبار المطلبي وهلال ناجي ولميعة عباس عمارة وحسين مردان وشفيق الكمالي وبلند الحيدري وصفاء الحيدري وكاظم جواد

وانور خليل وسعدي يوسف وصالح جواد الطعمة وجميل شلش ورزوق فرج رزوق وحسن البياتي وعبدالجبار داود البصري وراضي مهدي السعيد وكاظم السماوي ومحمد النقدي وغازي الكيلاني وزكي الصراف وزهير غازي وحارث المطلبي وزاهد محمد وريال محمود وماجد الوتار ومثنى حمدان العزاوي وعبدالامير الموسوي ومالك المطلبي وصلاح سعيد الحديثي وعناية الحسيناوي وجاسم الدوري وعبدالجبار خضر وعمران القيسي وهادي العادلي وعبدالمجيد فليح وخالد جواد موسى وعائد عزيز وحسان يوسف المطلبي وعبدالوهاب العيسى وقحطان المدفعي ومحمد جواد الحلي وحسن القطان ومحمدعلي الخفاجي وسلمان الجبوري ورضاالدين الحيدري وعبد الستار الدليمي وسلمان هادي الطعمة وعبدالرزق حسين ونجم الجبوري وعلي الحسيني وسامي مهدي وهاشم الطعان وخالد يوسف ومحمود الريفي وهادي الربيعي (١) وغيرهم .

أترك دراسة آثارهم الكثيرة للدارسين . فالكثرة المتوفرة في الادب العربي في العراق في الشعر الحر بحاجة الى دراسة موسعة تعطينا فكرة اكثر شمولا ووضوحاً من هذا البحث .

---

(١) اشكر السيد عباس جبر أمين مكتبة وزارة الثقافة والارشاد على اعداد جزء من هذه القائمة .

فدوى طوقان

الادب النسوي :

لابد أن يتبادر للذهن ونحن نتحدث عن شعر شاعرة سؤال طالما تردد بين الناس .. هو : هل يختلف أدب المرأة عن أدب الرجل ؟ وما خصائص هذا الادب؟ وما ميزاته ؟ وما الميزات التي يمتاز بها أدب المرأة عن أدب الرجل ؟ وهل فى طاقة القارىء أن يفرق بين قصيدتين فى مضمون واحد ايها قصيدة المرأة وايها قصيدة الرجل ؟ وهل لقصيدة الرجل ميزات تشابه مظهر الرجل في شكله وصوته و كثافة شعره وان قصيدة المرأة لها ميزات تحاكي مظهر المرأة ؟

الواقع هناك تفاوت بين أديب وأديب كالتفاوت بين رجل وآخر وهناك اختلاف في انتاج اديبين في امور كثيرة كالاسلوب وتناول الموضوع ، ومناقشة الفكرة يضاف الى هذا كله ان الرجل نصفه امرأة والمرأه نصفها رجل ، وتتفاوت هذه الانوثة والرجولة بين انسان وآخر حتى قيل امرأة مسترجلة ورجل مستونق.

واذا جاز لنا الحكم على المظهر المادي فهل يجوز تطبيق هـذا الامر على الفن بوجه عام والادب بوجه خاص ؟ فاذا كانت لكل أديب ميزات تختلف باختلاف الاديب وثقافته ومحيطه فكيف نفرق بين ادب المرأة وأدب الرجل ؟

مما لا جدال فيه أن هناك فروقاً بينـة بين المرأة والرجل في معالجة الامور والنظر اليها ، فالمرأة لها نظرتها المختلفة عن نظرة الرجل فهي بطبعها الفطري وبحكم واجبها الذي خلقت له تفرض على الحياة نوعاً خاصاً من الأدب لا يمكن للرجل أن يلجه كما انها لا يمكن ان تلج موضوعات الرجل واموره رغم مشاركتها الرجل فى العصر الحديث في مضامير الحياة وميادينها .

ان المساواة بين الرجل والمرأة فى كل شيء هدر لكرامة المرأة فهل يريدونها

أن تكون رجلا وهل بالامكان جعل العالم كله نساء ؟

والعمل الشعري يشارك فيه الرجل والمرأة وأهم من الجنس الفطرة لأنها أهم عنصر مقوم للقابلية الشعرية والتجربة الادبية أو سمها السليقة أو الطبيعة توهب للرجل كما توهب للمرأة وقد تجود وقد تسف كما يجود الرجل ويسف ، غير أن ما خلقت له يحول دون ان تصل الى مستوى الرجل المتفرغ بالطبيعة. وخير دليل على تفوق الرجل اوربا التي منحت المرأة اوسع الحريات ولكنها لم تفز بقدم على الرجل وقد أحصي عدد المتفوقين في الفنون والآداب فوجد الرجل زاد عدداً وبز تفوقاً ثم إن اشهر عمال الأزياء رجال وخير الطباخين منهم.

وتتجلى هذه الظاهرة في الأدب العربي وفي العصر العباسي على الخصوص فقد أخذت المرأة فيه مطلق الحرية وهي ربة دار وجارية ومغنية واستاذه ومحدثة ولكن لم تصل الى ما وصل اليه الرجل ويمكننا أن نحصي عدد من اتصفت بالنبوغ من النساء ، ولكن هيهات أن نحصي عدد من عرف بالنبوغ من الرجال.

وانوثة المرأة عند الرجل خير من شاعريتها لأنها لا تفرط بها على حساب أي شيء في الوجود.

وشعر الشواعر من امثال الخنساء وليلى الاخيلية وسكينة بنت الحسين وورده اليازجية وباحثة البادية شعر تجد على محياه سحر الانوثة الجميل الرائع سواء في الغزل أو في الرثاء. وعلام تبحث المرأة عن ما خلقت له إلا إذا لم تكمل هذه الانوثة.

وقد يقال ان المرأة وأدت عاطفتها في الحب والغزل ومناجاة المحب فاذا كان هذا ما لا يرضاه المجتمع فلم لم تبدع في الرثاء والمجالات الاخرى ان خشيت من المجتمع ؟

وهذه المرأة في عصرنا الحاضر وفي لبنان بوجه خاص انطلقت وتحررت

لكنها لم ترتفع الى مستوى الأدب وقد قلدن ساغان في وصفها ولياليها وحسبن انهن تحررن من قيود الرجل فاذا بهن يتسولن كلمة الاعجاب فكان أدبهن أدبا انتهازيا أسف ودل على مقدار الرغبة الملحة الى رضاء الرجل والتوسل الى عطفه ..

لذلك كنت في حيرة لما أردت ان اكتب عن شاعرتنا وترددت لاني لا اريد ان اكتب عن شاعرة ما تزال على قيد الحياة وانتاجها ما زال ثراً متدفقاً وقد اكتب عن المعاصر أشياء فلا يرضى أن يسمعها الناس لانها لا ترضي غروره الاجتماعي أو مركزه الادبي .

والمرأة في بلدنا ليس من السهولة دراسة ادبها لرقة مشاعرها وحراجة موقفها وقسوة المجتمع الذي وضع كل القيود أمامها وترك للرجل الحرية غير أنني رأيت ان اقدر المرأة الفلسطينية في شخصها وأدب النكسة في انتاجها فوجدتني اتقبع دواوينها وألبي دعوة الجمعية .

مطالعة فدوى :

تتميز فدوى بشعر انثى قلما اتيح لغيرها في شعرها صدق المرأة ، ورقة عواطفها ، وعمق الحب مع ترفع واعتداد وكبرياء فهي تفيض بالحنان وما سفت كما سفت كاتبات لبنان . رسمت الشاعرة المرأة العربية وما مارت في العواطف ولا ابتذلت في الاحاسيس أرادت أن ترضي الرجل وتفخر به ، ولم تدع غير واقعها لأن المرأة هي التي تعبد الرجل وتسعى في رضاه وترضي كبرياءه وتغمره بالحب والحنان والعطف فقد قالت الشاعرة :

في الليالي الممطرات الدفء يشدنا حوله

معبداً أفعمه خصب الهوى شعراً وفنا

وعلى أجنحة النشوة طوّفنا به

وتعبدنا لدى محرابه

وتلونا ، كم تلونا

سور الحب لديه ، كم عزفنا

اغنيات البهجة الكبرى له (١)

والرجل يجب أن يكون قوياً ومتسلطاً ليشعر المرأة برجولته واقرب النسوة الى قلبه تلك التي تشعره بضعفها وبحاجتها الى حمايتـــه والرجل يقوى ويسيطر متى أخذ المسؤولية وشعر بحاجة المرأة اليه وفدوى امرأة عرفت كيف تشعر حبيبها بذلك فقالت بصراحة ووضوح في قصيدة منها :

ها أنت في عينيك عاصفة	تجتاحني ، وهبوب إعصار
ها أنت بحر راح يأخذني	فى موجتيه أخـــذ جبار
ها أنت ، ها أنا قصة بدأت	مكتوبة في سفر أقداري
لا لا تسلني ، لن ابوح به	سيظل حبك سر أسراري (٢)

وتظهر فدوى صادقة عندما تناقش الرجل في معنى الوفاء لأن الرجل يتهم المرأة دائماً بالغدر ويضفي على نفسه كل نعوت الوفاء ولست انحاز الى جنسي عندما أقول وفاء المرأة مكمل لانوثتها وغدره جزء من رجولته لأن وفاء المرأة ضروري لبقاء الجنس البشري وقد فهمت قسم من الشرائع الامر فاباحت للرجل

(١) أعطنا حباً ص ٢٣

(٢) أعطنا حباً ص ٤٨ و ٤٩ .

ما لم تبح للمرأة ، والمجتمع العربي ما زال على تقاليده لا يسامح المرأة لأن غلطتها تدخل شيئاً جديداً في النسب لذلك نجد شاعرتنا حائرة بين امرين فقالت :

وتسأل : أين الوفاء ؟
أما من وفاء ؟
وأضحك في وجهك المتجهم
أسأل منك : اين الوفاء ؟
وماذا عن الاوفياء
وأين هواك القديم ، وأين النساء
مثات النساء اللواتي حببت
وكل امرأة ، تظنك ملك يديها
وتحسب حبك وقفاً عليها (١)

وتناقش الرجل الذي تقلب فقالت :

نريد من الآخرين الوفاء
نصفدهم نحن ، نربطهم بالرجاء
بحبل سراب كذوب
ببرق خلوب
ونمضي لنشرب كأساً جديد
ونمضي لنطعم لوناً جديد
لنحيا غراماً جديدا

---

(١) أعطنا حباً ص ٥٤ .

لنعبد وجهاً جديد

ونرجع نسأل: أين الوفاء؟

وترى طلب الوفاء في الآخرين إنانية فيجب الا يسألها الآخرون:

نريد من الآخرين البقاء على عاطفة

ذوت وتلاشت باعماقنا واستحالت الى صورة زائفة

أنانية يا رفيقي تعشش فينا

تسيّر رغباتنا في الخفاء

ونحجبها بنقاب كثيف نسميه نحن وفاء (١)

الرجل الشرقي:

وترسم لنا فدوى صورة من اجمل الصور للرجل الشرقي الذي يرصد الزلات ويحاسب على الهفوات فهو ما زال يسأل عن ماضي المرأة، يريدها بلا تجربة، بلا تاريخ، ولا يغفر لها زلة مضت وغلطة عبرت، يحاسبها على الطفولة وطيش الماضي بل يسألها عن نأمة في ذهنها ورغبة مرت في فكرها.. لأن المجتمع ما زال مجتمعاً بدوياً وما زالت جذور الحضارة القديمة تأخذه.

ورجل فدوى الذي عرفته تمثلت فيه هواها الحي المجسد ولكنه اخذ يحاسبها على نظم قصيدة في رجل ويؤكد لها ان هـذه القصيدة أجمل شعرها، ولكنها تثور لا تريد أن يعود الماضي وتظهر تفاهة القصيدة وبلادة ما فيها وتحاول فى شعرها أن تبرز اعمال الانثى التي تبرم بالماضي وتريد الحاضر فتقول:

وامض أتفه أبياتها   واكشف زيف انفعالاتها

---

(١) أعطنا حباً ص ٥٦ و ٥٧

وألوانهـا الباهتات البليدة ولـكن سدى تظل تعيد

وتقرأ لي أنت تلك القصيدة (١)

وتثور الشاعرة وتنزع الديوان لتمزق القصيدة منه وتقطعها إربا إربا وتتركها للرياح فيمكر الرجل ويضحك مداعباً ويطوي صفحة الحديث عنها فتقول معتذرة

وترنو إلي وأرنو اليك وفي ندمي، ندمي وانخذالي

اروح اغمغم بين يديك: ألا ليتني يا هواي الحبيب

عرفتك من قبل تلك القصيدة (٢)

الرجل الشرقي يجب أن يكون كل شيء فى حياة المرأة، يحبها زوجة، وحبيبة ومهما تقدم في العمر فهو بحاجة اليها الى حنانها ورعايتها فهو طفل كبير والسيدة الفضلى تلك التي ترعاه وتشعره بالحنان والدفء والرضا.. وفي وصية أمامة بنت الحارث الى ابنتها ام أياس خير مثال لفهم طبيعة الرجل فمنها: كوني له أمة يكن لك عبداً، ثم اوصتها بعشر خصال: حسن السمع والطاعة ورعايـة تامة لمكانه وشمه وعينه وانفه وا كرامه ومنها: « واعلمي انك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت و كرهت ».

وقد عرفت شاعرتنا طبيعة الرجل الشرقي واكدت شخصية الرجل فهي عندما تكتب اليه تشعره بانها لا تنساه وتذكره في كل مكان ودرب وانه لايختفي عنها اينما حلت وأين ارتحلت:

غبت؟ ولو غبت، فما زال فى دمي عبـير منك يرويـني

---

(١) أعطنا حباً ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

يخصبني ، يمــلأ كوني غنى يمنحني أجمـل ما في الدنى
الشعر والحـلم ، ودفء المنى
غبتَ فايامي رؤى وانتظار حـلوٌ على الرجاء يطويني
وحين يؤوي الليلُ اهلَ الهوى أحضن اشـواقي واغفو على
ذكرى توافيني
ذكرى هنيهات ملاءٍ قصار أحملهـــا في سر تكويني
تعود لي ، تعود لي في غـد وترجـع الدرب تناديني
فاصحب الشمس الى موعدي اصحبهـــا وفي دمي يقظـة
يبعثها الحبُ فتعطيني
الوهج الضاحك فوق التـلال الخضرة الريا بحضن الجبال
روائح الارض ، ارتعاشاتها نكهتها ، ألوانها كل ما
في الدرب من جمال
ملوّن الظـلال
يعود لي ، يعود لي في غـد اذ ترجع الدربُ تناديني (١)

طمأ الروح :

والملاحظ على شعر الشاعرة ظهور ظمأ روحي عميق ، وحرمان نفسي عارم ، يعصر جوانحها لانها لم تجـد الشخص الذي يملأ حياتها الروحية. فكان من جراء هذا الظمأ رغبة في المجهول .

---

(١) أعطنا حباً ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣ .

ومن يدرس شعرها يجد أهم مظاهر هـذا الظمأ القلق والضياع في شعرها. ولعل جو التقاليد القديمة قد أفقدها الهدوء والرضا بواقع الحياة العربية فظهر في شعرها صراع بين عاطفتين، عاطفة الابقاء على القديم واحترام الموروث وهي من اسرة كريمة لها تاريخ زاه زاهر والعاطفة الذاتية المتفتحة الجامحة ومتطلبات الحياة الحضارية الراهنة، فهي رأت أنها تعيش اسيرة قيود هذا المجتمع ولكن نفسها المتفتحة الثائرة برمت بهذه القيود فهي تريد أن تعيش شاعرة منطلقة من كل اسر تريد ان تجد ذاتها انسانة لتعبر عن مشاعرها بصدق وعن احاسيسها بوضوح ولكنها لم تكن قادرة على تحقيق هـذه الرغبة فسرت في شعرها روح الحزن الجميل والكآبة الواعية وأصبح شعرها صورة لهـــذا الصراع النفسي والضياع الانساني واتخذت الشعر وسيلة لتنفس عن المكبوت من الاحاسيس والمغلف من العواطف والمحبوس من الآمال والاحلام فقالت:

ذنبي؟ وما ذنبي؟ ألا ويلاه من ظلم القيود
ما حيلتي والغل في عنقي على حبل الوريـــد
أواه، حتى أنت لم تنصف هوى قلبي الشهيد؟
أواه، حتى أنت تظلمني مع القدر العنيد؟ (١)

قلبي يئن، يلوب في ألم، يسائل في شرود:
لم لا يعود؟ فلا يجيب سوى الصدى: «لم لا يعود»
وأروح، في شفتيَّ أشعارٌ وفي كفي عود
وأعاتب الأيام، والزمن المفرق، والوجود

---

(١) وحدي مع الأيام ص ٧٢.

وفي قصيدة لها بعنوان (من وراء الجدران) نجد ثورة مأسور أرهقه الاسر وقد أحس بثقل القيود ، فتاقت نفسه للحرية والاطلاق، وأدرك خطر الاستسلام على انسانيته فاراد أن يحطم هذه الجدران ويخرج للحرية والانطلاق فقالت :

بنته يد الظلم سجناً رهيبا　　لوأد البريئات أمثاليه
وكرت دهور عليه وما زال　　يمثل كاللعنة الباقيه
وقفت بجدرانه العابسات　　وقد عفرت بترات القرون
وصحت بها : يا بنات الظلام　　ويا بدعة الظلم والظالمين
لعنت ، احجبي نور حريتي　　وسدي علي رحاب الفضاء
ولكن قلبي هذا المغرد لن　　تطفيء فيه روح الغناء
فقلبي يد الله صاغته لحنا　　تدفق من عمق نبع الحياه
ورغم شموخك يا مجرمات　　يرن على كل أفق صداه (١)

الشعور بالوحدة :

وفي شعر الشاعرة الكثير من المعاناة من الشعور بالوحدة وكان اثره في حياتها عميقاً ملأ شعرها بالاسى العميق والثورة العنيفة الحزينة ولهذا فشعرها صادق العاطفة عميق الألم صادق التجربة وكأنها تتحدث بلسان العربيات اللواتي يضقن بهذه القيود الثقيلة فهي تقول :

حياتي دموع　　وقلب ولوع
وشوق وديوان شعر وعود
حياتي حياتي أسى كلها　　اذا ما تلاشى غدا ظلها

(١) وحدي مع الأيام ص ١٠٥ .

سيبقى على الارض منه صدى   يردد صوتي هنا منشدا (١)
حياتي دموع   وقلب ولوع   وشوق وديوان شعر وعود

وفي هذه القصيدة قرنت مآسيها بحسرتها فهي تبكي والدها وتبكي أخاها وتبكي نفسها والمصائب التي صبت عليها حركت اوتار الألم فصاغته الحاناً عذابا وظلم التقاليد الذي بدأت تتبرم به أصبح مأساة عميقة مثل موت الاعزاء من الاسرة والانسان إذا لم يقدر أن يتحدث عن شيء صراحة نراه ينفس عن همومه بمسارب أخرى وقد وجدت الشاعرة في فقد والدها واخيها خير سبيل فصب همومها كلها في هذا الفقد وانهمر الحزن ثراً وبدت العواطف سخية الدمع والحسرات .

وفي ليل سهدي   يحرك وجدي
أخ كان نبع حنان وحب   وكان الضياء لعيني وقلبي
وهبت رياح الردى العاتيه   وأطفأت الشعلة الغاليه
وأصبحت وحدي   ولا نور يهدي
ألجلج حيرى بهذا الوجود
وهذا شبابي   أمانٍ كوابي
شباب سقاه الأسى ورواه   اذا ما دعته اليها الحياه
واشواقها شده الف غلٌ   وطوقه الف طوق مذلٌ
شباب عذاب   رهين اغتراب
يضيع شذاه باسر القيود (٢)

(١) وحدي مع الأيام ص ٣٩ .
(٢) وحدي مع الأيام ص ٤٢ و ٤٣

وفي الليل عندما تهـدأ حركة الحياة ، ويسدل الظـلام على الناس الامال والاحلام ، ويلقي المهموم برأسه على وسادته ، وتتسارع أمانيه وتتسارع رغباته يحلق في دنياه سعيداً طوراً ، ومغموماً اخرى ، وفى هدأة الليل الساجي تنطلق النفس من اسارها وتذهب فى عالم مجنح ضبابي الى اللاشعور هناك تنجلي هموم الحزين المأسـور فيعب صفحات احزانـه ويقلب صفحات عمره فيجـــد العمر يمر سريعاً بلا أمل ويرى الشباب الغض تفترسه مخالب الدهر فتعود روحه من رعبها الى الطفولة ويذكر الصبا الريان :

ومضيت شاردة أقلب فى الظلام كتاب عمري
صور ، وأطياف كـئيبات ، تلون كل سطر
فهنا خيـال شاحب لم ترحم الدنيـا ذبوله
هـــذا خيال طفولة لم تدر ما مرح الطفولة
وهنا صبا عضت عليه قيود سجن واضطهاد
باكٍ ، ذوت أيامه خلف انطواء وانفـراد
وهنا شباب ما يزال يجوس قفراً بعـد قفر
متحرق أبداً الى شيء .. الى ما لست ادري (١)

هل تقاوم الشاعرة المجتمع وتقف ضد الطبيعة ، هل تقف امام الشوق الملتهب أتقدر أن تخفي هذا الهوى العاصف ، وتحطم جدران التقاليد ، حاولت الشاعرة أن تفعل ذلك . لذلك نجد فى دواوين شعرها (وجدتها) و (امام الباب المغلق) و (اعطنا حباً) نجد ان شعرها اختلف اختلافاً واضحاً عن (وحدي مع الايام)

---

(١) وحدي مع الأيام ص ٥١ و ٥٢ .

فغدت اكثر صراحة وجرأة فقالت :

كلما صوتك ناداني الى
موعد يحضنه صدر الامان
عانقت روحي رؤى امسية
كم تساقى الحب فيها والحنان
عاشقان
نسيا الدنيا عليها والزمان
ليلة فيها حصرنا العمر ، ليله
أخذت ألوانها من الف ليله
من أساطير جواريها الحسان (١)

وبكل طلاقة وبكل حرية تقول :

نادني من آخر الدنيا ألبي — كل درب الك يفضي فهو دربي
يا حبيبي أنت تحيا لتنادي — يا حبيبي أنا أحيا لألبي
صوت حبي أنت حبي — أنت دنيا ملء قلبي
كلما ناديتني جئت اليك — بكنوزي كلها ملك يديك
بينابيعي بأثماري بخصبي — يا حبيبي (٢)

ولا بأس من تذكر ذكرياتها العذاب كأي شاعر من الشعراء المعاصرين ومن هذا (يوم الثلوج) عندما عاشت بكل حرية لأنها عاشت منتهى الحب ومن شعرها :

---

(١) و (٢) وجدتها ص ٧٢ و ٧٣ .

اسمك ؟ يا تنهيدة الورد
تعيف في نداوة الحرف
اسمك ؟ يا طلة فجر على تعثري في عتمة الدرب
يا نغماً اصحو واغفو على رنينه المحبب العذب (١)

وقولها :

لا ظل لا نسمة
ترف في صحرائنا المجدبة
بلى ، بلى ، لا شيء لكنما
يا تعسنا ، يا فقر أعمارنا
اذا انطوى العيش ولم تحترق
أرواحنا في لهب التجربة (٢)

وقولها في قصيدة غيران :

غيران يا زنبق
غيران يا كنز أمانينا
إذاً لمن صغنا أغانينا
لمن منحنا خير ما فينا
يا غيّنا الحبيب يا زنبق
انت شربت الغمر من حبنا وانت أمرعت على خصبنا
ونحن هل نجحد يا بلسماً مر على جرحنا

(١) أعطنا حباً ص ٨٥ .
(٢) أعطنا حباً ص ٩٨ .

ويا ندى رطب أيامنـــا　　　وشعرنا الغالي وأحلامنا (١)

وتختم القصيدة :

ظلمت من قال حبينا سواك　　　من قال بعداك وعفنا شذاك

وأنت دنيانا التي نعشـق　　　يا حبنا الأخـــير يا زنبق

وفي ديوانها الأخير (امام الباب المغلق) نجد بوضوح أثر الصبابة الصادقة والهوى المشبوب فلم تبق هواها في طي الكتمان فقد برمت بالحجاب والقيد وقد برزت للمجتمع بكل وضوح واعلنت عن شخصيتها الانسانية ولم تبق في نفسها ذلك الحجاب القديم الذي يقف امام عواطفها .

فكانت ثائرة في ثورة عارمة لتقتل صورة الحريم السجين بين الجدران وانا قد لا اوافق الشاعرة على هذه الحرية لأن عزة الانثى بالتدلل والتمنع والتحمل والحياء ، ولعل هذا الانطلاق رد فعل عن ضعفها وما تشعر بـه من قيود وهي تمر بهذه المرحلة الحضارية في العـــالم العربي .. انه رمز الكبت ورد فعل للحرمان الروحي ..

القومية في شعرها :

عاشت فدوى طوقان بين حربين عالميتين وفتحت عينها فوجدت الاحتلال الانكليزي جاثماً على صدر بلادها ، ورأت الأمة العربية دويلات يعبث فيها الحكام ، ويهيمن على شؤونها الاستعمار الاجنبي بمختلف اسمائه وانواعه وقد وضع السدود والحدود بين الارض الواحـدة والقطر الواحد . ففلسطين التي كانت جزءاً لا ينقسم من الشام أصبحت تحت الاستعمار الانكليزي ودمشق وبيروت

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ .

تحت الاستعمار الفرنسي وفي الاردن دويلة .. أراد الاستعمار خلق فجوات في الفكر والاقتصاد والحياة الاجتماعية أراد ايجاد فوارق بين أجزاء القطر الواحد ليسهل عليه الحكم والسيطرة . .

ولما وعت الشاعرة الحياة وجدت وعد بلفور يعطي بلدها لغير شعبها وكان العرب يموجون غيظاً وكانت فلسطين في ثورات ومظاهرات واضطرابات واضرابات ، يعقدون المؤتمرات ويكثرون من الاجتماعات .. ورأت العرب يقاتلون من أجل كيانهم ويفدون انفسهم رخيصة لهذا الوطن الغالي .. ورأت اشتداد الثورة سنة ١٩٣٦ وما تلاها .. فاهتزت مشاعرها . وتفتحت على النضال ورد الفعل العميق في النفوس والمقاومة الصامدة .. وقرأت سفر اولئك الذين تغنوا في مصائب الوطن وسجلوا همومه وبلواه وسجل تاريخ الادب اسماء هؤلاء الشعراء من امثال عبدالكريم الكرمي وفؤاد الخطيب وخير الدين الزركلي ومطلق عبدالخالق وأخيها ابراهيم طوقان .. كانوا شعلة تتأجج وثورة عارمة تغلي .. عاشت الشاعرة فترة ثورة دائمة وسخط عارم مستمر ..

ونشأ جيلها قلقاً وشملته الحيرة وعمته الاضطرابات النفسية والروحية كما أحست بالنكسة الأولى والثانية فكانت أحداث بلادها تعمل عملها في روحها وفي حسها انه جيل القلق والضياع جيل الحسرة والأحزان فقد وجدنا انفسنا أساري هوان ، وعبيد استعمار ، وفي خضم من الفرقة والتشقق السياسي والفكري والاقتصادي وقد تمكن الاجنبي من وضع السدود التي ارادها وثبت الحدود التي رسمها ..

وحلت في هذا الجيل ثقافات متباينة وحضارات مختلفة ونظم اجتماعية واقتصادية

متناقضة فوجدت به أثرها وتسرب الى فكره ووجهت الشعب العربي توجيهات متضاربة متباينة وانقسم الفكر على نفسه وتشتت الرأي الموحد.

هذا هو جيلنا الذي نعيش فيه وعاشته الشاعرة .. وقد كان لها أخ يرعاها ويسدد خطاها وتلوذ به حين يداخلها القلق والشجن ، كان شاعراً قائداً وكان رائداً من رواد الشعر العربي وكان شعره مشرق الديباجة ، جميل الموسيقى ، رقيق المعنى متين المبنى ، فاتخذته رمزاً لها تهتدي بهديه وترسم خطاه ، وسرعان ما اختطف الموت هذا النور الذي كان ينير حياتها قبل أوانه ، وكانت صغيرة لا تعرف الحب والحنان إلا في شعر الشعراء العذريين فسقاها اخوها حبهـا الاخوي وسعدت به فقالت :

وحين فُتحت براعمي وامرع الصبا
وضمخ الجواء بالعبير
عرفتها في شعر « عروة » الحزين
وعشتها في شعر قيس في رؤى « جميل »
كم هزني تدفق الشعور في قلوبهم
كم عشت حبهم ، حنينهم ، عذابهم
كم قال لي قلبي الحزين :
« ما اسعد الاحباب رغم ما يكابدون
كم يغتني الانسان حين يلتقي
هناك من يحبه ، كم يغتني »
ولم يكن هناك من يحبني

وعاد من غربته اخي الكبير عاد
ابراهيم ، كان قلبه الرحيم خيراً كبير
وفيض حبه غزير
ولفني اخي رضمني الى جناحه
هنا استقيت الحب وارتويت
هنا استردت ذاتي التي تحطمت
بأيدي الآخرين
بناءها ، هنا اكتشفت من أنا
عرفت معنى ان اكون

* * *

ومات من أحبني
مات اخي الذي أحبني ولم يكن
هناك من أحبني سواه (١)

* * *

فكانت الصدمة قوية وكانت مأساتها في وطنها وفقدها الاخ الحبيب مأساة مزدوجة وموحدة فقد كان اخوها لسانها وعواطفها وشعرها الذي تحمل في سبيل شعبه وفهم مشكلته ، وأحس بالمأساة وبالمصير المؤلم فقالت تناجيه :

أخي يا أحب نداء يرف | على شفتي مثقلاً بالحنان
أخي لك نجواي مهما ارتطمت | بقيد المكان وقيد الزمان
أحقاً يحول الردى بيننا | ويفصلني عنك سجن كياني

(١) امام الباب المغلق ص ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ .

فمالي اذا ماذكرتك اشعر انك حولي بكل مكان (١)

وتحلق الشاعرة في الخيال البعيد وفي الافق الرحب ويتتاب قلبها الألم العميق لأنها أرادت أن تستكشف حجب الغيب لتعلم ما سيئول اليه مصير شعبها المشرد ووطنها المغتصب وهي ترى آمالها الحبيبة تتعاورها معاول الأيام فيتسرب الى روحها اليأس الحزين عندما ترى جنادل الذل على ظهور العرب ، وتراهم يعيشون كالقطعان الضالة ، وقد فقدوا الامل بالنصر وتسنم شرفات المجد وتحددت مطالبهم بالطعام بعد المسبغة المذلة ، وبالمأوى بعد التشرد القاتل وقد فترت هممهم وبردت ثورة نفوسهم وهوت مطامعهم ومطامحهم فقالت تخاطب أخاها :

وارسلت عينيّ حيث رنوت وقد دب ثقل خفي بقلبي
خلال دخان علا واستدار رأيت الحمى خربة ماحله
على العتبات تدب هوام وتعبر قافلةٌ قافله
وبين الزوايا عناكب تحبو وتمعن في زحفها واغله
وأبصرت اشلاء قومي هنا وهناك على طرق السابله
عيون مفقأة بعثرت على الأرض حباتها السائله
وأيدٍ مقطعة ووجوه غزا الترب ألوانها الحائله
وكان هناك وراء الدخان قطيع تشتت في كل بيد
قطيع وديع بقية قومي فهذا شريد وهذا طريد
تظللهم في العراء الخيام وقد اخلدوا في هدوء بليد
براكين خامدة لا تفور استحال اللظى في حشاها جليد

(١) وجدتها ص ٢٥ و ٢٦ .

قصارى مطامحهم لقمةٌ مغمسة بهوان العبيد
تجود بها كف جلادهم لتخديرهم كل صبح جديد(١)

وترى قضية امتها كيف استحالت بيد الساسة العرب الى كلمات جوفاء وسبيلا الى الزعامة والمطامع الفردية وبذلك كان مصيرها رهيباً وزادت قوى الاستعمار في اذلال اهلها وسكانها .. فاستنجدت باخيها القائد الفكري والشاعر الذي ما هان وما سكت ، وكأنها لا ترى في العرب من يستحق أن يستنجد بـه من قادة ومفكرين وقد يئست فقالت :

« أخي أرأيت القضية كيف انتهت، أرأيت المصير الرهيب؟
أتذكر إذ أنت ترسل شعرك يطوي الحمى عاصفاً من لهيب
تحذرهم من هوان المآل كأنك تقرأ لوح الغيوب »
ولكن طيفك كان يغيب وراء المدى صامتاً لا يجيب
وجرحك يقطر ازكى دماء همت في حواشي غمام خضيب
وراحت تعانق جرح الحمى حمانا المسمّر فوق الصليب (٢)

والملاحظ ان الشاعرة ابتعدت عن طريق النصح والارشاد ولم تقف موقف الواعظ أو تقف موقف الخطيب الذي يعتمد على الكلمات الحماسية في الثورة والسخط وتركت الأسلوب التقريري فلا نجـد في اسلوبها ، اقتلوا ثوروا حطموا وهو اسلوب يموت بموت الحادثة ويعفي عليه الزمن انما تحدثت بهدوء وبمنطق واضح يدخل حديثها الى القلب والعقل ، لأنها تتحدث وهي تروي

(١) وجدتها ص ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ .
(٢) وجدتها ص ٣٣ و ٣٤ .

رواية رائعة وصفت فيها ما يعاني الشريد اللاجيء وصورها في كثير من شعرها صور انسانية ناطقة تثير المشاعر الحساسة المرهفة ، وتصور في شعرها هول المصاب ومن هذه القصص القصيدة الاولى في ديوانها وهي وان كان اسلوبها قريباً من النثر ، ولم يصل الى اسلوب قادة الشعر جزالة وقوة سبك ، فانها عالجت موضوعها بصور مؤثرة وابرزت معانيها ناطقة واضحة فوقف شعرها مع الادب العالمي ، لأن رسمها للصور فرض على الناس المشاركة والمساهمة وهي خير من أبيات الشعراء الداعية الى الحرب والقتال والخراب والدمار فان كان شعر الحماسة يفيد آنياً فشعرها ينساب في النفس ويعد الشعور لتقبل القضايا المنطقية .. ولنسر مع الشاعرة في قصيدتها لنبرهن على ذاك :

صورت الشاعرة العربي اللاجيء الشريد يعيش في الخيام وليس بينه وبين بيته غير مسافة قصيرة وهو يرى وطنه المستباح يرى الربيع وقد ازهر في شذا البرتقال وفي أزاهير حديقته ويرى مروج سنابله تموج مع نسمات الربيع يرى خيره يرى أرضه في خير ولكن العدو يحول دون الوصول اليه ويبقى في أرض مجدبة تحت الامطار والرياح وفي أرض قفراء ، ما حال هذا اللاجيء الشريد الذي فقد داره ومرجه وماله ، تأخذه خيالاته الى أيام صباه والربيع الثر المعطاء والى أمنه وهدوئه وهو يخرج في الصباح الى حقله يستاف أرج ازاهيره العبقة :

تراها إذا ما الربيع أهلا — تمثل وهو يلوب انتفاض
يحضنه الحقل خير مطلا — وماج بعينيه كنز السنابل
وهو يرف عبيراً وظلا (١) — ولاح له شجر البرتقال

ويستفيق المشرد الرزين على ذله وعاره ، فيثور في قلبه القلق والحب ويهوى

(١) وجدتها ص ٨ و ٩ .

العودة ويتساءل ؟ بألم ممض :

أتغصب أرضي ؟ أيسلب حقي وابقى هنا ؟

حليف التشرد أصحب ذلة عاري هنـا (١)

ثم يعاوده الأمل الحبيب بعودة الحق السليب وبأنه لابد أن يعود وأنى المفارق المهاجر أن ينسى وطنه وأرضه وينسى ساعات هناه فى لهوه ومرحه ولما لم يجد أملا في العودة حياً فهل هناك خير من أن يموت على ثراها، فيصمم عليها ويحدث نفسه:

سأرجع لابد من عودتي		سأرجع مهما بدت محنتي

وقصة عاري بغير نهايـة		سأنهي بنفسي هذه الرواية

فلابد ، لابد من عودتي		وظل المشرد عن أرضه

يتمتم : لابد من عودتي

ثم أطرق برأسه الى أرض الخيمة ، وأخذت مراجل الألم تغلي في كبده ونيران الهموم تكوي أضالعه وحناياه ، ثم صمم على تنفيذ الفكرة .. وفي ليلة من ليالي الربيع الدافئة الجميلة وقد أذهلته الذكريات ، في الجو الرائع بسمائه الصافية ونجومه المتلألئة ، وهو سابح بأفق خيال الذكريات رأى يافا الحبيبة والبحر الساجي يداعب رجليها بامواجه وهو في قارب من قواربها يتنزه في عرض البحر ، ورأى الاشرعة البيضاء تذهب في الجو مداعبة نسيمها البحري الطري الندي فاستاف من أرج البرتقال وسار وتاه لبه حيران القلب فقد ملّ الانتظار وسئم فراق الوطن الغالي وفي سكون الصمت سار نحو الحدود .

وما زال يمشي سليب الارادة		تدفعـه قـوة لا تـرد

الى أين ؟ لم يدر . كان الحنين		زراء ألح بـه واسـتبد

(١) وجدتها ص ٩ .

كأن من الأرض ، من أرضه تصاعد يدعوه صوت شرود
يجلجل في قلب أعماقـه ويجذبـه ما وراء الحدود

وثار صراع عنيف بين العاطفة والعقل بين الشجاعة والجبن بين رهبة الموت وحب الوطن فغلب حب الوطن كل شيء بعد أن صار على خطوات من داره ولم تبق بينه وبين أرضه الحبيبة غير خطوات :

هناك تناهت خطاه ، هناك تسمر عنـد السياج العتيق
هناك تيقظ وعيـاً رهيفـاً وحسـاً عجيب التلقي دقيق
وفي نفسه كان يزدحم الدمع والشـوق والسورة المفعمه
ورجـع نداء ملح قـوي وموجـة عاطفـة مبهمه
ورائحـة الأرض في قلبـه مزيج حنان ونفح شذى
وللصمت من حوله الف معنى يعانق الف شعور خفي (١)

وانسل المشرد بين الاسلاك ووطأ أرضه ولم يصدق انه في وطنه وارضه ولم يدر ما يفعل فاهوى على الارض يشم عبيرها ويقبلها ويحتضن ترابها ويمرغ جسمه فيه كالطفل ..

وأهوى على أرضه في انفعال يشم ثراها
يعانق أشـجارها ويضم لآلي حصاها
ومرغ كالطفل في صدرها الرحب خداً وفم
والقى على حضنها كل ثقل سـنين الألم
وهزته أنفاسـها وهي ترعش رعشة حب
وأصغى الى قلبهـا وهو يهمس همسة عتب

---

(١) وجدتها ص ١٥ و ١٦ و ١٧ .

ـ رجعت إليّ ؟!

ـ : رجعت اليك وهذي يدي

سأبقى هنا ، سأموت هنا ، هيئي مرقدي

وكانت عيون العدو ترمقه شزراً من قريب ايعود هذا الى بيته وأرضه ؟ وثار حقدهم في قلوبهم كيف يعود صاحب الحق الى حقه الى أرضه الى سنابله الى برتقاله ومرجه .

وكانت عيون العدو اللئيم على خطوتين

رمته بنظرة حقد ونقمة كما يرشق المتوحش سهمه

ومزق جوف السكون المهيب صدى طلقتين

أجل عاد المشرد الى وطنه وحقق حلمه وارتعش الفجر حباً ، واهتزت الروابي شوقاً فقد ضمخ الأرض بدمه ونام مستريحاً ناعماً انه مات على ثرى الوطن الغالي .

ايها السادة والسيدات :

أهناك صورة أروع من هذه الصورة رسمت الشاعرة باسلوب بسيط ومنطق واضح وعاطفة عميقة صورة المشرد فلا يقدر المصور أن يرسم مثل هذه الصورة الخالدة لأنه يرسم على الورقة جانباً من المأساة ، أما الشاعرة فقد رسمت لنا الاحاسيس والمشاعر ، حدثتنا عن أنفاس الأرض وصفة المتشرد ، فسمعنا الخطوات وهو يدب على الارض والمشاعر وهي تغلي .. انه صدق المشاعر وعمق الاحاسيس والأمل المنشود لكل عربي في هذه القصيدة .

والشعر العربي بحاجة ماسة لتسجيل المعارك العربية ورسم صور الثورات المطالبة بالحرية والاستقلال ، والرغبات المطالبة بالوحدة ، لأن الشعر الحق هو

الذي يتصل بالأحداث ويرسم للامة آمالها وللمجتمعات ما تصبو اليه. ولن يكون الشعر خالداً الا إذا تسربت في ثناياه المشاعر الصادقة والاحاسيس النابضة الحية لأن الأدب طليعة كل حركة تحرر ورائد كل فكر وقائد الشعوب نحو الوعي في كل العصور الانسانية.

وشعراء الكفاح والنضال تنساب في شعرهم همسات الحزن وانين الهم فلا نعجب ان وجدنا هذه الظاهرة على شعر الشاعرة فقد كانت شاعرتنا تحس باعماق مشاعرها بالألم الفردي ففرعت هـذا الألم في مشاعر الوطن، وذل التشريد وهوان انقسام الشعب العربي وكل واحد منا يحس في قرارة قلبه غصة من هـذا الألم ولا يدري سبباً لهذا الألم في أعماقه.

وشاعرتنا ذاقت مرارة الوحدة والحرمان الروحي، والقلق الاجتماعي فصورت المأساة تصويراً جميلا وفي دواوينهـا الثلاثة يستطيع الباحث أن يجد ظاهرة هذا الألم والمأساة الاجتماعية والسياسية والفكرية. وقد كان شعرها الوجداني اكثر من شعرها في وطنها ولكنها بعد أن أصبحت تحت الاحتلال اخذت تكثر من النظم فقـد نشر لها ثلاث قصائد وهي اجمل سجل وأصدق صور صورها شاعر عن الاحتلال الاسرائيلي.

ومن هذه القصائد قصيدة لها في شارع من شوارع نابلس التي تزدحم فيها الحركة ويلعب في الطرقات الاطفال وتثور الضوضاء والصخب يحيل الاحتلال المدينة الى صمت الموتى فتقول :

يوم رأينا الموت والخيانة　　　تراجع المد واغلقت نوافذ السماء
وأمسكت أنفاسها المدينـة　　　يوم انحسار الموج يوم أسلمت
بشاعة الهوى الى الضياء وجهها ترمد الوجاء

واختنقت بغصة البلاء
مدينتي الحزينة
اختفت الاطفال والأغاني   لا ظل لا صدى
والحزن في مدينتي يدب عاريا   مخضب الخطى
والصمت في مدينتي مهيمن   الصمت كالجبال رابض
        كالليــل غامض
الصمت فاجع محمل بوطأة الموت وبالهزيمه
أواه يا مدينتي الصامتة الحزينه
أهكذا في موسم القطاف   تحترق الغــلال والثمار
أواه يا نهــاية المطاف

هذه حسرات شاعرة مرهفة كانت تتوقع النصر في المعركة كانت تريد أن يكون ثمار الحرب في صالح امتها وشعبها لكن يا له من قطاف مر قاتل .. ليس لها الا أن تكرر أواه أواه من عميق القلب وتعبر عن معنى اساها وحزنها ...

فقد سلمت المدينة ونالها الذل والهوان وظلم اهلها وبمن يستجير المظلوم؟

خرجت مفتوحة الصدر لتثير رحمــة السماء لترسل لها النصر وتبعد عنها طاعون الاستعمار وذل الاحتلال واجدبت الأرض من سرورها وغدت رياح المسكنة تهب على الديار .

يوم فشا الطاعون في مدينتي   خرجت العراء مفتوحة الصدر الى السماء
أهتف من قرارة الأحزان بالرياح
هبي وسوقي نحونا الغيوم يا رياح
وانزلي الأمطار .

تطهر الهواء في مدينتي وتغسل البيوت والجبال والأشجار
هبي وسوقي الغيم يا رياح ولتنزل الامطار ولتنزل الامطار ولتنزل الامطار

وعلى ما أصاب الملايين من ابناء العرب من الدهشة والحيرة واليأس ، واعتور نفوسهم من هم ، وضياع الأمل وفقدان الثقة بالنفس وبالمستقبل فانها ما راعتها الخسارة الكبيرة في جيش العربية وآلاف الجنود في ساحة الفداء فقالت :

يوم الاعصار الشيطاني امتد
يوم الطوفان الأسود
لفظته سواحل همجية
للأرض الطيبة الخضراء هتفوا ومضت عبر الأجواء
تتصادى البشرى في الانباء :
هوت الشجرة ، والجدع الطود تحطم ، لم تبقِ الأنواء
باقية تحيا الشجرة
هوت الشجرة
عفو جداولنا الحمراء عفو جذور مروية
بنبيذ سفحته الأشلاء عفو جذور عربية
توغل كصخور الأعماق وتمد بعيداً في الأعماق
ستقوم الشجرة
ستقوم الشجرة والاغصان ستنمو فى الشمس وتخضر
وستورق ضحكات الشجرة فى وجه الشمس وسيأتي الطير
لابد سيأتي الطير ، سيأتي الطير ، سيأتي الطير

قاومت الشاعرة يأسها بعناد وبقوة وبصلابة وبعزم عندما رأت الشجرة

العظيمة تهوي على الأرض وتتقصف أغصانها وجعلت أملها في الباقي منها الذي سيورق ويخضر ويزدهر وتعود الطير الى وكناتها مغردة شادية .

إن الأمل الكبير في النصر يملأ قصائدها بعد النكسة انها لا تريد أن ترى هذا الأمل يموت ويستولي عليها اليأس القاتل وفى قصيدة اخرى لها عنوانها (حيّ أبداً) تقول :

موطننا الحبيب ، لا
مهما تدر عليك في متاهة الظلم
طاحونة العذاب والألم
لن يستطيعوا يا حبيبنا
أن يفقأوا عينيك لن

* * *

ليخنقوا الأحلام والأمل — وليصلبوا حرية البناء والعمل
ليسرقوا الضحكات من أطفالنا — ليهدموا ، ليحرقوا ، فمن شقائنا
من حزننا الكبير ، من — تدبق الدماء في جدراننا
من اختلاج الموت والحياة — ستبعث الحياة فيك من جديد
يا جرحنا العميق أنت ، يا عذابنا يا حبنا الوحيد

ومتى آمن الشعب أن معركة واحدة لا تقرر مصير الأمة وآمن بان النصر لابد أن يأتي فقد تماسك الشعب وأصبح حديث النكسة والهزيمة عميق النغم ، بعيد الرنين يبعث القوة والأهبة للعمل وفى شعر شاعرتنا وهي تعاني مرارة الاحتلال قوة أمل لم يتخل عنها وجدانها ولم تفارق الحماسة الصادقة والصور الجميلة شعرها ومع أن الرمز قد تسرب الى شعرها فقد وفقت للابداع خير توفيق ...

الفهارس العامة

الاعـــلام

﴿حرف الألف﴾

حرف الباء

﴿ حرف التاء ﴾

﴿ حرف الثاء ﴾

﴿ حرف الجيم ﴾

حرف الحاء

﴿ حرف الخاء ﴾

﴿ حرف الدال ﴾

﴿ حرف الذال ﴾

﴿ حرف الراء ﴾

حرف الزاي

حرف السين

﴿ حرف الشين ﴾

﴿ حرف الصاد ﴾

﴿ حرف الطاء ﴾

﴿ حرف العين ﴾

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الامكنة والبقاع

﴿ حرف الالف ﴾

﴿ حرف الباء ﴾

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

﴿ حرف الغين ﴾

﴿ حرف الفاء ﴾

﴿ حرف القاف ﴾

﴿ حرف الكاف ﴾

﴿ حرف اللام ﴾

الشعوب والجماعات والفرق

﴿ حرف الباء ﴾

﴿ حرف التاء ﴾

﴿ حرف الجيم ﴾

﴿ حرف الحاء ﴾

﴿ حرف الخاء ﴾

حرف الراء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

﴿ حرف الغين ﴾

المصادر والمراجع والمآخذ

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

﴿ حرف الجيم ﴾

﴿ حرف الحاء ﴾

﴿ حرف الخاء ﴾

﴿ حرف الدال ﴾

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

﴿ حرف الظاء ﴾

﴿ حرف العين ﴾

﴿ حرف الفاء ﴾

﴿ حرف القاف ﴾

﴿ حرف الكاف ﴾

﴿ حرف اللام ﴾

﴿ حرف الميم ﴾

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

محتويات الكتاب

من مطبوعات المؤلف

١ ـ الشعر العراقي في القرن التاسع عشر الطبعة الاولى بغداد ١٩٥٨
الطبعة ثانية الدار القومية القاهرة ١٩٦٥ .

٢ ـ الشعر العراقي الحديث واثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه
الطبعة الاولى بغداد ١٩٦٠
الطبعة الثانية الدار القومية القاهرة ١٩٦٥

٣ ـ الشعر العراقي الاجتماعي (بالانكليزية) بغداد ١٩٦٢

٤ ـ خيري الهنداوي حياته شعره من محاضرات القيت في معهد الدراسات والبحوث العربية ـ القاهرة ١٩٦٥

٥ ـ داود باشا ونهاية المماليك في العراق بغداد ١٩٦٧

٦ ـ مخطوطة شعر الاخرس (تحقيق) بغداد ١٩٦٥

٧ ـ الاشتراكية والقومية واثرهما في الشعر الحديث
محاضرات القيت في معهد الدراسات والبحوث العربية القاهرة ١٩٦٨

٨ ـ في الادب العربي الحديث مقالات وبحوث ١٩٦٧

٩ ـ في الادب العربي الحديث وثائق ونصوص تحت الطبع

١٠ ـ مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية
مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٦٨

١١ ـ في ضمير الزمن (شعر) مصر ١٩٥٠

١٢ ـ الحان (شعر) مصر ١٩٥٣

١٣ ـ لهاث الحيات (شعر) بيروت ١٩٦٠

شكر وتقدير

لابد لي ان اشكر الاخ العزيز السيد هاشم الخطاط البغدادي على خطه العنوان والاخ الفنان نوري الراوي على تصميم الغلاف والاخ السيد صبيح رديف على اعداد الفهارس والاخ الشاعر صبحي البصام على تصليح جانب كبير من الكتاب .

MODERN ARABIC LITERATURE

STUDIES & ESSAYS

Yousif Izzidien B . A . , M . A . , Ph . D
Prof . of Arabic Literature, Baghdad University
Secretary General, Iraq Academy

Al- Basri Press

Baghdad 1968